إيهاب الملاح

شغف القراءة

الرواق للنشر والتوزيع



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

شغف القراءة

شغف القراءة

إيهاب الملاح

■ الطبعة الأولى .... يناير 2019

الغلاف: كريم آدم

رقم الإيداع: 2965/ 2019

الترقيم الدولي: 5 - 66 - 824 - 977 - 978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

شغف القراءة

إيهاب الملاح

الرواق للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى «النبيلة» هبة شريف..

في زمنٍ عزَّ فيه النبلاء والنبيلات.. محبةً ووفاءً وامتنانًا..

إيهاب

رحلة إلى مدينة «اقرأ»!

أتابع منذ سنوات، وبإعجاب كبير، جهد صاحب هذا الكتاب، المحرر الثقافي والناقد الأدبي إيهاب الملاح، أراه جهدَ عاشقٍ أسيرٍ لعشق القراءة، وأعتبره ضمن كتيبة محدودة العدد، لكنها عظيمة القيمة، تقبض على جمر المعرفة، وتؤمن بأهمية الثقافة والمثقَّف، وتتنوَّع أنشطتها بين الكتابة والندوات، فتحرِّك المياه الراكدة، بل تكتشف أقلامًا وأسماء جديدة، جديرة بالتوقف والمتابعة.

كتاب «إيهاب» الأول «مشاغبات مع الكتب» بدأت فكرته من حوارات مع من يقرؤون ويناقشون، وكان أقرب إلى التركيز والإيجاز، لكنه هنا، في كتابه الثاني، ينطلق إلى آفاق أوسع وأعمق، إنه يأخذنا حرفيًّا إلى مدينة عظيمة هائلة مترامية اسمها مدينة «اقرأ»، لا يوجد سؤال تقريبًا لم يُجِب عنه، حكاياته تأخذنا إلى كل الشوارع والأماكن، إلى الأسماء التي ترصِّع الميادين، وإلى خريطة طريق سهلة ترسم لنا معالم السير، ونقاط التوقف، لتأمُّل المباني التراثية التليدة.

في هذه الرحلة الشائقة، يصبح الكتاب هو العشق والمعشوق، الكتاب الذي جعلته طرق التدريس أقرب إلى الوحش الكريه، يتحوَّل في مدينة «اقرأ» إلى حسناء يخطب ودَّها الجميع، وكل واحد يراها من زاويته، فاتنة الدنيا، ورفيقة الليالي، عنوان البهجة، ورسول متعة العقل والوجدان.

هذا المنهج الذي يقدِّمه مؤلف الكتاب هو - في رأيي - المدخل الصحيح لكي ينفتح باب القراءة أمام أجيال جديدة، تكتفي بالمعلومة السريعة العابرة، وتقنع بالقشور، وتتهيَّب الثقافة كأنها ذنبٌ أو جريمة؛ ذلك أنها انفصلت عن الكتاب والقراءة، بعد أن ارتبطا في أذهانهم بأعمال السنة وورقة الامتحان، وبالشهادة التي يعلقونها على الجدران.

يقول هذا الكتاب الممتع، الذي يجمع بين البساطة والعمق في آنٍ: إن القراءة متعة حقيقية لمن يطلبها، وإنها تستحق كل ما كُتب عنها؛ فقد أضافت أعمارًا للقارئين، وغيَّرت حياتهم إلى الأفضل، وساعدت الإنسان على معرفة نفسه، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم كله.

إذا كنت تكره الكتاب والقراءة، فإن هناك خللًا في المنهج، وعيبًا في التعليم، وفجوةً في التلقي والاستيعاب، مدينة القراءة بألوانها أصبحت اليوم أكثر اتساعًا ورحابة، لا تكتفي بالورق، ولكنها تستوعب العالم الإلكتروني و«الميديا» الحديثة، والكتاب الذي كان مكتوبًا صار أيضًا مسموعًا، المدينة عند أطراف أصابعك أكثر من أي وقت مضى، وهذا الكتاب يدلُّك على الطريق، ويجعل من الرحلة متعة مسلية ومفيدة.

يمتزج هنا الخاص والعام؛ فالمؤلف يحكي عن تجربته الخاصة في اكتشاف القراءة، والنقد، وكتب التراث.. لكنه يقدم لنا أيضًا شهادات مهمة عن علاقة كبار الكُتَّاب بالقراءة، تتجاور على صفحات الكتاب أسماء مثل: عباس العقاد، وزكي نجيب محمود، وألبرتو مانغويل، وبورخيس، ونجيب محفوظ.. وهناك دومًا حشدٌ هائل من المعلومات عن الكتابة والقراءة، كذاكرة للإنسانية، وكتجربة لا تُنسى؛ حيث ترتبط الحروف بلذَّة المعرفة، وبهجة الاكتشاف، وسعادة التعلُّم.

ينطلق كتابنا، بعد ذلك، إلى محطاتٍ تُترجم هذا الشغف، نتوقَّف فيها عند بعض الأعمال الأدبية، ويقودنا «الأدب» إلى «النقد والنقاد»، ثم

تأخذنا الرحلة إلى «كتب التراث»، وكلها أمور يقدِّمها المؤلف ببساطة وسهولة، بعيدًا عن المصطلحات والتعبيرات الأكاديمية، من دون أن يفوته في كل مرة أن يتوقَّف عند أسماء بعينها، سواء من الأدباء، أو النقاد، أو محققي التراث أو المعنيين بإخراج نصوصه وتيسيرها للقراءة.

في ظنِّي، أن هذه الطريقة في التناوُل تسد فراغًا هائلًا صنعه التعليم السطحي، وتصحِّح مفاهيم كثيرة صارت راسخة ومستقرة، بحيث أصبح الأدب مجرد مقطوعات هزيلة وسقيمة في كتب منفِّرة، وبحيث صار النقد من الطلاسم التي لا تصل إلَّا إلى الخاصة، وبحيث أصبحت كُتب التراث كائنات ميتة مهجورة.

لم نجرِّب يومًا أن ننقل متعتنا إلى الأجيال الشابة، بلغةٍ وطريقةٍ يفهمونهما، ولم نحاول أن نشرح ونحكي، بدلًا من أن نلقِّن ونردد، حتى طريقة تدريس قواعد النحو، صارت طاردة ومزعجة، وبعد ذلك نتعجَّب لأن أجيالًا تكره اللغة، وتخطئ في النحو والإملاء، وتفرُّ من الكتاب فرارها من الأسد.

أتمنَّى أن يفتح هذا الكتابُ البابَ أمام قارئه لكي تتسع معارفه، ولكي تنكسر مخاوفه، لا شيء يُخيف إلا الجهل، والقراءة محيط هائل، يغترف منه كل شخص بما يستطيع ويقدر.

ويتمثَّل نجاح هذا الكتاب في أن يعيد للقراءة أهميتها ودورها، ويقدِّم مفاتيح للمعرفة، تتيح للقارئ ألَّا يتوه، وألَّا يعود من حيث بدأ، وهناك طموح أكبر هو أن يبحث القارئ عن أسماء الكتب، وعن مؤلفات الكُتَّاب الذين تم ذكرهم، هنا تكون الفائدة أعمق وأشمل، بل إنه هكذا تعلمنا وتثقفنا؛ كتابٌ يقودنا إلى كتاب، واسم يفتح لنا نوافذ، وحدوتة صغيرة تفتح أمامنا أبواب «ألف ليلة وليلة».

كل شيء تقرؤه يفيد ويترك بصمة لا تعرفها، أبتسمُ كثيرًا لأنني كنت شغوفًا في بداية اكتشاف عالم القراءة بالكتب العسكرية، التي انهمرت فجأة بعد انتصار حرب أكتوبر، قرأت كتابًا عن تاريخ الدبابات، كيف ظهرت في الحرب العالمية الأولى، وكيف حسمت الحرب العالمية الثانية.. وقرأتُ كتابًا بديعًا عن تفصيلات معارك الحرب العالمية الثانية في الصحراء الغربية المصرية، عن قادة هذه المعارك من «ويفل» إلى «مونتجمري».

لم أكتب حرفًا في العسكرية، ولم أدخل الكلية الحربية، صرتُ ناقدًا أدبيًّا وسينمائيًّا، الآن أستطيع أن أترجم هذا الشغف بكتب الحروب بأنه ولع في الأساس بالدراما، هكذا أفادتني قراءاتٌ قديمة لم أكُن أستوعب مغزاها، كنتُ في الحقيقة أكتشف أكبر دراما إنسانية، وأكتشف معنى الصراع، وهو جوهر الدراما، في أقوى تجلياته؛ أي: في الحروب والمعارك.

كُنَّا جيلًا مختلفًا، لديه حصة للقراءة، نذهب فيها إلى المكتبة المدرسية، ونقرأ كتبًا أخرى لن نُمتحن فيها، لم يفُت الوقت أبدًا، بل على العكس، صارت الكتب متاحة بكل الأشكال، وصارت المعرفة ممكنة بضغطة زِرٍّ، لكن الأمر يحتاج فقط إلى أن تبدأ، وأن تكتشف المدينة الهائلة.

هذا الكتاب يمنحك هذه الرحلة بكل سلاسة وجمال، فاستعدّ للقراءة، واستعدّ للسفر عبر السطور.

محمود عبد الشكور

(فيصل/ الهرم ـ نوفمبر ٢٠١٨م)

مقدمة

يحمل شهر يناير من كل عام، ببرده القارس وشمسه الشحيحة، بحرًا من الذكريات لكلِّ مَن ارتبط عمرُه بمعرض الكتاب، والبحث عن الكتب، وأنا من هؤلاء؛ فدائمًا أستدعي في هذا التوقيت من كل عام ذكرياتٍ عارمة وشجيَّة، وقتَ كنتُ لا أحمل للدنيا همًّا ولا ألقي لها بالًا وأتفرَّد وأتوحَّد بقضاء الوقت مع كتابٍ يشدني أو رواية تأسرني وتأخذني من الدنيا وما فيها.

أذكر أمي يوم كانت تشعل لي «الباجور»[1]، أتلذَّذ بوشيشه المستمر والحرارة التي يبثُّها سريعًا في المكان. أختار ركنًا منعزلًا بمطبخ بيتنا الصغير، وأجلس بالقرب من الباجور، أنسى الدنيا والناس والوقت، أتحوَّل إلى حفنة من الحواس المجردة تنفصل عن العالم وتتوحَّد مع ما تقرؤه، كأني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا من روائعها، أو فيلم كارتون بإحساسات الطفولة وحماسها وانجرافها مع الصورة والأحداث.

أقرأ كثيرًا، كل روايات نجيب محفوظ «الطِّعْمَة» قرأتها في يناير على صوت الباجور.. أعدتُ قراءة بعضها لأكثر من خمس عشرة مرة («الثلاثية»، «ليالي ألف ليلة»، «حكايات حارتنا»، «الحرافيش»، «المرايا»، «أولاد حارتنا».. مثلًا).

ذكرياتي تتداعى، وتنقلني إلى عادات القراءة التي اكتسبتُها منذ سن صغيرة. وعلى الرغم من عشقي المتناهي لنجيب محفوظ مثلًا، فلست

---

(١) لا يعلم عنه أبناء الأجيال الجديدة شيئًا، هو بالنسبة لهم من تراث الماضي السحيق.

ممن يفخرون بالتوحُّد في عشق الكتاب الواحد، ومقاربة مؤلف واحد، والتفرغ له تمامًا؛ أنا ممن يقرؤون أكثر من كتابٍ في وقت واحد، أقرأ فصلًا من كتاب، وآخرَ في رواية طويلة، وثالثًا من دراسة متخصصة، ثم أعاود الرجوع إلى الكتاب أو الرواية.. وهكذا، أتنقَّل بينها كالنحلة جيئةً وذهابًا، لا يثقلني الرجوع ولا تفصلني المسافة.. تعودتُ هذه الطريقة، وفي السنوات الأخيرة، ضغط الوقت وضيق المساحة لا يوفِّران لي رفاهية التفرُّغ الكامل لقراءة رواية أو كتاب في جلسة واحدة أو جلستين على الأكثر.

تعلمتُ أيضًا أن التحريض على القراءة شيءٌ رائع، لا بُدَّ أن تتوافر له كل سبل الترويج والتشويق، ليس هناك هدف أسمى من أن تغري الآخرين بالقراءة، وشتان بين أن تسعى إلى هذا الهدف بوسائل مبتكرة، وقدرة عارمة على التقاط الأفكار المحفِّزة ووسائل العرض المحببة وبين أن تنزلق إلى فخِّ التلخيص وتقديم المحتوى «على الجاهز» فتقتل الهدف الذي سعيتَ إليه قبل أن يولد!

يقول ألبرتو مانغويل في كتابه «يوميات القراءة»:

«لا أحبُّ أن يلخِّص لي أحدٌ الكتبَ التي أنوي قراءتها، لا بأس أن يشوِّقني بعنوان أو مشهد أو اقتباس، لكن ليس بكل أحداث الكتاب. القرّاء المتعصبون، والتلخيص الذي يتضمَّنه الغلاف الأخير، ومدرِّسو الأدب ومؤرخوه، يفسدون كثيرًا من متعتنا في القراءة من خلال وشايتهم بالحبكة، وطالما تقدَّم العمر بنا فإن ذاكرتنا يمكنها أيضًا أن تحرمنا من متعة الجهل بمعرفة ما سيحدث لاحقًا، أنا بالكاد أتذكَّر كيف كان الأمر عندما لم نكُن نعرف أن دكتور جيكل ومستر هايد ليسا سوى شخص واحد، أو أن كروزو سوف يلتقي فرايدي».

حينما أخرج صديقي وأخي ورفيق الدرب والمهنة والشغف، محمود عبد الشكور، كتابه الرائع ذائع الصيت «كنت صبيًّا في السبعينيات ـ سيرة ثقافية واجتماعية»، خصص فصلًا لأوليات زيارات الدهشة في مكتبة والده ـ رحمه الله ـ وسرد بأسلوبه العذب الرائق ذكريات تعلقه بأول كتاب، وأول رواية، وأول مسرحية قرأها، وذكر من ضمن روائع ما ذكر نصيحة ذهبية وجهها له والده العظيم:

«اكْتُب كأنَّ العالم كله سيقرأ لك.. واقرأ كأنك الشخص الوحيد الذي كُتب له الكتاب»، عناية فائقة في القراءة والكتابة معًا، وهكذا تكون الخبرة التي تميِّزنا كبشر، «القراءة» هي أثمن وأمتع وأجلّ ما نمارسه في هذه الحياة، أو ما أظنه كذلك!

لم أكُن أتمنَّى لهذه المقدمة أن تطول؛ فقط أردت أن أحييك قارئي العزيز، وأخبرك وأنا حييٌّ خجل أنني لم أقصد من هذه الفصول والأوراق سوى الإشارة والاجتهاد في أن تجسد ولو جزءًا يسيرًا من «شغف القراءة» ومتعتها؛ فلعلك تجد بعضًا مما قصدتُ إليه..

إن كان، فقد أدَّى الكتابُ دوره.. وإن لم يكُن فسامحني على ما أهدرتُ من وقتك.

إيهاب الملاح

(مدينة السادس من أكتوبر ـ ١٨ أكتوبر ٢٠١٨م)

الباب الأول

بهجة القراءة

شغف القراءة

معرض الكتاب.. برد وحنين وذكريات لا تنسى!

قد يصادف أن يصدر هذا الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، خلال فعاليات معرض الكتاب؛ المناسبة التي ينتظرها عُشَّاق الكتاب ومريدوه من السنة للسنة؛ ولا أتصوَّر أن يكون هناك من اتصلت الأسباب بينه وبين الكتاب ولا يمثل المعرض قطعة عزيزة من حياته وذكرياته وتاريخه الشخصي.. مر عليَّ حتى الآن أكثر من خمسة وثلاثين معرضًا؛ أجد شريط العمر يجري ويستعرض مشاهد ومواقف وذكريات وحنينًا..

هل تتوقف الذكريات؟ هل ينتهي الحنين؟

ما دام يناير يعود فالحالة مستمرة؛ لأن يناير لا يكتسب طعمه ولا مذاقه ولا دمغته المخصوصة ـ في حياة كل قارئ في مصر، وربما في العالم العربي أيضًا ـ إلا بالاقتران والارتباط والحديث عن معرض الكتاب

الشهير بـ«معرض القاهرة الدولي للكتاب» الذي استهل دورته الأولى عام ١٩٦٩م، أي أنه سيكمل نصف القرن (اليوبيل الذهبي) في دورته الجديدة (٢٠١٩م).

ولقد تعوَّدتُ مع انطلاق دورة جديدة من معرض القاهرة للكتاب، تدوين ما أسميه «يوميات المعرض»، أسجِّل بكل دقة تفاصيل ومشاهدات كل يوم في المعرض، مقابلات الأصدقاء وما دار فيها، الفعاليات التي حضرتها، وأخيرًا الكتب التي اقتنيتها وإشارات سريعة عنها أو عن السبب الذي جعلني أقتنيها. كل ذلك داومتُ على كتابته سنوات طويلة، وما زلت أحتفظُ به حتى اللحظة.

لكنني وجدت نفسي في الأعوام الأخيرة (في الدورتين الأخيرتين تحديدًا) على غير ما تعوَّدتُ؛ فترت الرغبة في الكتابة والمتابعة والتدوين، ووصل الأمر إلى انقضاء أكثر من نصف الفترة المقررة لمعرض الكتاب، دون أن أكتب ـ كما تعودتُ ـ حصاد جولات كل عام والكتب التي حرصتُ على اقتنائها.

ببساطة، ودون تعقيدٍ أو إغراب، فإن شعوري بمعرض الكتاب في العامين الأخيرين قد اختلف بالكلية؛ ذلك أنه يبدو مع تقدُّم العمر وتراكم سنوات الزيارة التي تعدت العقود الثلاثة، متصلة، نكتسب ألفة عميقة أو قُل خبرة ما (شئنا أم أبينا، نجحنا في رصدها وتحديد ملامحها أم لا) بهذا النشاط الذي نمارسه لفترة معلومة كل عام.

خبرة في التجوال، وخبرة في دور النشر، وخبرة في اختيار العناوين واتخاذ قرارات الشراء، أول زيارة لك في المعرض تختلف عن الثانية والثالثة، والخامسة تختلف عن العاشرة، تكتشف أن طريقة سيرك وتنقُّلك بين الأجنحة المخصصة للعرض والبيع صارت منظَّمة إلى

حدٍّ بعيد ومحددة الهدف، وبعيدة عن العشوائية والارتباك اللذين كانا يلازمانك وأنت صغير في جولاتك الأولى في رحابه. صرتُ أحفظ كل سنتيمتر في المعرض، الأجنحة ودور النشر، القديم مِنها والحديث، الذي ارتبط في ذاكرتي بسنوات الطفولة والتلمذة، وما ظهر منها على الساحة بعد ٢٠١١م (قد يتغيَّر الأمر تمامًا هذا العام مع نقل المعرض من أرض المعارض بمدينة نصر إلى مقر جديد بالقاهرة الجديدة ونظام عرض جديد... إلخ).

قبل حوالي ٢٠ عامًا، كنت أنفق في معرض القاهرة للكتاب ـ في المتوسط ـ حوالي ثلاثة آلاف جنيه (نعم ثلاثة آلاف جنيه، وربما أزيد بألف أو ألفين!)، أنفقها كلها في شراء الكتب ولا يتبقَّى منها جنيه واحد!

كنت أخصص كل عام لمجال معرفي بعينه أقتني ما استطعت من كتب مرجعية وتأسيسية فيه وفق قائمة أجتهد في إعدادها بنفسي، وقد تستغرق مني شهورًا طويلة من الحذف والإضافة والتعديل حتى تصل إلى صورتها النهائية في أثناء المعرض. فَعامٌ لكتب التراث العربي في مجالاته جميعًا، وعامٌ لكتب النقد الأدبي الحديث، وآخر للنقد العربي القديم، وما يتصل به من نصوص في التفسير والقراءات وعلوم اللغة والبلاغة والنحو والأدب القديم... إلخ، وفي عام تالٍ أخصصه بكامله لكتب الفكر العربي المعاصر وأصحاب المشاريع أو ما يطلِق عليه البعض «مشاريع القراءات الفكرية»، فأقتني كتب عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري المغربيين، ومحمد أركون الجزائري، وهشام جعيط التونسي، وطيب تيزيني وأدونيس السوريين، ونصر أبو زيد وعلي مبارك من مصر... إلخ، وكنت أسير على هذا المنوال حتى عامين أو ثلاثة مضت.

وخلال سنوات الدراسة بالجامعة (حينما تيسَّر لي دخل مستقل عن

مصاريف الكلية من عمل إضافي بسيط أو مساعدات لا أنساها من خالي الطبيب الذي كان يشجِّعني دومًا وبلا حساب) كنت أدَّخر كل مليم طوال العام، أحرم نفسي من أمور كثيرة جدًّا، أنفق كل ما ادخرته طوال أيام المعرض، لم أشعر لحظةً بالندم أو الحسرة أو حتى مراجعة يتيمة بيني وبين نفسي أنني في أيام معدودات أُنفق حصيلة ما ادخرته طوال عام كامل، وبما يقدَّر بآلاف الجنيهات في وقت كان للألف جنيه قيمة كبيرة جدًّا (أقول: كان!).

أصدقائي في الجامعة كانوا يتعاملون معي على أنني مجنون على الحقيقة لا المجاز! أما أبي، بارك الله في عمره ومتَّعه بالصحة والعافية، فكان يحمِّلني دائمًا مسؤولية إهداري ثروة حقيقية بثمن الكتب التي كنت أشتريها في المعرض وخلال العام.. إلى وقت قريب كان يقول لي: «يا ابن الـ.... كان زماننا اشترينا حتة أرض وبنيناها بفلوس الكتب دي يا ابن الـ...».. الآن نستعيد معًا هذه الذكريات ونضحك من القلب.

أكثر من ثلاثين عامًا، تقريبًا، لم أنقطع فيها عن زيارة المعرض ولو مرة واحدة، لكن الآن إحساسي به وتعاملي معه كـ«حدث كبير» و«مناسبة أنتظرها من السنة للسنة» و«الموسم الأعظم لشراء الكتب» اختلفا اختلافًا بيِّنًا وجوهريًّا في السنوات الأخيرة.. لم أعُد أذهب للمعرض لشراء الكتب في المقام الأول، لم أعُد أجهِّز قائمة ضخمة بما حددته سلفًا، صرتُ أذهب مباشرةً للجناح الذي أريد والدار التي أقصد، أخطف كتابًا بعينه أو كتابين على الأكثر، لا أتردد، عيناي تمسحان الأرفف مسحًا كالرادار، تتوقفان عند عنوان أو كتاب أعلم أنني سأشتريه فورًا ولو دفعت فيه كل ما في جيبي!

لم يعُد المعرض، كما كان، بهجة خالصة ولا «عيدًا» أستقبله وأتحضَّر

له وأنتظره بلهفة وفرح كما كنت أعيشه.. الآن صار «معرضًا» لاسترجاع الذكريات وتأمُّل ما فات ومشاهدة «السنين اللي بتسرسب من بين إيدينا».

معرض الكتاب قطعة من تاريخ وذكريات كل شـخصٍ ارتبط به من جيلي على مدار ثلاثين عامًا..

لكل شيخ طريقة..
كيف كانوا يقرؤون؟

فعل القراءة ممارسة إنسانية قديمة، ونشاط بشري يعود بجذوره إلى آلاف السنين، وخلال هذه الرحلة الطويلة تنوَّعت طرائق وأساليب القراءة والنظر في المادة المقروءة بحسب ما كان متاحًا من تقنية أو على قدر ما وصلت إليه صناعة النشر.

وفي زمنٍ صار ينافس فيه الكتابَ الميديا الحديثة وأجهزة القارئ الإلكتروني، وغيرهما من الوسائل الإلكترونية العصرية، تنوَّعت وتعددت الخيارات المطروحة أمام القارئ للمفاضلة بين أكثر من كتاب، وقراءة أكثر من نص بالتوازي والانتقال بين كتاب وآخر، كما تتنقل النحلة البرية بين زهرة وأخرى، تتغذَّى على رحيق هذه وتلك، وتنتج في النهاية شرابًا مختلفا ألوانه سائغًا للشاربين.

كيف تقرأ؟ أو بصيغة أخرى: هل هناك طريقة محددة أو طرائق بذاتها تحدِّد فعل القراءة وتؤطِّره؟ هل من طريقة/ أو طرائق تلزمها طقوس بعينها أو مراعاة لعادات بذاتها؟ هل ثمة سلوك متبع معتاد لدى ممارسة القراءة؟

والسؤال قديم، لكنه متجدد، وسأبدأ بنفسي قبل استعراض بعض ما يمكن أن يمثل نماذج أو خبرات متعددة ومتنوعة في ممارسة القراءة والتعاطي مع الكتاب. أما الإجابة فتحددت عندي، ومنذ زمن بعيد، مُذ أن قرأت عبارة المرحوم الدكتور زكي نجيب محمود، التي يقول فيها: «اقرأ وكأن الذي معك ليس كتابًا من صفحات مرقومة بحروف وكلمات، بل كأنك تتحدث مع مؤلف الكتاب، اقرأ وكأن الذي معك هو الرجل الحي يعرض عليك فكرته أو خبرته بصوت مسموع؛ ففي هذه الحالة ستجد نفسك مدفوعًا إلى مراجعته ومساءلته ومراجعته جزءًا جزءًا ومعنًى معنًى، وهكذا تكون القراءة الحية بفاعليتها الذهنية».

أما طقوس القراءة وأشكالها وتنوُّع أساليبها فغالبًا ما تشهد اختلافاتٍ كبيرةً بين الكُتَّاب والمشاهير والمشتغلين بالأنشطة المعرفية المباشرة والمتصلة بالقراءة..

فالفنان والمخرج المصري الراحل شادي عبد السلام، مخرج فيلم «المومياء» الشهير، كانت له طريقة غريبة في القراءة؛ إذ كان يقرأ وسط الكتب، ويقرأ عدة كتب في وقت واحد، يبدأ فصلًا في الكتاب الأول، ويتركه إلى فصلٍ في الكتاب الثاني والثالث والرابع، ثم يعود إلى الفصل الثاني في الكتابِ الأول.. وهكذا، تتناثر الكتب في كل حجرة بما في ذلك المطبخ ودورة المياه!

من الصعب أن نجد تفسيرًا معقولًا لهذه الطريقة في القراءة، خصوصًا أن «شادي» كان يقرأ في مجالات مختلفة ومتنوِّعة، ويبدو أنها في النهاية مسألةُ تعوُّد بالدرجة الأولى. طريقة ربما يعدُّها البعض غريبة فعلًا، لكنها إحدى طرائق وأساليب القراءة التي يمارسها الكثير من القُرَّاء في أنحاء متفرقة من العالم.

في كتابه «فن القراءة»، يعرض الكاتب والروائي الأرجنتيني الشهير ألبرتو مانغويل بعض أساليب وطرائق القراءة لعددٍ من مشاهير الكتاب، وعلى رأسهم الكاتب الأرجنتيني «خورخي لويس بورخيس»؛ إذ كان يقرأ بنهمٍ غير مسبوق وفي كل المجالات، وعندما فقد بصره استعان بـ«مانغويل» كي يقرأ له بصوت عالٍ النصوص التي كان يختارها من المكتبة، فيقرأ له تارةً كتابًا في الأدب، وتارة آخر في الفلسفة، وأخرى ثالثًا في التاريخ، وكان يتنقَّل بين كل هذه الفروع والمجالات بذات السلاسة التي يدخِّن بها سيجارة أو يشرب كوبًا من الماء!

وعندما سُئل المفكر وأستاذ الفلسفة الراحل زكي نجيب محمود عن طريقته في القراءة وكيف يقرأ، أجاب قائلًا: «لا تجعل من نفسك في أثناء القراءة شريطًا من أشرطة الكاسيت يتلقَّى ولا حيلة له فيما يتلقاه، بل تمهَّلْ هنا وقف هناك واسأل وحاوِر ووافق واعترض؛ فالذي معك هو إنسان حي بفكره ووجدانه، وقد يكون إنسانًا أطول منك باعًا وأقدر منك على الغوص وراء الحقائق، لكنك لن تبلغ منه كل ما تريد إلا إذا وقفت منه موقف الأحياء من الأحياء؛ إذ يلتقون في دروب الحياة ومسالكها».

ويصف عباس محمود العقاد، الذي اشتُهر بأنه من القراء النهمين، طريقته في القراءة بقوله: «وطريقتي في القراءة ألَّا أذهب مع الطرف في الصحيفة إلا ريثما أذهب مع الفكر في نفسي. فقد أتناول الكتاب أبدأ فيه حيث أبدأ إذا كان من غير الكتب التي يلتزم فيها الترتيب والتعقيب، فيستوقفني رأي أو عبارة تفتح لي بابًا من البحث والرويَّة، فأمضي معها وأطويه فلا أنظر فيه بقية ذلك اليوم أو أنتقل منه إلى كتاب آخر، وأجد هذا التوجيه في أنفَس الكتب كما أجده في أردئها،

فلا أميِّز بينها في الابتداء، ولا يكاد يستدرجني إلى المضاء في المطالعة غير موضوع يستوعب ذهني ويأخذ علي المؤلف فيه باب الانفراد بالفكر دونه. فأما وقد عرفت رأيي في الكتب وطريقتي في المطالعة · فهلمَّ نقرأ...».

ويلفت الفرنسي دانيال بناك في كتابه الممتع «متعة القراءة» إلى أنّ زمن القراءة، كزمن العشق، يزيد من طول زمن العيش، وأنّه إن كان علينا أن نتعامل مع الحبِّ من وجهة نظر برنامج عملنا اليوميِّ، فمَن كان سيخاطر ويعشق؟ مَن يملك الوقت ليكون عاشقًا؟ ومع ذلك، هل رأينا يومًا محبًّا لا يجد الوقت ليعشق؟ وتراه يؤكِّد أنَّ القراءة، كالحبِّ، أسلوب حياة.

ولا يكمن السؤال في معرفة إن كان لدى المرء وقتٌ للقراءة أم لا، بل في معرفة ما إن كان سيمنح نفسه سعادة أن يكون قارئًا أم لا.

يقول هيرمان هيسه: «ليس علينا الخوف من القضاء على مستقبل الكتب. على العكس؛ فكلما أشبعت الحاجات من تعليم وترفيه عبر الاختراعات الأخرى، ارتفعت مكانة الكتاب وزادت قوة حضوره. حتى أكثر الناس تأثرًا بصبيانية هذه الاكتشافات سوف يضطر للاعتراف أخيرًا بأبدية الكتابة والكتب. ولسوف يتضح وضوح الشمس أن صياغة الكلمات وكتابتها لن تساعدنا فقط، بل هي في الواقع الوسيلة الوحيدة التي تمكِّن الإنسانية من امتلاك الوعي المستمر والتاريخ».

أُسطوات فنِّ التثقيف

كثيرًا ما أقابل شبابًا في ندوات وجلسات قراءة، يسألون عن أعمال أدبية (روايات، قصص، مسرحيات) يرشِّحها لهم كُتَّابهم المفضلون كي يقرؤوها، ليس فقط أعمالًا جديدة أو كتبًا حديثة الصدور، بل إنهم يركِّزون بصفة خاصة على الأعمال التي كُتبت قديمًا أو قبل فترة من الزمن ولم يسمعوا بها قط، أو ما نستطيع إجمالًا أن نطلق عليه «كلاسيكيات» أو «روائع الأعمال الأدبية» أو «عيون الأدب العالمي»، في الرواية والقصة والمسرحية، وفي مجالات الإنتاج الثقافي والفكري عامة.

هذا المطلب الذي يجسِّد افتقادًا حقيقيًّا لأدوار كان يلعبها قبل سنوات ـ صارت بعيدة ـ أساتذة وكُتَّاب أخذوا على أنفسهم القيام بهذا الدور؛ التثقيف ومساعدة المقبلين على القراءة والمعرفة بشغف وحماس، أولئك الذين يمنحون الآخرين مفاتيح أبواب العالم الساحر إلى متعة القراءة، أولًا، واجتياز العتبات الأولى للانخراط في ممارسة أرقى نشاطات العقل البشري، ثانيًا.

هذا الدور قام به معظم رواد التنوير في القرن العشرين.

يحكي لي أحد أصدقائي الكبار (سنًّا وقيمة) أنه هو ومعظم أبناء

جيلي كانوا يتخطفون كتابات أنيس منصور، مثلًا؛ لأنه كان النافذة الأولى لشباب تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة لنتعرَّف إلى أسماء وكتابات لفلاسفة وأدباء ومفكرين؛ عن ألف ليلة وليلة، و(ديكاميرون) بوكاتشيو، وشخصيات بيرانديللو التي تبحث عن مؤلف، و(كانديد) فولتير الباحث دومًا عن شعاع نور وسط الظلام، وأشعار رامبو المتمردة، ورحلات جاليفر العجيبة، وعبثية يونيسكو، ومساخر دون كيشوت..

لنتعرف على الحقيقة، كتابًا مثل «نماذج بشرية» للناقد العظيم محمد مندور، الذي سنتناوله بالتفصيل في فصل آخر من فصول هذا الكتاب.

كتاب واحد من كتب لويس عوض (وكلها عندي مهم وقيِّم ومفيد ومتجدد)، مثلًا: «الحرية ونقد الحرية»، على الرغم من أنه كتاب صغير الحجم لا يتجاوز الـ ٢٥٠[1] صفحة، لكن كل صفحة منه تحمل جديدًا، تقدم رؤية، إضاءة، كشفًا، تحليلًا، سعيًا دؤوبًا بين دروب الأدب والفن والثقافة والتراث، يجول لويس عوض ينقِّب وينتقي ويبرز ما خفي بين السطور، لنتعرف إلى أعظم الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين.

جولات ممتعة بصحبة توفيق الحكيم، وصلاح جاهين، وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، وعباس محمود العقاد، وغيرهم.. هؤلاء الذين أثروا حياتنا الفنية والأدبية بمختلف المشاعر والأحاسيس والأفكار، وأمدونا بقيم إنسانية رفيعة وخبرة زاخرة.

لا بُدَّ أن يخرج قارئ هذا الكتاب بحصيلة ربما تجاوز أضعاف ما يمكن أن يناله شاب الآن من كل ما هو متاح حوله من وسائط!

---

(1) آخر طبعة صدرت منه، فيما أعلم، في مكتبة الأسرة عام ١٩٩٦م.

بالتأكيد كان لويس عوض «أُسطى» عظيمًا من أسطوات فن التثقيف وإمتاع القارئ وإفادته بكل صورة وشكل ولون.

ولا أنسى أبدًا كتابات رجاء النقاش الممتعة، بلغته السهلة وثقافته الغزيرة واستحضاراته الأدبية والتاريخية والتراثية، واكتشافاته الإبداعية المذهلة[1].

وإذا كانت الصحافة الأدبية (أو ما نطلق عليه الآن الصحافة الثقافية) تشكِّل النافذة الرئيسية التي انطلق منها صوت رجاء النقاش للقارئ العربي، فقد استطاعت هذه النافذة أن تحمل من تنوع الأصوات وتعددها ما يستجيب لحاجة القُرَّاء على اختلاف وتنوع رغباتهم وتصوراتهم لما يشبع الظمأ الثقافي ويبقي جذوة التفكير والحوار مشتعلة إن لم تكُن «متوهجة».

هناك كتابات أخرى ركَّزت على الهدف ذاته، وإن تغايرت الوسائل والأدوات وطرق التعبير، مثلًا ما تركه الراحل الكبير علاء الديب في كتابه العظيم «عصير الكتب»[2]، اختط علاء الديب طريقًا كان شيخَه ورائدَه، وألهم من بعده كتابًا ونقادًا وصحفيين ليحذوا حذوه، ليست العبرة بأن تكتب كتابة جميلة فقط، لكن أن تصل بما تكتبه إلى دوائر التحريض وإثارة الفضول وإشعال الشغف داخل دوائر التلقِّي والاستجابة لقارئ محتمل، مفترض، قارئ سيلتهم هذه السطور بعينيه التهامًا، ولن ينتهي من قراءة الفصل أو المقال إلا ويكون قد اتخذ قرارًا نهائيًّا وحاسمًا بالبحث عن هذا الكتاب، أو هذه

---

(١) هو أول من اكتشف الطيب صالح، وكتب عن رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال»، واكتشف الموهبة الشعرية الباذخة محمود درويش، الذي أطلق عليه «شاعر الأرض المحتلة»، واكتشف أحمد عبد المعطي حجازي وسميح القاسم وغيرهم.

(٢) صدر منه جزآن حتى الآن.

الرواية، أو تلك المسرحية التي كتب عنها «الديب».

هنا يكون الكاتب قد نجح بامتياز في أداء الدور المنوط به، وهو إثارة وتنشيط الحاسة الجمالية وأجهزة الاستقبال والتذوق كي تمارس مهامها.

ومن قبل المرحوم علاء الديب، كان هناك أيضًا ما يكتبه الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، في الصفحة الأخيرة من «صباح الخير» و«روز اليوسف»، لم يكُن عبد الصبور شاعرًا عملاقًا فقط، بالتأكيد كان قارئًا ذكيًّا وممتازًا أيضًا، قارئًا نهمًا وحساسًا تجاه ما يقرأ، لم يفوت «عبد الصبور» مناسبة يستعرض فيها مسرحية قرأها أو شاهدها دون أن ينوِّه بها أو يشير إليها، يكتب عن رواية أو شخصية في رواية، أو عن تيمة تناولها أديب بطرائق جمالية لفتت انتباهه واستوقفته.

بعد وفاة «عبد الصبور» بسنوات كثيرة جُمعت أعماله الكاملة وصدرت عن الهيئة العامة للكتاب في ١٢ مجلدًا من القطع المتوسط، من أهم هذه المجلدات وأكثرها ثراءً: تلك التي جمعت مقالاته وكتاباته عن الأدب، والنقد، والشعر، والرواية، والقصة، والمسرح، والسينما.. ذخيرة حية وحقيقية نابضة بالقيمة والروعة والإشارة إلى مراقي الجمال في هذه الأعمال.

من بين معاصرينا الذين يؤدون هذا الدور، وإن تباينت الطرق وتغايرت المسالك: بلال فضل، مثلًا، في أكثر من كتاب له: «في أحضان الكتب»، «فتح بطن التاريخ»، و«فيتامينات للذاكرة»، أحدث كتبه وآخرها، الذي أهداه إلى المؤرخ الدكتور خالد فهمي، وكتاباته التاريخية الملهمة، وإلى كتاب «حكايات من دفتر الوطن» وكاتبه الأستاذ صلاح عيسى؛ الأستاذ على الرغم من كل شيء.

شخصيًّا أعتبر ثلاثية بلال فضل هذه من أمتع الكتب التي ظهرت في السنوات الأخيرة، لن أتحدَّث عن أسلوب «بلال» وسخريته وخفة دمه ولا نحته لعبارات لا تتأتَّى إلا لمن تشرَّب الروح الأصيلة للوجدان الشعبي المصري.. تأمَّل فقط تلك العجينة الإنسانية المراوحة بين الأدب والسياسة والتاريخ والاجتماع والحس الشعبي، تلعب كتب بلال فضل هذا الدور بامتياز وتقدم زادًا رائعًا لمن يبحث عن خيوط يبدأ منها ولا ينتهي إليها لكي يخوض الرحلة المقدسة؛ رحلة المعرفة والاكتشاف.

(وَصْلٌ)

«أنيس منصور».. بيست سيلر الصحافة المصرية

على الرغم من أن كثيرين قد يختلفون معه في مواقفه أو أفكاره أو انحيازاته الشخصية، فإنه لا أحد يختلف على أن أنيس منصور (١٩٢٤ـ٢٠١١م)، كان صاحب قلم نادر وبديع، وكان يستطيع أن يصل إلى قارئه عن طريق أبسط الكلمات وأكثرها تكثيفًا.

ولا شكَّ أيضًا في أنه أحد أبرز الظواهر الصحفية و«الثقافية» في مصر والعالم العربي، بسبب الشهرة الكبيرة التي نالها في سن مبكرة، وغزارة الإنتاج، فضلًا عن شبكة علاقاته الواسعة بأبرز الشخصيات العامة في عصره، في السياسة والصحافة والفن والثقافة.

٢٥٠ كتابًا بالتمام والكمال، عدا ما يصعب حصره من المقالات والكتابات غير المنشورة، هي حصيلة ما استودعه أنيس منصور من كتب ومؤلفات، ولعله واحد من أغزر المؤلفين المصريين (والعرب)، إن لم يكُن أغزرهم في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو في ذلك يُعد، بصورةٍ ما، استمرارًا واستكمالًا لجيلٍ من المفكرين والأدباء والكتاب اشتُهروا

بغزارة الإنتاج، وكان عطاؤهم ونتاجهم العلمي والأدبي يشكّلان في مجموعهما مكتباتٍ زاخرة سخية من المعارف والعلوم والفنون والآداب، هو في ذلك ـ من حيث الكم ـ فاق إنتاج طه حسين، والعقاد، وهيكل، وأحمد أمين، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، وغيرهم.

وما بين الكتاب الأول والكتاب الأخير، رحلة طويلة مديدة عامرة بكل ما يمكن أن يدهشك ويعجبك ويثير سخطك أيضًا! لكنك لن تترك كتابًا له، أمسكت به وشرعت في قراءته، قبل أن تتمه، أو تطالع بعينيك السطر الأول من مقاله اليومي، المنشور هنا أو هناك، بهذه الجريدة أو تلك، إلا وتجد نفسك مسحوبًا بكامل إرادتك ورغبتك في متابعة ما يقول حتى لو كان «ريان يا فجل»!

هذا هو أنيس منصور، بارعٌ براعةً لا توصف في أن يجذب إليه عشرات الآلاف من القراء، في نفَسٍ واحد، لمتابعته وقراءته حتى لو كانوا من مخالفيه في الرأي أو من الحانقين عليه أو حتى من الكارهين!

أول كتاب لأنيس منصور فوجئ به مطبوعًا وعليه اسمه، كان كتاب «وحدي مع الآخرين»، يحكي أنه قرأ على غلافه الخارجي العبارة التالية «مقالات بقلم: أنيس منصور»، وهو عبارة عن مقالاته التي كان ينشرها آنذاك بـمجلة «الجيل»، وكانت كل علاقته بهذا الكتاب أنه وقع تحت يده مصادفة، في أثناء زيارته دمشق حين عثر عليه في حي سوق الحميدية الشهير بسوريا، ولم يكُن له صلة لا بجمعه ولا بنشره، ولم يكُن يعلم من الأساس أن هناك كتابًا مطبوعًا له يُطبع ويُوزَّع بهذا البلد الشقيق، ما جعله يشعر كأنه بحَّار تسلَّم خطابًا بأن زوجته ولدت ففرح!! بحسب روايته، فهذا أول كتاب له صدر في غيابه وبغير علمه!

أما أول كتاب وُلد على يديه، وطُبع ونُشر بمعرفته، فهو كتابه

الشهير «**الوجودية**»، الذي نُشرت طبعته الأولى عام ١٩٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٧ سنة، وهو كتاب صغير يمكن أن يُدرج في عداد الكتب التعليمية المبسطة، بلغة عربية سهلة، وكان دائمًا ما يعتز بأنه من أسبق الأعمال المكتوبة بالعربية للتعريف بالوجودية، وقد طُبع من الكتاب أربع طبعات في شهر واحد، ونفدت نسخه المئة ألف، وهو يُرجع ذلك إلى أن الموضوع كان محل اهتمام الناس في ذلك الوقت، وجاء في عبارة سهلة المأخذ ميسورة الفهم. ويكاد يكون هذا الكتاب أيضًا هو الوحيد المخصَّص بكامله للفلسفة، وهي من الأشياء اللافتة والمثيرة للدهشة في نتاج أنيس منصور الفياض.

وما بين الكتابين الأول والأخير، توالت وتتابعت كتب أنيس منصور كالشلال في كل فروع المعرفة وفي كل المجالات: صحافة، سياسة، أدب، تاريخ وتراجم، دراسات نقدية، قصص ومسرحيات، مترجمات، رحلات، دراسات نفسية.. سجَّل «سيرته الذاتية» في أكثر من كتاب، منها: «البقية في حياتي»، «طلع البدر علينا»، «إلا قليلا»، «حتى أنت يا أنا».

لكن يبقى من بينها كتابه الأهم والأضخم «عاشوا في حياتي»، الذي خصصه لأهم مراحل عمره، وبالأخص فترة الطفولة وتفتُّح الوعي وعلاقته بأمه التي شكَّلت وجدانه وحياته ومستقبله كله فيما بعد، وأيضًا ما تأثَّر بوالده فيه، وفترة الكُتَّاب وحفظه القرآن، وسجل في هذا الكتاب صفحات بديعة ورائعة يصف فيها، بأسلوبه الرشيق، كثيرًا من المعتقدات والعادات الشعبية التي كانت وما زالت تسود في قرى مصر وريفها.. وهي، في رأيي، تمثل مادة فلكلورية طيبة لا غنى عنها لأي دارس أو باحث في المأثورات الشعبية.

وفي «أدب الرحلات»، أسهم أنيس منصور بنصيب وافر من الرحلات التي جاب فيها أنحاء العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، دوَّنها في كتب كثيرة: «اليمن.. ذلك المجهول»، «بلاد الله.. خلق الله»، «أطيب تحياتي من موسكو»، «أعجب الرحلات في التاريخ»، «غريب في بلاد غريبة».

لكن يظل من بينها جميعًا كتابه الأشهر والأكثر إمتاعًا وجمالًا «٢٠٠ يوم حول العالم»، وهو نموذج رائع لأدب الرحلة في الأدب العربي الحديث، ومن أكثر كتبه رواجًا وانتشارًا وذيوعًا، ومارس تأثيراته البالغة على أجيال كاملة من الشباب والكُتَّاب والصحفيين، وتخطى عدد طبعاته الخمسين، ومنذ سنوات قليلة احتفل أنيس منصور بصدور النسخة المليونية من هذا الكتاب الذي حطَّم كل الأرقام، ومثَّل ظاهرة لا تتكرَّر كثيرًا في عالم النشر والكتب والمطبوعات، ووضع اسم أنيس منصور في مصاف أهم وأعظم كُتَّاب أدب الرحلة في مصر خلال القرن العشرين.

أما كتابه الأشهر أيضًا ـ الكثير جدًّا من كتبه يتنازع صفة الأشهر!ـ «في صالون العقاد كانت لنا أيام»، فكتاب ضخم فاتن، ولا أظن أن كتابًا في الأدب وتاريخ تلك الحقبة الساطعة من الفكر والثقافة (تاريخ الفكر والثقافة المعاصرة)، جذب الناس واستحوذ على إعجابهم لفترة طويلة من الزمن مثلما جذبهم هذا الكتاب.

فصوله عبارة عن الحلقات التي كان ينشرها أنيس منصور أسبوعيًّا على صفحات مجلة «أكتوبر»، وكان القراء ينتظرون صدور المجلة على أحرِّ من الجمر، ثم يتلقفونها بمجرد صدورها لقراءة ما يكتبه «أنيس» عن «العقاد»، وذكرياته معه، كذلك كان أنيس منصور تلميذًا نجيبًا من تلامذة «العقاد» الكبار، لم يفتأ يذكر أنه كان على رأس أهم الكتاب الذين أحبهم وتأثَّر بهم واختلف معهم، لكنه لم يسمح لنفسه أن يكون

من دراويشه المسبحين بحمده والدائرين في فلكه، وعلى الرغم من ذلك فلم يستطِع «أنيس» إلَّا أن يفرد لـ«العقاد» هذه الدراسة الضخمة التي قارب عدد صفحاتها السبعمئة صفحة من القطع الكبير.

ربما كان التأثير الأكبر والأهم لأنيس منصور هو الغاية التثقيفية التبسيطية التي لعبها باقتدار لعقود طويلة، خاصة عبر عموده في الأهرام (مواقف)، اقترن اسمه بنافذة مشرعة على مصراعيها لكل مقبل على القراءة ومحب للمعرفة وشغوف بالاطلاع، يتحسس خطواته الأولى، كان أنيس منصور محطة مهمة ورئيسية في حياة أجيال كاملة من الشباب الذي نشأ على قراءة كتبه ومتابعة مقالاته.

مولد «اقرأ»..
تاريخ سلسلة عظيمة

قرن إلا ربع قرن بالتمام والكمال مرَّ على صدور العدد الأول من سلسلة «اقرأ» العظيمة، هذه السلسلة التي شكَّلت وكوَّنت أذهان وثقافة الملايين، ليس في مصر وحدها، بل في العالم العربي كله.. لم تكُن سلسلة «اقرأ» أبدًا سلسلة كتب ثقافية «عادية».. إنها سلسلة لها تاريخ، لها حكاية تُحكى.. وقصة تُروى..

في يناير من العام ١٩٤٣م، أصدرت دار المعارف، أكبر دار نشر في العالم العربي في ذلك الوقت، سلسلة كتبها الشهيرة «اقرأ»، وكان يُشرف عليها ألمع نجوم الفكر والثقافة في العالم العربي، آنذاك: طه حسين، وأحمد أمين، وعباس محمود العقاد، وعلي الجارم، وآخرون.. وبهذه المناسبة نظَّمت الدار حفلًا باهرًا دعت إليه كبار الشخصيات السياسية والثقافية والاجتماعية، وصدرت الصحف في صبيحة اليوم التالي لهذا الحفل وهي تزدان بصور الحضور، ورصدت كاميرات المصورين اللقاءات والأحاديث الجانبية بين عمالقة الفكر والثقافة المصرية والعربية.

كان صدور سلسلة ثقافية شعبية للمرة الأولى، اجتمعت لها هذه الصفوة، حدثًا جليلًا، تابعه عموم القراء في العالم العربي أجمع، واستهل

تقليدا عظيما: أن يقوم كبار الكتاب والمفكرين بالتوجه مباشرة إلى «القارئ» العادي، هو المستهدف، لم يقصدوا أن يخاطبوا في كتبهم التي كانت تصدر عن السلسلة في قطع صغير أنيق وعدد محدود من الصفحات ـ لا يزيد على ١٥٠ أو ٢٠٠ صفحة على الأكثر ـ أي تعقيد أو إغراق في مصطلحات وتفاصيل لا تهم سوى المتخصصين.

وسيُدهش القارئ الكريم عندما يعرف أن هيئة تحرير السلسلة كانت تتكوَّن من أعلام العصر، وأن اسمها «اقرأ» قد جاء باقتراح من الرائد الكبير أحمد أمين، وكتب لها الكلمة الافتتاحية طه حسين، وصدر أول أعدادها بعنوان «أحلام شهرزاد» له أيضًا.

كانت غاية هؤلاء جميعًا «تثقيفية» في المقام الأول؛ تقديم وجبات شهية من ألوان وصنوف مختلفة من المعارف والفنون والآداب ليضعوها أمام الراغبين من القراء والشباب منهم بالأخص، يفتحون لهم أبواب المعرفة ويحثونهم على طلب المزيد. هذه الغاية الجليلة تتضح، ومنذ الأسطر الأولى، من الافتتاحية التي كتبها طه حسين للسلسلة الجديدة:

«إن الذين عُنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية، وأن ينتفعوا وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها».

برنامج السلسلة وطموحها والغرض منها.. ذلك كله لخَّصه طه حسين في افتتاحيته؛ إذ يؤكد بوضوح أسلوبه الجميل ونصاعته أن «هذه السلسلة من الكتب القصيرة اليسيرة الرخيصة التي يسهل شراؤها وتهون قراءتها ويقرب الانتفاع بها والاستمتاع بما فيها ولا يشق ثمنها على

أوساط الناس ولا فقرائهم. ومثل تلك السلاسل جهد من الجهود التي تُبذل في سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات».

ويوضح طه حسين أن النية في تلك السلاسل وأشباهها «أن تكون على يُسرها وقُربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه؛ فهي تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة وهي تنشر الآثار التي تؤلَّف كما تنشر الآثار التي تُترجَم، وهي تنشر من هذا كله في كل فرع ممكن من فروع الإنتاج العقلي: في الأدب الإنشائي وفي الأدب الوصفي، في العلم الخالص وفي العلم التطبيقي، في السياسة، في التاريخ، في العمران والاجتماع، في كل لون من ألوان هذا النشاط الذي يجعل العقل الإنساني منتجًا في جميع فنون المعرفة».

كان طموح القائمين على السلسلة، وبخاصة طه حسين، هو تيسير سبل المعرفة الحديثة لكل الراغبين فيها، خاصة من الشباب، وأن تكون متاحة في كل مكان في القاهرة والمحافظات[1].

خلال الفترة من ١٩٤٣م حتى ١٩٦٣م ـ سنة تأميم دار المعارف ـ وما بعدها، توالت أعداد السلسلة التي شكَّلت وجدان وثقافة أجيال عدة، على مدار عشرات السنين، ولعبت دورًا خطيرًا وغير مسبوق في تلبية شغف وفضول قطاعات واسعة من الشباب في مصر وخارجها، في الثقافة والآداب والفنون والعلوم، بل كانت ملهمة للكثير من دور النشر والمؤسسات الخاصة والحكومية في احتذاء التقليد ذاته، وإخراج سلاسل مشابهة، تسعى إلى اللحاق بالنجاحات التي حققتها «اقرأ»، والشهرة الكبيرة التي حازتها على امتداد العالم العربي كله، ومنها، على

(١) كانت دار المعارف، في ذلك الوقت، تتصدَّر مؤسسات النشر المصرية والعربية بامتلاكها أكبر شبكة توزيع وتسويق داخل مصر وخارجها على السواء.

سبيل المثال: سلاسل دار الهلال الشهيرة: كتاب الهلال وروايات الهلال.

في هذه السلسلة، قرأتُ عشرات الكتب التي أحالت بدورها إلى كتبٍ أخرى في عملية متصلة مركبة لا نهائية، بالضبط مثل لحظة الانشطار النووي التي تبدأ بانقسام نواة واحدة لتصل إلى ما لا نهاية من الانشطارات.. هكذا تأتي البداية، كتابٌ ثم كتابان ثم أربعة ثم ثمانية.. وهكذا، والكم هنا ليس هو الذي يُعوَّل عليه، بل الانتقال من معرفة إلى أخرى ومن مستوى إلى آخر، ومن موضوعٍ إلى موضوعات، ومن مؤلف إلى مؤلفين عدة..

كان هؤلاء الرواد مشعلي العقول، يقرؤون ليفهموا أنفسهم أولًا والعالم ثانيًا، ومن ثَمَّ يستطيعون أن يقدروا موقعنا من هذا العالم، ماذا نحن فاعلون؟ ماذا يمكن أن نقدم للبشرية مثلما قدم الآخرون؟

اختطَّ كل منهم طريقه، حسب رؤيته ومجال تخصصه، والدوائر التي يمكن أن يمارسوا فيها أدوارهم التنويرية، بدءًا من قاعات الدروس داخل أسوار الجامعة، يعلِّمون طلابهم ويغرسون فيهم بذرة السؤال وجرثومة المعرفة، وليس انتهاءً بالكتابة على صفحات الجرائد والمجلات.

لكنهم في الوقت ذاته، كانوا يعون جيدًا أن هذا ليس كافيًا، كانوا ضد الدوائر المغلقة، آمنوا بأن المعرفة حق للجميع، وأن دورهم الأول والأساسي هو «**التثقيف**»، الوصول إلى الناس لا التعالي عليهم واحتقارهم، الارتقاء بملكاتهم وقدراتهم وتوسيع مجال استجابتهم لكل أنواع العلوم والثقافات والفنون والآداب.

لن تجد واحدًا من الأسماء التي ذكرتها، أو لم أذكرها في هذه الفترة، لم يتوجَّه لقارئ مفترض، يبحث عنه مثلما يبحث هو الآخر عنه، كتبوا في كل المجالات والفروع بقدر ما تسنَّى لكل منهم من معرفة

وتحصيل، لكنهم دائمًا لم يغفلوا حق الذين يرتقون الدرجات الأولى على سلم المعرفة، يضعونهم نصب أعينهم، يبحثون عن الوسائل والوسائط المناسبة للتواصل معهم.

طه حسين، العلَم الذي اقترن اسمه بدار المعارف واقترنت به، في عشرات من كتبه، كان مهمومًا بهذه الغاية الرفيعة: «التعليم» و«التثقيف»، تيسير المعرفة لراغبيها، السعي إلى مشاركة القراء كل جديد مفيد وممتع.

تجد هذا في كتابه «ألوان»، مثلًا، الذي جمع فيه افتتاحياته لمجلة الكاتب المصري حينما كان رئيسًا لتحريرها في الفترة من ١٩٤٥م وحتى ١٩٤٨م، مائدة حافلة بأشهى الأطعمة، كتبَ عن ابن حزم الأندلسي، كما كتب عن ستندال، وقارن بين كتابيهما الرائعين «طوق الحمامة» للأول و«الأحمر والأسود» للثاني، جنبًا إلى جنب ما كتبه عن «فولتير» و«بول فاليري»، مثلما كتب أيضًا عن «أندريه جيد» الفرنسي، و«كافكا» الألماني، والأدب الأمريكي والإسباني والإيطالي والألماني..

ولـ«العقاد» عشرات من الكتب التي توجَّه بها إلى هذا القارئ المحتمل، «القارئ» الذي يبحث عن المتعة والفائدة، وبنظرة إلى عيِّنة من هذه الكتب ستعرف كيف كان «العقاد» يستميل القرَّاء: «سيرة قلم»، «أنا»، «ساعات بين الكتب»، «الفصول»، «رجال عرفتهم»، «يسألونك»، و«يوميات»... إلخ.

ولم يفارق محمد حسين هيكل هذه الدائرة كما ترى في كتابه «في أوقات الفراغ»، وجمع أحمد أمين بدوره مقالاته الافتتاحية لمجلة «الثقافة»[١]

---

(١) مجلة «الثقافة»، واحدة من أهم المجلات الثقافية التي كانت تصدر في النصف الأول من القرن العشرين، ولعبت دورًا رائدًا مع نظيرتها «الرسالة»، في إشاعة النور ونشر المعرفة وإخراج أجيال من كبار الكُتَّاب في الأدب والفن والعلوم والإنسانيات.

العريقة التي كان يترأس تحريرها طيلة عشرين عامًا في كتابه الباذخ ذي الأجزاء العشرة «فيض الخاطر»، وهو عبارة عن سياحات رائعة وعميقة في موضوعات شتى ومتنوعة، في الأدب والتراث والفلسفة والدين والتاريخ، كتب عن شخصيات قديمة وأخرى معاصرة للمؤلف، عن كُتَّاب ومؤلفين، شيوخ وأفندية ومستشرقين، عن الأزهر والجامعة المصرية، عن التعليم والقراءة والكتابة وإشكاليات النهضة... إلخ.

«لماذا نقرأ؟».. قصة كتاب عظيم

ما سبق كان عن سلسلة «اقرأ».. وكيف وُلدت وخرجت إلى النور.

فماذا عن هذا الكتاب: «لماذا نقرأ؟»؟ وما علاقته بالسلسلة؟ وأين موضعه منها؟ وما الرابط بين الاثنين؟

بعد حوالي ٢٠ سنة من صدور سلسلة «اقرأ»، وفي الستينات من القرن الماضي[1]، أصدرت دار المعارف بهذه المناسبة**[2] كتابًا لطيفًا صغير الحجم يقع في ١٤٤ صفحة من القطع الصغير، كان يوزَّع هديةً لقرّاء دار المعارف، وكان عنوانه «لماذا نقرأ؟» وبعنوان فرعي «لطائفة من المفكرين». ولا شيء آخر يدل على محتوى الكتاب باستثناء إشارة العنوان.

جاءت مقدمة هذا الكتاب الصغير تحت عنوان «مني إليك.. الكلمة المكتوبة وحرية الالتزام»، كتبها على الأرجح محرر دار المعارف آنذاك، الأستاذ عادل الغضبان، الذي أشار في تقديمه الموجز إلى المناسبة التي واكبت صدور هذا الكتاب، وهي افتتاح مكتبة حديثة كبرى لدار المعارف في قلب القاهرة (بشارع عبد الخالق ثروت) «لتنضم إلى أخواتها من مكتباتها السبع في القاهرة، والإسكندرية، وأسيوط، لتعمل جميعًا

---

(١) بالتقريب سنة ١٩٦٣م.

(٢) على أرجح الآراء التي استطعتُ استخلاصها من بين روايات كثيرة.

على السمو بعرض الكتاب وحسن تقديمه إلى القارئ».

ثم يقول محرر الدار: «واليوم نقدم لك في هذا الكتاب فصولًا عن القراءة كتبها لك صفوة من القارئين والمفكرين، تحمل عصارات من انطباعاتهم وخبراتهم، وتهيئ لك فرصة أحسن لإنفاق وقتك في قراءة أنفع. إنني أهدي هذا الكتاب إليك، وأرجو أن يبقى في مكتبتك، بعد أن تقرأه، دليلًا على حبِّك للقراءة، وشاهدًا على أن دار المعارف تتقيَّد في التعامل معك بمبدأ الحرية والالتزام».

كانت المفاجأة التي حملها هذا الكتاب الصغير إلى قارئه، الذي بمجرد تصفحه ومطالعة فهرسه وأسماء الذين حرروا فصوله التي جاءت على ظهر الغلاف الخلفي، سيجد أمامه وجهًا لوجه: طه حسين، عباس العقاد، حسين فوزي، السعيد مصطفى السعيد، السيد أبو النجا، عادل الغضبان، جمال الدين العطيفي، إسماعيل صبري عبد الله، وأخيرًا حلمي مراد..

هؤلاء كلهم يسجلون في هذا الكتاب الصغير بعضًا من ذكرياتهم عن تجربتهم مع القراءة، ويقدمون مادة غاية في الروعة والمتعة والإدهاش، لا يمكن بأي حالٍ أن يطالعه شخص في مستهل الطريق أو يتصل بالكتاب والثقافة بسببٍ من الأسباب ولا يكتسب منه قوة دفع هائلة وطاقة إيجابية غير مسبوقة تحرِّضه على القراءة وتجعله شغوفًا بها، راغبًا فيها، محبًّا لها.

فصول مدهشة عن القراءة كتبها صفوة من القارئين والمفكرين في ذلك الزمن الجميل، تحمل عصارات انطباعاتهم وخبراتهم، وتهيئ لقارئه فرصة ذهبية لإنفاق وقته في قراءات أنفع.

وتخيَّلْ، صديقي القارئ العزيز، أن كل هؤلاء الكبار قد اجتمعوا في مُؤلَّفٍ واحد، لكَ وحدكَ، يخاطبونك مباشرة ليجيبوك عن السؤال المهم، الخالد: لماذا نقرأ؟ وأسئلة أخرى تتفرع عنها، من نحو: وكيف نقرأ؟ وما السبل والوسائل التي تيسِّر لنا ذلك؟ يعرضون أمامك خلاصة تجربتهم في القراءة، كيف كانت، ومن أين بدأت الرحلة، وإلى أين صارت، ماذا أحبوا من كتب، وكيف تشكَّلت وتكوَّنت النواة المعرفية التي انطلقوا منها، كلٌّ في مجاله، ليكونوا بعد ذلك هؤلاء الأعلام الكبار. يطرحون وجهات نظرهم وماذا تعني لهم القراءة وما الجميل فيها!

ويسير الكُتَّاب على هذا المنوال، يتناول كلٌّ منهم موضوع القراءة من مدخل مختلف؛ فمنهم مَن سجَّل ذكرياتٍ وانطباعاتٍ ذاتية، ومنهم مَن حكى عن القراءة والعلوم والثقافة العلمية، وبعضهم تحدَّث عن خبرة الترجمة كأحد أشكال القراءة المنتجة، وآخر رأى القراءة عملية حسابية بالأرقام، ويأتي واحد منهم ليقدم «روشتة» مبهجة وشهيَّة تحفِّز على القراءة وتفتح الطريق وتثير الخيال.

ومَن كان يتصوَّر أن في هذا الكتاب سيواجه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وجهًا لوجه، يحكي عن تجربته مع القراءة أو «زاد الشعب»، كما أطلق عليها؟! وهو الذي يقول أيضًا في الكتاب: «ما نعرف شيئًا يحقِّق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة».

وسيُفاجَأ القارئ بأنه أمام العملاق عباس محمود العقاد، يجيبه عن السؤال: «لماذا هويتُ القراءة؟»، ويكشف له عن أسرار طفولته وبداية تعلُّقه بالقراءة وشغفه بها في كتابة جميلة ممتعة، صادقة وعارمة بالتفكير والخبرة والفائدة، وستجد العبارة الرائعة التي يتذكَّرها كل أبناء جيلي، ونحن في المرحلة الابتدائية، وكنا نحفظها عن ظهر قلب:

«كلا.. لستُ أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرِّك كل ما في ضميري من بواعث الحركة. والقراءة وحدها دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد؛ لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب».

«العقاد» أيضًا هو الذي يقول في هذا الكتاب: «الكتب كالناس؛ منهم السيد الوقور، ومنهم الكيِّس الظريف، ومنهم الجميل الرائع، والساذج الصادق، والأريب المخطئ، ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع. والدنيا تتسع لكل هؤلاء. ولن تكون المكتبة كاملة إلا إذا كانت مَثَلًا كاملًا للدنيا. يقول لك المرشدون: اقرأ ما ينفعك. ولكني أقول: بل انتفع مما تقرأ؛ إذ كيف تعرف ما ينفعك من الكتب قبل قراءته؟ إن القارئ الذي لا يقرأ إلا الكتب المنتقاة كالمريض الذي لا يأكل إلا الأطعمة المنتقاة. يدل ذلك على ضعف المعدة أكثر مما يدل على جودة القابلية».

وسيروي لك الفنان والمثقف الكبير حسين فوزي، الشهير بـ«سندباد»، ما توصَّل إليه بشأن القراءة التي لخَّصها في جملة «**القراءة فن**»، وسيكتب الرائد الشامي الكبير عادل الغضبان عن «الكتاب»، وكان الغضبان «شعلة النور والنار» في دار المعارف وأحد أعمدة نهضتها الكبار، ربما كان «الغضبان» أول من مارس مهنة «المحرر الأدبي» لدار نشر بمعناها الحرفي المعاصر، في ذلك الزمن البعيد.

وتحت عنوان «لماذا نقرأ؟ وكيف؟» ستقرأ مقالًا إرشاديًّا بديعًا، كتبه الرائع حلمي مراد، من صناع ثقافتنا المصرية المجهولين، صاحب

سلسلة «كتابي» التي وفَّرت معرفة أولى وممتازة بروائع الفكر الإنساني عبر العصور، وقدَّم ترجمات ناصعة لعيون الأدب العالمي منذ عصر الإغريق وحتى القرن العشرين.

ستطالع أيضًا في هذا الكتاب مقال الدكتور إسماعيل صبري عبد الله عن «القراءة والعلم»، الذي طَرح فيه مجموعة من الإشكاليات الحضارية والعلمية المرتبطة بالقراءة، ما جعل من مقاله «بحثًا» ممتعًا، ودرسًا رائعًا في ربط الفنون الإنسانية بالعلوم الطبيعية. وستجد ما كتبه أحدهم من أن «القراءة حياة عقاقير الروح وغذاء النفس وطب العقول، ومهما أوتي الإنسان من عبقرية فقد تجف نضارتها فيه إن لم يتعهدها بريِّ القراءة».

وهكذا أهدتْ دار المعارف لقارئها، كعادتها في ذلك الزمن الجميل، هدية حقيقية، ووضعت بين يديه سجلًّا وافيًا لذكريات هؤلاء الكبار مع خبرة القراءة وآرائهم عنها، لحظة التعرُّف الأولى، الاكتشاف الأول، لذة افتضاض المعرفة بعشق، عقد الصداقة الذي لم ينقطع، والعهد السرمدي المتجدد بينهم وبين الكتاب «صديق العمر».

بعد ٣٠ عامًا.. طبعة جديدة

في عام ١٩٩٣م، وبمناسبة احتفال دار المعارف بمرور خمسين عامًا على سلسلة «اقرأ»، أصدرت الدار كتابًا تذكاريًّا بعنوان «خمسون عامًا من الثقافة.. ١٩٤٣ ـ ١٩٩٣م»، بغلافٍ ذهبي جميل صممه الفنان الراحل الكبير جودة خليفة، وضمنته مادة كتاب «لماذا نقرأ؟»، وأضافت إليه فصولًا أخرى، كتبها أعلام ومفكرون وأدباء عن تجاربهم مع سلسلة «اقرأ» والحث على القراءة بشكل عام.

جاءت هذه الطبعة في ٢٠٨ صفحات من القطع الصغير - قطع سلسلة «اقرأ» المعروف - وانقسم إلى ثلاثة أجزاء: الأول بعنوان «تجربتي مع اقرأ»، وضم تحته الكلمات التي كتبها خصيصًا كلٌّ من: نجيب محفوظ، وشوقي ضيف، ويوسف خليف، ومصطفى محمود، وأخيرًا مصطفى بهجت بدوي.

وجاء الجزء الثاني بعنوان «تجربتي مع القراءة»، وضم كل مادة كتاب «لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين» وزيد عليها ثلاثة فصول جديدة لثلاثة من كبار مثقفينا ومبدعينا، هم: توفيق الحكيم، ويحيى حقي، وصلاح عبد الصبور.

أما الجزء الثالث والأخير، فكان عبارة عن ملحق ضم صفحات بعنوان «من ذاكرة اقرأ»، فيها تعريفات وإشارات لبعض أهم الكتب التي صدرت عن السلسلة، خاصة أعدادها الأولى.. وأخيرًا فهرس شامل أو قائمة كاملة بكل ما صدر من عناوين وكتب في سلسلة «اقرأ» منذ صدور عددها الأول عام ١٩٤٣م وحتى آخر أعدادها التي صدرت آنذاك تحت رقم ٥٧٨، وكان كتاب «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره» للدكتور محمد الدسوقي.

طبعة أخرى

وفي عام ١٩٩٨م، قامت دار المعارف[١] بإصدار طبعة جديدة من الكِتاب تحت العنوان نفسه «**لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين**»، وهم الأسماء التسعة الكبار المذكورين في الطبعة الأولى، بالإضافة إلى فصلين

(١) كان يترأس مجلس إدارتها في ذلك الوقت الكاتب الصحفي الأستاذ رجب البنا.

آخرين أضافهما الأستاذ رجب البنا، فصل تقديمي بقلمه جاء بعنوان «قصتي مع الكتاب»، وآخر بعنوان «بساط الريح السحري» للدكتور حسين كامل بهاء الدين، وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت.

و.. طبعة جديدة

ثم أخيرًا، وبعد سنوات طويلة، عام ٢٠١٧م، ظهرت الطبعة الرابعة من الكتاب القيم، الممتع، الذي صدرت طبعته الأولى قبل ما يزيد على نصف القرن! طبعة جديدة تمامًا حرصت دار المعارف على توفيرها لقارئها وصاحب الفضل عليها، وكلَّفتني مشكورة بالاضطلاع بالإشراف على هذه الطبعة، والتقديم لها، وهو شرف كبير.

وهذه الطبعة الجديدة التي شرفتُ بإعدادها، وكتابة مقدمة تفصيلية لها، طبعة مختلفة من وجوهٍ عمَّا سبق؛ ذلك أنها جمعت كل ما زيد أو أضيف من فصول أو مواد تتعلق بموضوعه، بعد ترتيبها وتصنيفها، ووضعها بحسب مكانها اللائق في الكتاب.

كما تروي المقدمة التفصيلية قصة جمع الكتاب وتحرير فصوله، وتتتبع ظهوره الأول في عام ١٩٦٣م، مرورًا بطبعتين أخريين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥م، وصولًا إلى الطبعة الأخيرة التي صدرت عام ١٩٩٨م. ومن حينها لم يطبع هذا «الكتاب/ الكنز» أي طبعة أخرى حتى صدور هذه الطبعة في ٢٠١٧م.

وتأتي هذه الطبعة في ٢٧٢ صفحة من القطع المتوسط، وقد حرصتُ على الحفاظ على الطابع التوثيقي لسلسلة «اقرأ» التاريخية الشهيرة[١]،

(١) تقريبًا ما زالت هي أقدم سلسلة كتب شهرية تصدر حتى الآن.

ومن هنا احتفظت بكل المادة التي سجلت عنها في مناسبات وسنوات سابقة. وأضيف، على الفهرس الكامل لعناوين السلسلة، كل ما صدر من عناوين خلال الفترة ما بين ١٩٩٣ و٢٠١٥م، لتكون بذلك أول قائمة كاملة وشاملة وتفصيلية لأعداد سلسلة «اقرأ» منذ صدورها سنة ١٩٤٣م.

وجاء ترتيب الفصول في الطبعة الجديدة كما يلي:

أولًا: فصول مادة كتاب «لماذا نقرأ؟» بإضافاته وزياداته، ليشتمل على اثني عشر فصلًا كاملة؛ بدلًا من تسعة في صورته الأولى، ثم جاءت تاليًا: مادة فصول تجربتي مع «اقرأ»، وهي خمسة، وأخيرًا: الفهرس الكامل لأعداد السلسلة.

كانت سعادتي بصدور هذه الطبعة لا توصف، خصوصًا بعد أن تيسَّر أخيرًا أن نضع بين أيدي القراء والقارئات، الشباب والشيوخ، المصريين والعرب، هذا الكتاب الذي دائمًا ما أصفه بـ«الكنز»، «كنز حقيقي» غائب عن عيون وأذهان السادة القائمين على مناهج التعليم في وزارتنا العتيقة التي كان اسمها ذات يوم «وزارة المعارف العمومية»، ليت القائمين عليها سمعوا به، أو وقع تحت أبصارهم، لكان فيه الكفاية والغنى عن كثير من الموضوعات المملَّة التي يقررونها على الطلاب في برامج القراءة المختلفة، ليتهم يعلمون أن مثل هذا الكتاب الجليل خير محرِّض ومحفِّز للناشئة والشباب على القراءة والسعي إلى المعرفة، ليتهم يسعون إلى الحصول على نسخ منه ويوزعونها بالمجان على الطلاب في المدارس، لكن من يسمع؟! ومن يستجيب؟!

أراهن على أن هذا الكتاب «الجميل» سيكون سببًا مباشرًا في جذب آلافٍ من الشباب كي يقعوا في غرام القراءة ويسعون إلى أن

تكـون سـلوكًا ملازمًا لهم، ومن لم يكُن مقبلًا على القراءة شـغوفًا بها سـيتحوَّل عقب قراءة هذا الكتاب إلى «عاشق» مفتون بعملية القراءة في ذاتها، سيكتشف أنها متعة متجددة مشتهاة، لا تنفد لذّتها، ولا يرتوي شاربها.

قصتي مع دار المعارف

ارتباطي بدار المعارف «قديم» و«تاريخي»، ومع كل سنة من عمري كانت هذه الصلة تزداد متانةً وقوة، رحلة طويلة عمرها الآن يربو على خمسٍ وعشرين سنة، من مصاحبة كتب وإصدارات دار المعارف، وحلمتُ يومًا بأن أكتب عنها وأن أكشف الصفحات المجهولة من تاريخها وآثارها ومؤلفيها، ولم أكُن أعلم أن اسمي سيرتبط بها في يوم من الأيام، وأن ترتب الأقدار بيني وبينها رباطًا وثيقًا؛ إذ عملت في مستهل حياتي الصحفية، وما زلت، بمجلة أكتوبر التي تصدر عن دار المعارف.

وتمر الأعوام والسنون، والفكرة تكبر وتنتقل رويدًا رويدًا من عالم الظلال والأحلام إلى مقالات وموضوعات، فصول وأبواب تتراكم على مدار أعوام، وأجدني أقعُ أسيرًا، بكامل إرادتي، في معايشة أحداث وشخوص وأعلام ووقائع وتفاصيل قرنٍ وربع القرن من الزمان، أجمع المادة وأنقِّب في بطون الكتب القديمة والدوريات الثقافية، وأتصل بأشخاص ارتبطت أسماؤهم بدار المعارف بصورة أو أخرى، أرجع إلى عشرات، بل مئات، الكتب من إصدارات دار المعارف، أقرأ كتبًا كاملة لأخرج بسطر واحد أو معلومة شاردة، أعيد البحث مرات ومرات حتى أستوثق من تاريخ ميلاد أو وفاة، أتحرَّى قدر الجهد والطاقة أسماء

العناوين والمؤلفين وتواريخ الصدور..

كنتُ في العاشرة من عمري عندما وقع في يدي عددٌ من أعداد سلسلة «المغامرين الخمسة» للمرحوم محمود سالم، التي كانت تصدرها دار المعارف، لم أكُن لأهتم في هذه السن باسم دار النشر، فضلًا عن استيعابي أصلًا لمفهوم «دار النشر»، كل ما أذكره هو انجذابي الشديد لما بين يديَّ، أقرؤه بنهم وشغف عظيمين، ولا أكاد أبدأ في هذا اللغز حتى أنتهي منه، وأنا في حالة من النشوة والسعادة بهذه الأحداث المثيرة والشخصيات الذكية واللغة السلسة الجذابة.

وفي مكتبة المدرسة، تعرَّفتُ لأول مرة إلى أعداد من سلسلة «المكتبة الخضراء»، كان غلافها جميلًا وملونًا، وعناوينها أشد جاذبية، قرأت منها قصة واثنتين، ثم قرأت كل ما كان متاحًا في المكتبة من أعدادها اللذيذة الرائعة. وفي مكتبة المدرسة أيضًا قرأتُ موسوعات علمية مبسَّطة ودوائر معارف شديدة التشويق والجاذبية، لوحاتها ملوَّنة وخرائطها واضحة، ورسومات للحيوانات والغابات والبلدان الغريبة، ذلك كله قرأته في كتب مذيلة بتوقيع دار المعارف.

في المرحلة الإعدادية، ومع اتساع دوائر المطالعة والقراءة والاهتمام بكل ما هو خارج المواد الدراسية والمناهج المقررة، وقع في يدي كتاب صغير مكتوب على غلافه «**اقرأ**»، واسمه «دمشق.. مدينة السحر والشعر» لمحمد كرد علي، كان كتابًا رائعًا ومثيرًا، احتلَّ مكانه في ذاكرتي فورًا بحروفه الطباعية المميزة (على الرغم من صغرها اللافت) وبقطعه الصغير الأنيق، كُتب على غلافه الخلفي «**اقرأ.. سلسلة كتب شهرية للجيب، يشترك في تأليفها أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية، تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر**».

أعود بذاكرتي إلى الوراء، يوم طلبتُ من والدي أن يحادث أحد
دقائه[1] كي أحصل على نسخة من قائمة إصداراتها الكاملة، وقد
ذلك بالنسبة لي حلمًا وسعادة لا تنفد. وعندما نجحتُ في الوصول
قائمة إصداراتها لأعوام ١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٨م، ذُهلت من الكم
ول من الكتب والمطبوعات التي أعجز، لضخامتها وسعتها، عن
حاطة بها وقراءتها جميعًا، فضلًا عن اقتنائها كلها، لكنني قررت أن
بع خطة سنوية أساسها التحضُّر والاستعداد خلال فترة معرض
كتاب الذي يُقام في يناير من كل عام، ويكون جناح دار المعارف
و الجناح الأول الذي أزوره وأقتني منه ما أقدر على شرائه في حدود
يزانيتي المالية.

التحقتُ بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب جامعة القاهرة،
اكتشفتُ أن كلَّ كتاب قيم ومرجعي وفريد في بابه نعود إليه ونقرؤه
اهتمام وعناية لا بُدَّ أن يكون صادرًا عن دار المعارف؛ فَكُتب النهضوي
لتنويري الأكبر، عميد الثقافة العربية طه حسين، كلها عن دار المعارف،
كتب عمالقة الأدب والنقد والفكر والتاريخ والفلسفة كلها صادرة
عن دار المعارف؛ كتب «العقاد» و«هيكل»، وحسين فوزي، وشوقي
ضيف، وعائشة عبد الرحمن، ونعمات أحمد فؤاد، وعبد الحليم محمود،
وخالد محمد خالد، وعبد الحليم الجندي، ومحمد كامل حسين، ويوسف
خليف وغيرهم، موقعة بالصدور عن دار المعارف.

أهم الكتب التأسيسية التي لا غنى عنها لطالب الدراسات الأدبية
واللغوية كانت مطبوعة في دار المعارف، خاصةً في سلسلتها العظيمة

---

(١) الأستاذ إسماعيل منتصر كان مدير تحرير مجلة «أكتوبر» ثم أصبح رئيس مجلس إدارة «دار المعارف» فيما بعد.

«مكتبة الدراسات الأدبية».. أكثر من عشرين كتابًا قرأتُها في هذه السلسلة قبل أن أتخرَّج في الكلية، أول كتاب قرأته على هامش دراستي لمادة «مدخل إلى الدراسة الأدبية»[1] كان كتاب «البحث الأدبي.. أصوله ومناهجه» للدكتور شوقي ضيف، ثم قرأتُ له أيضًا «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» و«الفن ومذاهبه في النثر العربي» و«الأدب المعاصر في مصر»، وكتابيه عن «البارودي» و«شوقي»: «البارودي رائد الشعر الحديث» و«شوقي شاعر العصر الحديث».. وعندما درسنا مادة الأدب الأندلسي رجعنا للكتابين المرجعيين «في الأدب الأندلسي»، لجودت الركابي، و«تاريخ الأدب الأندلسي»، لأحمد هيكل، وهما كتابان لطيفان يمثلان مدخلًا مناسبًا للمقبل على هذا الفرع من الدراسة دون عقبات أو صعوبات تُذكر.

في الفرقة الرابعة، قرأت كتاب المرحوم عبد المحسن طه بدر «تطور الرواية العربية الحديثة في مصر»، ولا أذكر عدد المرات التي رجعتُ فيها إلى هذا الكتاب من كثرتها، ثم انفتحتُ على كمٍّ كبير من الكتب الأخرى والدراسات المتخصصة في مرحلة ما بعد الجامعة، عدد ضخم من الكتب والدراسات المؤلفة والمترجمة: صلاح فضل، طه وادي، سيد البحراوي، محمد فتوح أحمد، البدراوي زهران، أحمد شمس الدين الحجاجي، سليمان العطار، حسين نصار، وغيرهم.

---

(١) درّسها لنا المرحوم محمود علي مكي، وحضرتُ فيها أيضًا محاضرات للدكتور عبد الحكيم راضي.

سهير القلماوي..
و«العالم بين دفتي كتاب»..

أعتبر هذا الكتاب (الذي لا أعرف لِمَ لَمْ يحظَ بالشهرة اللائقة ولا الذيوع الذي يستحقه) واحدًا من أمتع وأجمل الكتب التي يمكن أن تقرأها بالعربية حول القراءة، وشغف القراءة، وجمال القراءة، وعن «القراءة» في العموم باعتبارها نشاطًا معرفيًّا وخبرة إنسانية فريدة.

ربما لأن الكتاب لم يُطبع طبعةً متقنةً منذ ظهوره في صورته الأولى قبل ما يزيد على ستة عقود كاملة[1].

وربما لأن تراث الدكتورة سهير القلماوي بالجملة في حاجة ملحَّة وماسة إلى طبعة جديدة معاصرة تكون بين أيدي الناشئة والشباب أولًا، وبين أيدي دارسي الأدب والمتخصصين في النقد والدراسات الشعبية ثانيًا، وثالثًا لكل عشاق المعرفة والثقافة الراقية في العموم.

على كلٍّ، نتمنى ونطمح إلى أن تتحقق هذه الأمنية مع الاحتفال باليوبيل الذهبي لمعرض القاهرة الدولي للكتاب[2].

---

(١) صدرت منه طبعة رديئة مليئة بالأغلاط والأخطاء الطباعية المفزعة عام ٢٠١٠م، لكنها للأسف الطبعة الوحيدة المتاحة الآن!

(٢) أسست المرحومة سهير القلماوي معرض الكتاب للمرة الأولى عام ١٩٦٩ ضمن =

نعود إلى كتاب «العالم بين دفتي كتاب»، الذي تقول «القلماوي» في تقديمها له: «هذا الكتاب الذي نقدِّمه جهد من جهود التشجيع على القراءة وتقريبها إلينا والحث عليها. بل لقد قُصد به أن يكون نبراسًا يعين على التغلُّب على مشاقها، وييسِّر المرانة عليها والفائدة منها ويضاعف متعتها ويزيد من بهجتها. ولقد أقدمتُ على نقل صورة منه إلى قُرَّاء العربية، يحدوني الاعتقاد بأننا في حب القراءة أصيلون، وفي تبجيل العلم والعلماء سابقون، فأخلق بنا ألَّا نتخلَّف عن الركب، على حين أن الناس كلهم من حولنا يسيرون».

وهو، كما يقول المرحوم ناصر الأنصاري في تصديره، إحدى الثمار الفكرية للدكتورة سهير القلماوي، بموسوعيتها المدهشة ونشاطها المتعدد في مجالات كثيرة، علمية وأدبية ونقدية وإبداعية... إلخ.

إذن، فالكتاب، ببساطة، عبارة عن سياحات بالغة المتعة والجمال في رحاب التجربة الإنسانية التي تتمحور حول خبرة «القراءة»، وعلى الرغم من أن للإنسان في رحلته الطويلة على هذه الأرض تاريخًا طويلًا وممتدًّا مع مصادر المعرفة المختلفة والمتنوِّعة التي اتخذت أشكالًا وألوانًا مختلفة على مر العصور، تظل القراءة، والقراءة وحدها، وسيلته المفضلة والمحببة والأكثر ارتباطًا بنزوعه الفطري للحضارة والمعرفة، هي متعة النفس وغذاء الروح ومداد العقل، هي وسيلة العقل المباشرة للانتقال الحر المرح بين آثار الفكر البشري ومنتجاته الحضارية على مرِّ الأزمان.

بَنَت الدكتورة سهير القلماوي فكرة الكتاب على ترجمة مقالاتٍ متنوِّعة ومنوَّعة عن القراءة، وأنواعها، وطرائقها المختلفة، كانت تتصرف فيها إلى حد كبير، وتستبدل بنماذجها الغربية الموجهة للقارئ الأوروبي في

= فعاليات الاحتفال بألفية تأسيس القاهرة، ولهذا حديث آخر ممتد وقد يطول!

المقام الأول نماذج عربية من التراث أو الأدب المعاصر، وبما يتناسب مع القارئ المصري والمتلقي العربي في المقام الأول، وانتقت من بين هذه المواد الموضوعات التي ارتأت أنها تعبّر عن الفكرة الرئيسية للكتاب، وتجسِّد الرسالة التنويرية التثقيفية التي تتغياها، وهي الأستاذة الرائدة التنويرية دون شك.

وتكشف الدكتورة سهير في مقدمتها للكتاب عن سبب تصرفها الكبير في مادته بين الترجمة والتمصير وكتابة مواد إضافية عليه، بقولها: «ولَمَّا لَمْ يكُن من المستطاع إخراج الكتاب في صورته الأصلية مترجمًا كما هو لاختلاف المصادر والنصوص والكتب والأذواق والأحوال، طلبتُ إلى مؤسسة فرانكلين، صاحبة الفضل في تعريفي بهذا الكتاب وتكليفي بنقله، أن أتصرَّف فيه ولو بالكثير كلما لزم الأمر، فأذنتْ مشكورةً مؤكدةً أن الهدف ـ هدف الحث على القراءة والترغيب فيها وتيسير سُبلها والتغلب على صعوباتها ـ أهم بكثير من التقيُّد بصورة الكتاب الأصلية، فالغاية أسمى من أن يقف في سبيلها اعتراضٌ مهما يكُن».

وأما ما يمكن أن ننقله من هذا الكتاب على سبيل الاقتباس، وضرب الأمثلة، والإشارة الدالة إلى ما حواه من فقرات ذهبية فهو كثيرٌ ومغرٍ، وكلها قيم وكلها يستحق أن يدوَّن بالأبناط العريضة، تدور حول القراءة وآلياتها، وطرائق تنميتها، وكيفيات تطويرها، والكتاب وقيمته، ودوره، والمكتبات، وتاريخها، وصفحات من أدوارها وحكاياتها... إلخ.

على سبيل المثال، لا الحصر، عن متعة القراءة ولذتها التي لا تدانيها لذة، تقول «القلماوي»: «ما أطيب الوقت الذي تمضيه في القراءة، وما أجمل الساعات التي يمضيها الإنسان في الاطلاع على ذخائر العقل

وكنوز المعرفة، فتنمو معلوماته وتتسع ثقافته، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتقوية الصلة بالكتاب واتخاذه رفيقًا لا يفارقه. فإذا استطاع الإنسان أن ينظِّم أوقات القراءة ويروِّض نفسه عليها فإنه بذلك يعيش في متعة لا تعادلها متعة، ولذة تصغر أمامها كل أمور الحياة».

أما غريزة المعرفة وملكة القراءة، ليس كنشاط فردي بل كسلوك جماعي يمايز بين الأمم والشعوب، فتقول عنهما القلماوي:

«إن الشَّعب الذي لا يقرأ لا يستطيع أن يعرف نفسه، ولا يستطيع أن يعرف غيره من الشعوب؛ فهو لذلك لا يستطيع أن يتآلف ويتحاب ويتلاقى؛ لأن الإنسان بطبعه عدو لما يجهل، وكذلك الشعوب، إن الشَّعبَ الذي ترجوه كل أمَّة شعبٌ يعرف نفسه ويعرف غيره، فيحب هذا الذي يعرفه، ويقوده الحب إلى العمل المُخلص الذي يعودُ عليه وعلى جيرانه بالفوائد العميمة».

وكذلك، فإن من التمايزات الحاسمة بين الإنسان والحيوان، ضمن سلم التطور والترقي والتحضر بين الكائنات والمخلوقات في هذا الكون، ما تشير إليه بقولها:

«إن ما يميِّز الإنسان من الحيوان هو التفكير، وإن بعض الحيوان ليفكِّر بدرجة من الدرجات، لكن تفكير الإنسان أرقى، وهو يصعد في سلم الرقي بقفزات تعلو وتعلو أبدًا، وسبيل هذا الصعود هو أن يبني الخَلف على آثار السَّلف ممَّا لا يمكن أن يتم في عالم الحيوان، وإنما هو يتم في عالم الإنسان ليس غير، ولا يمكن لهذا البناء أن يتم إلا بوساطة الكتب؛ فالكتب هي التي تدُلنا على الدَّرَج الذي ارتقى إليه الأقدمون لنرقى نحنُ فيما بعد».

وأما رسالة الكتب فإنها ترمي إلى أهداف ثلاثة: «أما الهدف الأول،

فهو أن تعلِّمنا ما لا نعلم، والهدف الثاني أن تُوحي إلينا بما نحتاج إليه من وحي، وأما الأخير فهو أن تسمو بمشاعرنا ومداركنا إلى ما يجب أن نسمو إليه من رفعة وطهر».

ومن طرائف هذا الكتاب أن تشير الدكتورة «القلماوي»[1] إلى فكرة المكتبات المتنقِّلة وجَوْبها الأقاليم والبلدان النائية، فتقول في موضع من الكتاب: «من أطرف ما أدخلت أمريكا في حياة القُرَّاء في بعض الأمم: فكرة المكتبات المُتنقِّلة على عربات، التي تصل إلى أماكن بعيدة وكثيرة لتوصِّل الكتاب إلى يد القارئ حتى لا يجد مشقة في الوصول إليه».. وسأكتفي بهذه النقول، لكني فقط أستميح قارئي العزيز أن أعرض عليه عينة من الموضوعات التي تطرَّق إليها الكتاب وعالجَتْها فصوله الشائقة الممتعة.. خذ عندك:

الكتب أصدقاؤنا، هل تقرأ شعرًا؟، لنقرأ معًا قصصًا، هَاكَ رواية، تلك قصة قصيرة، هذه مسرحية...

كيف تقرأ؟ ماذا تقرأ؟ متى تقرأ؟ القراءة المثمرة[2]، الكتاب.. كيف أختار كتابي؟، جمع الكتب واختيارها، مشاركة الكتب مع آخرين، التأليف الأدبي، التأليف العلمي، التأليف المدرسي، الكتب للجميع، إخراج الكتاب، شكل الكتاب وأجزاؤه، الناشر وحرية النشر... إلخ.

لا أشك لحظةً في أن هذا الكتاب حال نشره وذيوعه سيكون سببًا مباشرًا في جذب آلاف الشباب إلى معيَّة القراءة وصحبتها، وسيكون هؤلاء على موعد دائم مع الكتاب لا يفارقونه مهما مرت السنون وكرت الأيام.

---

(١) الكتاب منشور بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٨م.

(٢) هو من أمتع مقالات الكتاب وأطرفها، وأذكر أننا درسنا في المرحلة الابتدائية، ربما، بعض فقرات ممتعة وخلابة من هذا المقال، وقد أكون متوهمًا وتتلاعب بي الذاكرة!

كتب «مانغويل» عن القراءة.. شيء مختلف!

لم أكُن قد سمعتُ عن «ألبرتو مانغويل» قبل أن يقع تحت يدي كتابه ذائع الصيت «تاريخ القراءة»[1]. كان هذا بعد صدور الترجمة العربية بوقتٍ طويل. حينها سمعتُ عن الكتاب كلامًا جميلًا ورائعًا، وكانت أصداء الكتاب قد جاوزت القُطر اللبناني إلى بقية الأقطار العربية، ومنها مصر.

ثم قرأت مقالًا بديعًا لوائل عبد الفتاح، في مجلة «وجهات نظر»[2]. شدَّني المقال وأثار فضولي لكي أقتني الكتاب وأقرأه، واندهشت فعلًا، اندهشت من هذا العالم الجديد الذي انفتح على مصراعيه أمامي، تناوُل مختلف ومبدع للقراءة، «القراءة» تلك المفردة التي صارت من كثرة ترددانا لها «مبتذلة» وفقدت معناها، بل صارت مادة للتندُّر والسخرية و«التريقة» على أصحابها المتحمسين لها والداعين إليها!

الكتاب ضخم، يقع في حوالي ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير، فوجئتُ

---

(١) صدرت ترجمته العربية عن دار الساقي عام ٢٠٠١م.

(٢) دورية ثقافية شهرية كانت معنية بعروض الكتب والإصدارات الجديدة، وتوقفت بعد ثورة يناير ٢٠١١م.

بغزارة المادة التي جمعها «مانغويل»، مادة موسوعية حصيلة سياحات عميقة ومتصلة في أطنان من الكتب والدوريات والمقالات، لكن لم يكُن هذا فقط هو أهم ما في الكتاب، ما جذبني في الحقيقة لمتابعة «مانغويل» هو تلك الروح التي كتب بها الكتاب، هذا رجل غارق حتى النخاع في علاقة عشقٍ محموم مع «الكتاب» و«القراءة»، القراءة لدى «مانغويل» حالة خاصة جدًّا، وجد صوفي وهيام جنوني، لم تعُد القراءة وسيلة لغاية، أصبحت هي «الغاية»، باتت طقسًا يوميًّا ملازمًا للتنفُّس واستمرار الحياة، يقول «مانغويل»: «القراءة ضرورية للحياة كالتنفُّس».

ماذا فعل ألبرتو مانغويل كي يقدِّم مادة هذا الكتاب الضخم، بطريقة جاذبة وعرض شائق، ويستعرض عبر فصول كتابه رحلة «الكتاب» عبر التاريخ. من لحظة اكتشاف الإنسان تقنية الحفر على ألواح الحجر ثم الصلصال، إلى أوراق البردي في مصر القديمة، وحتى عجينة الورق الحديثة، وصولًا إلى الكتاب الإلكتروني الذي يهدد بالعودة إلى الثقافة الشفهية بعد قرن من اكتشاف «الكتابة»؟

للإجابة عن السؤال، لا بُدَّ من نظرة إلى السياق الثقافي والاجتماعي للرجل، سنفاجأ بأننا أمام «خلطة» مدهشة من العوامل والمؤثرات قلَّما تتوافر لشخص آخر، طبيعي أن ينشأ هكذا فردٌ ما لأسرة دبلوماسية ميسورة، تتنقَّل بين البلدان المختلفة، «مانغويل» نفسه عمل دبلوماسيًّا في أكثر من بلد، فتعرَّف إلى ثقافتها وزار مكتباتها، وقضى فيها أوقاتًا طويلة وسعيدة أيضًا. أحب القراءة عندما كان طفلًا يذهب إلى المكتبة الوطنية في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيريس.

ربما يفسر هذا تعدد الروافد الثقافية في تكوين «مانغويل»، وربما يفسر أيضًا إجادته التامة لعدة لغات، يتحدث بها ويقرأ ويكتب أيضًا!

لكن العامل الأهم، في نظري، الذي أتاح لـ«مانغويل» هذه الفرادة وهذا التميُّز في مقاربة موضوع «القراءة»، وسنعلم أيضًا أنه خصص له ثلاثة كتب أخرى شديدة الأهمية والإمتاع، هو علاقته بالكاتب الأرجنتيني الأسطورة خورخي لويس بورخيس. «بورخيس» هو كلمة السر في كل ما كتب «مانغويل» وحققه من شهرة ورواج، سنجده حاضرًا دائمًا في كل ما كتب، ووراءه أيضًا.

سنعرف من خلال الكتاب تفاصيل هذه العلاقة الفريدة، يروي «مانغويل» قصة علاقته بـ«بورخيس»[1] الذي فقد بصره مع تقدم العمر وإجهاد القراءة.

لمدة عامين متواصلين، ويومًا بعد يوم، قام ألبرتو مانغويل بدور «القارئ الخاص» لـ«بورخيس»، في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيريس، يقرأ له الكتب والأعمال الأدبية، كانت تجربة غريبة ومثيرة، لكنها مدهشة في آثارها البعيدة على «مانغويل»، ولعبت دورًا هائلًا في تشكيل وعيه وثقافته، وتوجيهه صوب تأمل ممارسة القراءة كفعل إنساني، ومعرفي، وإبداعي أيضًا.

وظل «ألبرتو» يقرأ على الكاتب الكفيف «بورخيس» فيما وصفه بأنه «الأَسْر السعيد»، وأفاد من هذه التجربة في إعادة ترتيب كتبه ذهنيًّا، وأهمية تدوين التعليقات على ظهر الكتاب، وأن متعة وجود أثر قراءة على الكتاب وذكريات الشراء والقراءة تجعل نسختكَ فريدة، وأن القراءة فعل «تراكمي». ومع ما يستفيده القارئ من تجارب غيره وتقريظاته للكتب، فإن المؤلف يجزم بحقيقة مفادها أن اللقاء الحقيقي مع الكتب

(١) «بورخيس» كاتب وروائي أرجنتيني، أحد أعلام الكتابة الأدبية في أمريكا اللاتينية والعالم أجمع، يعتبره البعض من أقطاب تيار الواقعية السحرية، من أشهر كتبه: «الألف»، وله «سيرة ذاتية» صدرت ترجمتها العربية عن دار ميريت للنشر عام ٢٠٠٢م.

يحدث غالبًا بمحض الصدفة.

إذن فقد قرر «مانغويل»، بمحض إرادته، أن يكون متخصصًا في «فن» لا يجيده غيره، وهو «الكتابة عن الكتب»، وإعادة الاعتبار، بل إحياء «الشغف بالقراءة». أَحبَّ «مانغويل» القراءة كما أحبها أستاذه «بورخيس»، لكنه قرر أن يجعل الآخرين يحبونها كما أحبها، يقعون في غرامها دون أن يندموا.

من هنا، جاءت كتاباته الرائعة عنها، التي حفرت مجالًا في فن الكتابة لم يكُن موجودًا قبله، كما نوه المرحوم خالد السرجاني، أحد عشاق القراءة الكبار؛ فهناك عشرات كتبوا عن الكتب؛ مثل هنري ميلر في «الكتب في حياتي»، أو عباس محمود العقاد في «بين الكتب والناس»، و«ساعات بين الكتب»، وغيرها، لكن ما يكتبه «مانغويل» يختلف جذريًّا عن كل الذي كتبه غيره في هذا المجال.

في «تاريخ القراءة»، تتبع «مانغويل» آثار النصوص المكتوبة والمقروءة والمطبوعة، عبر عصور التاريخ الإنساني؛ خاض رحلة استكشاف مبهرة في أعماق نفسه أولًا، وفي بطون الكتب والمكتبات في العالم أجمع، ليخرج علينا بما أطلق عليه «مفتاح فهم العالم»، ثم توقف عند بدايات الكتابة وإلى فنِّ طباعة الكتب والأدب وشكل الكتاب، وإلى تأمل فعل القراءة وسلطانها.

يقدِّم «مانغويل» نخبة من عظماء العالم الذين كانوا يكتبون ويحبون القراءة مثل: أرسطو، ولوفكرافت، وابن الهيثم، وأولفر ساك، وماريا المجدلية، والقديس أوغسطينُوس، وريلكه.. ويحدّثنا عن قصَّة الأمير الفارسي الذي كان يصطحب مكتبته المؤلَّفة من ١١٧ ألف كتاب على ظهر قافلة من الجمال مصنَّفة بحسب الأحرف الأبجدية. ولا ينسى

أيضًا حكاية أكبر سارق للكتب في العالم، الدوق ليبري، أو قصَّة عُمال التبغ في كوبا الذين كانوا يحبون الاستماع إلى قراءة الكتب، ما جعلهم يطلقون أسماء أبطال الروايات الأدبية على أنواع سيجارهم..

ويؤكد «مانغويل» أن القراءة بشكل منظم ومنهجي بدأت مع تأليف عالِم البصريات العربي الشهير الحسن بن الهيثم كتابه «المناظر»؛ لأنه من دونه لم يكُن الناس يستطيعون أن يقرؤوا بصورة منهجية.

في كتابه الثاني «فن القراءة»، يبدع «مانغويل» في تقديم مادة رائعة، مبتكرة، بأسلوب جميل ورائق[1] عن موضوعات تتصل بالقراءة، قراءة الأدب والكلاسيكيات، البحث عن موضوعات غريبة ونادرة من خلال خبرة القراءة، مصير الكتاب الورقي في مواجهة المد الإلكتروني، سياحات واسعة في التراثين اليوناني والروماني ونصوصهما الكلاسيكية البديعة، عن المحرر الأدبي الذي أطلق عليه «المساهم السري»، المهنة التي نفتقدها في ثقافتنا العربية كأحوج ما يكون!

«فن القراءة» في حقيقته، عبارة عن محاضرات متفرقة عن القراءة وما يتصل بها أو ينتج عنها، حاضرها في جامعات شهيرة أو منتديات ثقافية كبرى وفي مناسبات مختلفة. يقول «مانغويل» في افتتاحية كتابه:

«موضوع هذا الكتاب، كما هي موضوعات كل كتبي تقريبًا، هو القراءة، ذلك النشاط الإبداعي الذي يجعلنا من كل الأوجه إنسانيين.

أعتقد أننا في الجوهر حيوانات قارئة، وأن فن القراءة، في المعنى الأوسع للكلمة، يميِّز جنسنا. نحن ننشأ مصممين على العثور على قصة في كل شيء: في المناظر الطبيعية، في السماوات، في وجوه الآخرين،

---

(١) الترجمة العربية لم تنجح في نقل هذه السلاسة، شعرتُ بأنها ثقيلة وملتوية، وتعثرت في أجزاء كثيرة عن نقل عبارة «مانغويل» بعبارة سهلة ميسورة.

وبالطبع، في الصور والكلمات التي يخلقها جنسنا. نحن نقرأ حياتنا الخاصة وحياة الآخرين، نقرأ المجتمعات التي نعيش فيها وتلك الواقعة وراء الحدود، نقرأ الصور والأبنية، نقرأ ما يكمن بين غلافي كتاب».

تتمثل القيمة الجوهرية لفعل القراءة لدى «مانغويل»، والتعاطي مع ما تخلقه الكلمات المتراصة على الصفحة، في إضفاء المعنى على هذا العالم الذي نعيش فيه بترابط منطقي.

يقول: «هذه الأخيرة هي بشكل خاص جوهرية. بالنسبة لي، الكلمات التي على الصفحة تضفي على العالم ترابطًا منطقيًا. حين ابتُلي سكان ماكوندو بمرض شبيه بفقدان الذاكرة، أصابهم ذات يوم في أثناء عزلتهم التي دامت مئة عام، أدركوا أن معرفتهم عن العالم كانت تختفي بوتيرة متسارعة، وأنهم قد ينسون ما تعنيه بقرة، أو شجرة، أو بيت. الكلمات فقط، كما اكتشفوا هم، يمكن أن تكون هي الترياق.

كي يتذكروا ما كان عالمهم يعني لهم، كتبوا بطاقات وعلَّقوها على البهائم والأشياء: هذه شجرة، هذا بيت، هذه بقرة، ومنها: تحصل على الحليب، الذي يُمزَج مع القهوة فيعطيك كافيه كون ليش. تُنبئنا الكلمات بما نعتقد نحن، كمجتمع، أن يكون عليه العالم».

وهكذا، وباقتفاء آثار «النصوص المكتوبة والمقروءة والمطبوعة»، عَبْرَ مختلف العصور التاريخية، يبحث «مانغويل» في فن القراءة عن كل ما يستحق البحث: العالم والبشر والوجود والتاريخ؛ إنها رحلة بحث كلية عن الكلمات: بَحَث عنها في الكثير من مكتبات العالم، لكنه بحث عنها داخل نفسه أيضًا. ومثل كورس شكسبيري يقدِّم لنا مانغويل «مفتاح فهم العالم».

(وَصْلٌ)

«يوميات القراءة».. بعد الخمسين يعود الحنين!

ويأتي هذا الكتاب تتمَّة للكتابين السابقين اللذين حققا لصاحبهما شهرة طبقت الآفاق وصار اسمه أشهر من نار على علم وتُرجمت أعماله إلى أكثر من ٤٠ لغة حول العالم!

يختلف «يوميات القراءة» عن «تاريخ القراءة» و«فن القراءة»، في أنه لا يتتبع هنا خيطًا موضوعيًّا مركزيًّا. إنه يقرر أن يقوم بعملية مسح وكنس لذاكرة القراءة عبر خمسة عقود! ثَمَّةَ كتب تفرض حضورها ولا يسع المرء إلا معاودة قراءتها أو على الأقل مراجعة فصول منها واقتباس عبارات أو تدوين ملاحظات ستشكِّل في مجملها خبرة أخرى؛ لا رابط بينها إلا استحضار المتعة والرغبة في تجدد هذه المتعة.. ولأن ألبرتو مانغويل حقق، دون أن يقصد، شهرة عالمية للقراءة باعتبارها غاية لا وسيلة، فقد قرر أن يقدِّم نمطًا أو أنماطًا من القراءة الحرة المتحررة من أي قيود تصنيفية أو اعتبارات منهجية؛ لا أقصد أنها قراءة عشوائية، بل قراءة تتغيا إحداث مراكمة لا واعية في ذهن صاحبها، تقوم على الانتقاء والاختيار والتدوين والالتفات إلى النصوص في ذاتها بل المزج بينها أيضًا!

حينما سُئل «مانغويل» عن كيف حدث أن قرأ كتبًا معينة بطريقة أخرى غير الطريقة النقدية التقليدية، وكما تجلَّى في إصداره كتبًا عن القراءة، تاريخها وفنها، أو كما اعتبره البعض أنه استحدث ظاهرة غير مسبوقة في الأدب، أو بمعنى أصح: نوعًا أدبيًّا جديدًا، أجاب:

«لم أكُن على دراية حينها بأنه كان نوعًا جديدًا؛ إن تعريفات النوع الأدبي تتعلق بقيود لا أقبلها، وكل كاتب (ما لم يكُن لديه أو لديها عقل بيروقراطي) يمزج ويناسب بين ما نتفق أو نختلف على تسميته

(النوع). فلقد مزج براوننغ القصائد الشعرية مع المناجاة المسرحية، وجمع ابن بطوطة بين قصص الرحلات والسير الذاتية، وكتب بورخيس القصص الخيالية التي بدت مثل دراسات، كما أن أبو العلاء المعري نسج الكتابة اللاهوتية في الكوميديا الشعرية. ولأن القراءة بالنسبة لي هي الوسيلة الطبيعية لتجربة العالم، فإن تعليقاتي على ما أقرأ هي نوع من أنواع السير الذاتية والنقد والأبحاث التاريخية، وفي بعض الأحيان مقتطفات من قصص مختلفة»..

من هنا، جاءت مادة كتاب «يوميات القراءة» التي تشبه المختارات والعبارات المنتقاة والإشارات الموجزة الدالة على هامش كتب وأعمال مختلفة، قرر «مانغويل» أن يعود إليها وأن يعيد قراءتها وأن يتوقَّف لديها.. نعم. يؤكد «مانغويل» أن هناك كتبًا (وربما مؤلفون معينون) لديهم تأثير أعمق على شخصيته؛ يقول بوضوح:

«بكل تأكيد، هناك كتب ومؤلفون أثَّروا في نفسي وروحي أكثر من غيرهم، إلَّا أنَّ كثيرًا من هذه التأثيرات يتوقَّف على الزمن والمكان. في لحظات معينة، كانت كتب تشيسترتون والقديس يوحنا، وكتب أليس (سلسلة كتب للمراهقين للكاتبة فيليس رينولدز نايلور)، ذات تأثير رهيب على نفسي. وفي لحظات أخرى، كان تأثير مسرحية (الملك لير)، و(الليالي العربية) عميقا عليَّ».

أما الآن، فإنني أعاود باستمرار القراءة لميشيل دي مونتين ودانتي، على وجه التحديد. وكذلك بورخيس وستيفنسون وأبو نواس وفيرجينيا وولف، وكالفينو وأولغا سيداكوفا وصادق هدايت وكافكا وميغيل هرنانديز ومحمود درويش وسينثيا أوزيك ونورمان مانيا وخوان رولفو.. ويبدو أن القائمة ممتدة بلا نهاية..

«يوميات القراءة» هي بامتياز يوميات قارئ شغوف فعلًا.

رسالة إلى قارئ شاب

لي صديقٌ في مستهل العشرينات من عمره، شَغُوفٌ بالقراءة ومحبٌّ لها. وحماسته وإقباله على اقتناء الكتب لا حدود لهما، يتابع ما أكتب باهتمام محمود وحسن ظن مشكور، يتواصل معي دائمًا ويعلِّق على ما أكتب ويراسلني بانتظام، يسألني أحيانًا عن كتاب يبحث عنه أو كاتب يريد أن يقرأ له، لكنه دائمًا ما يتفضَّل ويسألني عن نشاط القراءة ذاتها، ماذا يقرأ، وكيف، وما الطريقة المثلى التي تتيح له أن ينظم قراءاته... إلخ تلك الأسئلة التي مرَّت علينا جميعًا، وعلى من سبقونا، وستمر على من سيأتي بعدنا؛ إنها أحد قوانين ممارسة هذا النشاط الإنساني المعرفي!

وجدتني أتحمس لإجابته كثيرًا وأستفيض وأشرح ويتشعب الحديث.. ثم كتبت له رسالة موجزة أخبره فيها بأننا كلنا ذات يوم كنا مقبلين على القراءة بشغف وجنون، هي التي تملك علينا حياتنا وأوقاتنا، نتنقَّل بين كتاب وآخر كما تتنقَّل النحلة بين الزهور المختلفة ألوانها ورحيقها، وتمر الأعوام وإذا بهذا الشغف يتضاعف وينمو وينضج على نار هادئة، تفعل السنوات فعلها ويترسب في الوعي ما يقود نشاط القراءة، وينظم ممارستها، ويجعل العائد منها أعظم ما يكون.

تخيلتني أخاطب قارئي الشاب ـ كنتُ مثله وأنا في العشرين أو

يزيد قليلًا ـ وأقول له بمحبة:

أنت شاب مجتهد، أرى فيك شيئًا كبيرًا من حماسي واندفاعي وأنا في عمرك، معجب ـ أكيد ـ بشغفك وإقبالك الجنوني على القراءة والمعرفة، لكني في الوقت ذاته أخشى عليك من الاندفاع والاستسلام لتيار الحماسة الجارفة الذي يجعلك دون أن تدري تجمع بين أمور لا يمكن الجمع بينها.

ضبطتُ نفسي مراتٍ على وشك التدخُّل والتعليق في أمور استوقفتني وأنا أتابعك تتحدَّث عن الكتب التي تقرؤها أو تلك التي تريد أن تقرأها، لكني كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة، وأقول لنفسي: دعه يجرب، يتحمس، يكتشف، يندفع، يُلقِ بنفسه في وسط البحر، فإنه لن يغرق إن شاء اللـه.

لا أريد أن أطيل عليك، وهذا آخر ما أكتبه وتبدو فيه صيغة نصح أو حتى ما يبدو أنه تقديم مقنع لخلاصة تجربة، هي في النهاية مِلك الذي يقدمها ولا تلزم أحدًا سواه، فإذا قبلت مني يا صديقي القارئ الشاب، فدعْني أقُلْ:

ـ الكمُّ في القراءة لا يعوَّل عليه، أبدًا، اقرأ وافهم ما تقرأ جيدًا، واجعل همك أن تصوغ سؤالك الخاص من خلاصة ما تقرأ، فإذا أحسنت صياغة السؤال، وضعت قدمك على أول الطريق، وخطوت خطوتك الأولى المباركة.

ـ من أجمل ما قرأت في حياتي: «اقرأ كأنك الشخص الوحيد الذي كُتب له الكتاب.. واكتب كأنَّ العالم كله سيقرأ لك».

ـ لا تتعجل النتائج، اصبر على الغرس والزرع ولا تنتظر الثمرة،

استمتع بالمجهود الذي تبذله والاستغراق في ما تفعله بحب، ستأتي الثمرة وحدها ناضجة شهية.

- وازِن بين قراءاتك ولا تضع أحدًا مهما كان (أكرر: مهما كان) محل تَجِلَّة أو تبجيل أو تقديس مطلق، أبدًا؛ فهو في النهاية بشر، له ما له وعليه ما عليه.. احترِم من شئت وقدِّره، قديمًا وحديثًا، لكن اقرأ دائمًا أي نتاج، فكري أو إبداعي، بروح نقدية وذهن متقد وشكٍّ دائم وسؤال متحفز.

- صدقني.. أنت بذرة طيبة إذا اعتنيتَ بها عندك ورعيته على الوجه الأمثل، سيكون لك شأن في المستقبل القريب بإذن الله.

- أخيرًا: اقرأ ما كتبتُه كله لك، ثم ألقِ به من أقرب نافذة، ودع فقط ما ترغب أنت في أن يستمر معك من أفكار ومعانٍ بداخلك وبإرادتك وكامل وعيك.. ورحم الله نجيب محفوظ حينما سُئل عن النصيحة التي يحب أن يوجهها لشباب الكتاب فأجاب:

«ليس بيننا وصاية، بمعنى أنني لا أنصح؛ لأن أجمل ما يُنصح به للأجيال الجديدة ألَّا يستمعوا إلى نصيحة. إنما هناك أمور تخرج عن نطاق النصائح وتشبه القوانين العامة مثل دراسة فنِّك الذي قررتَ أن تتخصص فيه، تراثا ومعاصرة، ومثل الثقافة العامة، ومثل ما تحتاجه من صبر أمام تحديات غير عادية لم تعرفها الأجيال السابقة».

المستقبل كله لك وحدك يا صديقي.

«اقرأ».. مسابقة جامعة القاهرة

سعدتُ سعادة عظيمة، واستبشرتُ خيرًا حينما قرأت إعلان جامعة القاهرة عن مسابقتها البحثية «اقرأ»، البالغ مجموع جوائزها ٤٠٠ ألف جنيه مصري. وبغض النظر عن القيمة المالية التي سيحصل عليها الفائزون (وهي ليست قليلة على أي حال) فإن فكرة العودة إلى إجراء المسابقات البحثية، المحرِّضة على القراءة ومراجعة الكتب والاطلاع الواسع، خطوة على طريق الإصلاح افتقدناها طويلًا.

الفكرة ببساطة هي إجراء مسابقة بحثية «جادة» و«رصينة» بين طلاب الجامعة، وطلاب الدراسات العليا، وهيئات التدريس المعاونة (المعيدين والمدرسين المساعدين) والمدرسين (الحاصلين على درجة الدكتوراه). المسابقة عنوانها «مسابقة اقرأ البحثية لجامعة القاهرة» وتدور حول كتابة بحثٍ مستوفي الأركان، واضح القسمات والمعالم وفق شروط معيارية وضوابط دقيقة ومعلنة حول كتاب من الكتب الفكرية أو الإبداعية التي تثير نقاشا فكريًّا وتطرح من الرؤى والتساؤلات ما يستحق عناء القراءة والاشتباك النقدي معها.

مسارات التسابق، بحسب التقسيم المشار إليه، أربعة مسارات جاءت كالتالي: الأول: لطلاب جامعة القاهرة في المرحلة الجامعية الأولى، وذلك بالبحث حول واحد من الكتب الآتية: «دليل المسلم

الحزين» لحسين أحمد أمين، «أضواء على السنة المحمدية» لمحمود أبو رية، و«التفكير فريضة إسلامية» لعباس محمود العقاد. المسار الثاني: للهيئة التدريسية المعاونة، من المعيدين والمدرسين المساعدين من جامعة القاهرة، وبقية الجامعات المصرية، حول واحد من الكتب الآتية: «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» للشيخ محمد الغزالي، «في الأدب الجاهلي» للدكتور طه حسين، و«أبي آدم» للدكتور عبد الصبور شاهين.

أما المسار الثالث فكان لطلبة الدراسات العليا بجامعة القاهرة، وبقية الجامعات المصرية، من خلال البحث في واحد من الكتب الآتية: «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود، ورواية «أولاد حارتنا» للأديب العالمي نجيب محفوظ، و«رسالة التوحيد» للإمام الشيخ محمد عبده.

المسار الرابع الأخير للمدرسين من أعضاء الهيئة التدريسية بجامعة القاهرة، وبقية الجامعات المصرية، من خلال البحث حول واحد من الكتب الآتية: «المعقول واللامعقول في الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود، و«حرية الفكر في الإسلام» للشيخ عبد المتعال الصعيدي، و«الحقيقة الغائبة» لفرج فودة.

بينما تم الإعلان عن باقي التفاصيل الخاصة بالشروط وكيفية التقدم للمسابقة، وما إلى ذلك من معلومات، على الصفحة الرسمية للمسابقة على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، وعلى الموقع الرسمي للجامعة.

وللأمانة، فإن جامعة القاهرة تحيي تقليدًا عظيمًا «اندثر» منذ ما يزيد على نصف قرن؛ هذا التقليد الذي كان نافذة حقيقية لكتاب ومثقفين وأساتذة عظماء لاكتشاف ملكاتهم ومواهبهم البحثية المؤهلة للانطلاق

في مسارات واعدة في ما بعد، كما كان إحدى الوسائل الناجزة لحثّ الطلاب المجتهدين وأصحاب الطموح على البحث والاطلاع واكتشاف المهارات الخاصة في المقارنة والتحليل والنقد.

كانت مثل هذه المسابقات تُجرى خلال النصف الأول من القرن العشرين، خصوصًا في المرحلة قبل الجامعية[١] وكانت تُقام بمعرفة وزارة المعارف العمومية[٢]، وكان الفائزون في هذه المسابقة يحصلون على مجانية كاملة لاستكمال تعليمهم الجامعي، فضلًا عن القيمة المالية المحترمة التي كانت توفِّر للظافرين بها ثروة حقيقية!

وأذكر أنني، قبل سنوات طويلة، قرأت مقالًا للراحل الدكتور فؤاد زكريا، رائد العقلانية النقدية في ثقافتنا الحديثة، بعنوان «كيف حصلت على جائزتي الأولى؟» يحكي فيها عن فوزه في مسابقة شبيهة بهذه التي تجريها جامعة القاهرة، كان فوزه في هذه المسابقة التي احتشد لها أشهرا طويلة تدور حول كتابة بحث عن الجزأين الأولين من كتاب «تاريخ الجبرتي»، ليس هذا فقط، بل ناقشه فيها كتب أساتذة عظماء بحجم الأستاذ المؤرخ القدير محمد شفيق غربال.. اللافت أن هذه المسابقة التي تقدَّم لها فؤاد زكريا كانت قبل دخوله الجامعة، في عام ١٩٤٥م!

هذه الجائزة يقول عنها المرحوم فؤاد زكريا: «أول جائزة حصلت عليها كان لها وقعٌ خاص في نفسي وفي عقلي، ولعلي لا أكون مبالغًا إن قلت إن هذه الجائزة الأولى، التي حصلت عليها منذ أربعة وأربعين عامًا، كانت هي التي فتحت لي طريق الحصول على جميع الجوائز الأخرى، بل

(١) التي توازي الآن في عنفوانها وتماسكها المعرفي ومحتواها التعليمي مرحلة متقدمة من مراحل الأستاذية والتمكّن والرسوخ العلمي والأكاديمي!

(٢) وزارة التربية والتعليم الآن.

إن الخبرة التي اكتسبتُها فيها كانت من العوامل المهمة التي حققت لي قدرًا لا بأس به من التفوق في ميدان البحث العلمي، ما جعل حصولي على جوائزي اللاحقة لها أمرًا ميسورًا».

تحية لهذا المشروع والقائمين عليه، الذين تواصلوا مع هذا التقليد بالإحياء والتجديد. وتحية واجبة للدكتور جابر جاد نصار، رئيس جامعة القاهرة المستنير، الذي يعمل بهمَّة وحماس للتواصل مع تقاليد وروح وحضور جامعة القاهرة في عصرها الذهبي.

النص الكامل لمقال الدكتور فؤاد زكريا «كيف حصلت على جائزتي الأولى؟»

ارتأيت، إتمامًا للفائدة، ولمتعةٍ غمرتني، وحماسٍ لم يكُن لي قِبَل بِرَدِّه، حين قرأتُ هذا المقال لأول مرة قبل حوالي عشرين عامًا، أن أورد النص الكامل لهذا المقال الذي «شَقْلَب» حياتي، وغمرني للدرجة التي أستطيع أن أقول بها إنه كان «نقلة» حاسمة في تكويني ومساري الفكري والثقافي[1].

المهم أنني أراهن أن قراءة هذا المقال «ستشقلب» حالك يا صديقي القارئ العزيز، وستجعلك إنسانًا آخرَ غير الذي أنت عليه الآن.. فهل تصادقني على هذا الرهان؟!

---

(١) ولهذا حديث آخر قد يطول، وله مناسبة أخرى سيأتي أوانها فيها بعدُ، إن شاء الله.

كيف حصلت على جائزتي الأولى؟[1]

د. فـؤاد زكريـا

لَمَّا كان الشيء بالشيء يُذكر، ولما كانت مجلة «العربي» قد تفضّلت بتخصيص عددٍ من صفحاتها لشخصي المتواضع بمناسبة التكريم الذي سوف تسبغه علي مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، بعد تشريفها لي بجائزتها التقديرية التي تُمنح للمرة الأولى في هذا العام؛ لذلك عادت بي ذاكرتي إلى مجموعة الجوائز التي حصلتُ عليها طوال حياتي العلمية (وهي كثيرة والحمد للـه).

ولكنني رأيت أن أول جائزة حصلت عليها كان لها وقع خاص في نفسي وفي عقلي، ولعلّي لا أكون مُبالغًا إن قلت إن هذه الجائزة الأولى، التي حصلت عليها منذ أربعة وأربعين عامًا، كانت هي التي فتحت لي طريق الحصول على جميع الجوائز الأخرى، بل إن الخبرة التي اكتسبتها فيها كانت من العوامل المهمة التي حققت لي قدرًا لا بأس به من التفوق في ميدان البحث العلمي، ما جعل حصولي على جوائزي اللاحقة لها أمرا ميسورًا.

ونظرا لأن قصة حصولي على تلك الجائزة الأولى حافلة بالدروس

(١) نُشر هذا المقال في مجلة «العربي» الكويتية، نوفمبر ١٩٩٩م، العدد ٤٩٢، ضمن ملف خاص عن صاحب المقال.

العلمية والتعليمية، فقد رأيتُ أن أرويها الآن بالتفصيل، آملًا أن يجد فيها المجتهدون من الأجيال الجديدة في الأمة العربية حافزًا لهم لبذل الجهد من أجل التميُّز والتفوُّق، وإلى التماس العلم من مظانّه أينما كانت.

كانت بداية هذه القصة سُنَّة حميدة كانت تستنها وزارة التعليم في مصر (أعني «وزارة المعارف» كما كانت تسمى في ذلك الحين). هذه السُّنَّة الحميدة كانت عقد مسابقات بين طلبة السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية (التوجيهية في ذلك الحين، والثانوية العامة الآن) في كل مادة من المواد المقررة عليهم. وكانت الوزارة تعلن شروط هذه المسابقة على صفحات الجرائد أو في المدارس ذاتها، خلال فترة الإجازة الصيفية الواقعة بين السنة الرابعة والسنة الخامسة الأخيرة من فترة التعليم الثانوي.

والجائزة التي يحصل عليها الناجح في هذه المسابقة هي دخول الجامعة بالمجان حتى نهاية تعليمه الجامعي.

هذا بالإضافة إلى مكافآت مالية للثلاثة الأوائل في كل مسابقة، وكان هناك شرطٌ أساسي للحصول على هذه الجائزة بشقيها، هو أن يكون الطالب ناجحًا في شهادة التوجيهية (أي: الثانوية العامة).

وهكذا استقر رأيي أن أدخل هذه المسابقة التي كان دخولها اختياريًّا للطلاب، ووجدت في الجائزة التي تُمنح فيها ما يغريني على أن أبذل أقصى جهدي لكي أكون من الناجحين فيها، بل لكي أكون من الثلاثة الأوائل الذين يمُنح أولهم مكافأة قدرها خمسة وعشرون جنيهًا، وثانيهم خمسة عشر جنيهًا، وثالثهم عشرة جنيهات.

وعلى قدر تواضع هذه المبالغ، فقد كانت بأسعار ذلك الزمان، تمثل «ثروة» كبيرة لطالب ما زال في مرحلة المراهقة.

وأنا أتحدث عن عام ١٩٤٥م، وهو العام الأخير من الحرب العالمية الثانية، أي عن وقت كان فيه الجنيه يساوي ما لا يقل عن مئة من جنيهات هذه الأيام.

كانت الحرب العالمية قد قفزت بالأسعار قفزة رهيبة، على الرغم ممَّا قلته الآن عن القوة الشرائية الكبيرة لجنيهات تلك الأيام، وتلك كلها أمور نسبية على أي حال.

وكان لتلك القفزة الكبيرة تأثيرها البالغ في زيادة صعوبة الحياة بالنسبة للأسر ذات الدخل المحدود، مثل أسرتي في تلك الأيام.. ومن هنا، فإن فكرة إعفائي من دفع مصروفاتي الجامعية في سنوات الجامعة الأربع، كانت ـ في نظري ـ حافزًا قويًّا لبذل كل ما أملك من طاقة من أجل النجاح في هذه المسابقة، أما المكافأة التي تُقدَّم إلى الثلاثة الأوائل فكانت في ذلك الحين حلمًا رائعًا كفيلًا بأن ينقلني من حال إلى حال!

المهم في الأمر أنني قررت أن أدخل مسابقة «التاريخ»، وعندما قرأت أسماء الكتب المقررة في المسابقة وجدت أن الكتابين المقررين في مسابقة اللغة الإنجليزية أحدهما عن تاريخ أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والثاني عن «الدستور البريطاني».

أما الكتاب المقرر في مسابقة اللغة العربية فكان كتاب «تاريخ الجبرتي» في جزأيه الأولين على ما أذكر.

وهكذا شمَّرتُ عن ساعد الجد، طوال الصيف الذي يسبق دخولي

«السنة التوجيهية» كيما أعثر على كتب المسابقة وأبدأ العمل فيها بجدية قبل أن تبدأ الدراسة المنتظمة.

ولم يكُن العثور على «تاريخ الجبرتي» صعبًا؛ لأنني وجدته في مكتبة المدرسة التي كانت عامرة بالمؤلفات القيِّمة، وساعدني أمين المكتبة على أن أستعير الكتاب بجزأيه استعارة طويلة الأمد.

أما الكتابان الآخران المكتوبان باللغة الإنجليزية، فقد وجدت صعوبة كبيرة في العثور عليهما؛ إذ إنني بحثت في جميع مكتبات القاهرة فلم أجد لهما أثرًا، وإن كان صاحب إحدى المكتبات قد أبدى استعداده لمساعدتي، فطلب أحد الكتابين، وهو «الدستور البريطاني»، الذي كان حديث الطبع، من الناشر البريطاني، وطلب إليَّ أن أمرَّ عليه بعد أسبوعين أو ثلاثة إلى أن يصل إليه الكتاب.

بقي بعد ذلك الكتاب الإنجليزي الثاني عن تاريخ أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذي حفيت قدماي لكي أعثر عليه في مكتبات عامة أو خاصة، فلم أعثر إلا على كتب أخرى للمؤلف نفسه في دار الكتب المصرية.

وعندما اشتدت حيرتي، تقدَّم لمساعدتي مدرس التاريخ الذي كان يقوم بالتدريس لي في العام السابق، وكان إعجابي بإخلاصه في العمل وغزارة علمه هو السبب الرئيسي الذي جعلني أختار مادة «التاريخ» للدخول في مسابقتها.

وبعد أن عرف هذا المدرس العظيم مدى العناء الذي صادفتُه في سبيل العثور على هذا الكتاب، طلب إليَّ أن أزوره في بيته آملًا أن يجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبته الخاصة.

وكانت المفاجأة المذهلة هي أن أجد هذه «المكتبة الخاصة» لمدرس المرحلة الثانوية هذا عبارة عن غرفة واسعة غُطيت جميع جدرانها بالرفوف التي تكدَّست عليها الكتب بالألوف.

وبعد قليل من البحث، أخرج لي من أحد الرفوف الكتاب الذي عدت به إلى بيتي وأنا أكاد أطير فرحًا.

هكذا كان معلم الثانوية في الأزمان الغابرة: عالمًا يملك مكتبة عامرة يندر أن نجد مثيلًا لها في بيوت أساتذة الجامعة في هذه الأيام.

إنني أصرِّح دائمًا، في كل فرصة تُتاح لي، بأنني مدين ـ في أي تقدُّم حققتُه في أي ميدان ـ للنظام التعليمي العظيم الذي تربيتُ في ظله، وهو النظام الذي سرعان ما اختفت معالمه بعد فترة وجيزة من العصر الذي أتحدث عنه لأسباب لا يعلمها إلا اللــه!

كانت المشكلة الرئيسية التالية هي: كيف أستطيع قراءة كتابين مكتوبين باللغة الإنجليزية، وأنا ما زلت طالبًا حاصلًا على شهادة السنة الرابعة الثانوية فقط؟ ونظرًا لما أبداه أستاذ التاريخ لي من تشجيع معنوي ومن مساعدة كريمة في البحث لي عن أحد الكتابين، فقد قررتُ ألا أثقل عليه بسؤاله عمَّا يستغلق عليَّ فهمه من هذين الكتابين، كانت المشكلة بالنسبة لي هي أن الكتابين مكتوبان بلغة علمية لها مفرداتها وتركيباتها التي تختلف كل الاختلاف عن تلك اللغة المبسّطة التي كنا نقرؤها في كتب اللغة الإنجليزية المقررة في مدارس التعليم العام.

وهكذا قررت أن أعتمد على نفسي اعتمادًا تامًّا في فك طلاسم هذين الكتابين، مهما كان مدى الجهد الذي ينبغي بذله من أجل تحقيق هذا الهدف الشاق.

وبالفعل، كنت أسهر الليالي الطويلة، ومعي قاموس جيد من قواميس اللغة الإنجليزية؛ لأنني لم أكُن أثق كثيرًا ـ وما زلت ـ في القواميس الإنجليزية ـ العربية التي تدَّعي الكثير، ولا تسعف طالب العلم عند الحاجة، وكنت أكتب الكلمات الصعبة في صفحة مستقلة عليها رقم الصفحة الأصلية، وأمام كل كلمة المعنى الذي استنتجته من القاموس الإنجليزي أو من سياق الكلام، وكنت أعيد قراءة هذه القائمة من آنٍ لآخر حتى تثبت في ذهني المعاني الجديدة، وبعد أن أنتهي من أحد فصول الكتاب أو أحد أقسامه، أعيد قراءته كاملًا في النص الإنجليزي لكي أختبر مدى استيعابي للغته.

كان هذا الجهد غير العادي، في وقت مبكر نسبيًّا من حياتي الدراسية، من أهم عوامل تفوُّقي اللاحق في الدراسة الجامعية، وما بعدها؛ ذلك لأن الاستيعاب المتأنِّي، المدقِّق، لكل ما جاء في هذين الكتابين، كان يعني تخطي عقبة إتقان اللغة الأجنبية الأولى، وهي الإنجليزية، وهذا يعني فتح نافذة واسعة على العالم. والقدرة على ملاحقة كل ما هو جديد وعميق في شتى ميادين المعرفة.

وقد ضمنت لي هذه القدرة تفوُّقًا سهلًا ظهرت معالمه بوضوح عندما التحقتُ بقسم الفلسفة في الجامعة في السنة التالية.

فقد أصبحت أقرأ المراجع الأجنبية بسهولة، حتى إن أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة كان يكلفني عندما يتغيَّب بأن أقرأ محاضرة على زملائي في السنة الثالثة مستعينًا بالمرجع الأجنبي المهم الذي كنت أترجم سطوره لهم ترجمة فورية مباشرة.

ولأعُد إلى قصة امتحان الفلسفة لأروي ما فيها من عبر ودروس تعليمية، كان نظام المسابقة يقضي بأن يدخل الطلاب امتحانًا تحريريًّا في البداية، ثم يدخل الناجحون في هذا الامتحان اختبارًا شفويًّا آخر يتحدد فيه ترتيب نجاحهم في المسابقة.

وأذكر أنني لم أجد صعوبة كبيرة في اجتياز الامتحان التحريري، وبعد أسابيع قليلة كان عليَّ أن أستعد لمعركة أشد صعوبة هي الاختبار الشفوي.

وعندما حان موعد هذا الاختبار، ذهبتُ إلى المكان المحدد، وهو أحد المعاهد التعليمية في وسط القاهرة، وهناك علمت أن لجنة الاختبار الشفوي تتألف من ثلاثة من أعظم وأشهر أساتذة التاريخ في مصر في تلك الأيام، ولم تمضِ دقائق طويلة حتى كان التلميذ الصغير «فؤاد زكريا» جالسًا أمام لجنة امتحان تتألف من المرحومين الأستاذ شفيق غربال، والدكتور عبد الحميد العبادي، والدكتور حسن إبراهيم حسن، وكان واضحًا أن رئيس اللجنة هو الأستاذ شفيق غربال، أكبر المؤرخين المصريين في ذلك الحين وأوسعهم علمًا.

وعندما تمكَّنت من الإجابة بسهولة عن الأسئلة المتعلقة بتاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، بدأ المتحنون الأفاضل يُصعِّدون مستوى الأسئلة تدريجيًّا، وكأنهم يختبرون مدى قدرتي على إجابتها، وما زلتُ أذكر ضمن الأسئلة التي وُجهت إليَّ في ذلك اليوم الفريد، أن الدكتور العبادي (الذي تصادف أن أصبح ابنه فيما بعدُ زميلًا كريمًا لي في جامعة الكويت، التي كان فيها أستاذًا للتاريخ)، طرح عليَّ السؤال التالي بشأن كتاب «تاريخ الجبرتي»، فقد كان «الجبرتي» يطلق اسمًا غريبًا على سفينة القيادة التي أتت بها حملة نابليون على مصر

سـنة ١٧٩٨م، وكان اسم السفينة الفرنسـية هو «Orient»، فسألني الدكتور العبادي: لماذا أطلق «الجبرتي» على هذه السفينة اسم «نصف الدنيا»؟ ويبدو أن الدكتور حسن إبراهيم حسن أحسَّ بأن هذا سؤال صعب، فتصدَّى هو نفسـه للإجابة عنه قائلًا: لقد سمَّاها كذلك لأنه وجدها سفينة كبيرة جدًا بالمقاييس التي تعوَّدَها في زمنه.

أما أنا، فلم تعجبني هذه الإجابة، وأبديت بوجهي إشارة تدل على ذلك، فالتقطها الأستاذ شفيق غربال وقال لي: هل لديك تعليل آخر لهذه التسمية؟ فأجبته بشيء من الاستحياء والتواضع: أعتقد أن لديَّ تعليلًا معقولًا لهذه التسمية.

فالدنيا تنقسم إلى قسمين: شرق وغرب، ولما كان اسم السفينة يعني «الشرق»، وهو أحد نصفي الدنيا، فقد وجد من الأسهل عليه أن يسمِّيها «نصف الدنيا».

وما إن أدليت بهذه الإجابة حتى نظر كلٌّ من الأستاذ شفيق غربال والدكتور العبادي إلى الآخر، وابتسما ابتسامة تنمُّ عن الشماتة في زميلهما الثالث الذي تصدى له وتحدَّاه طالب صغير في «التوجيهية».

وبعد قليل، قال لي رئيس اللجنة الأستاذ غربال: لديَّ سؤال آخر، ثم ذكر لي بالإنجليزية تعبيرًا ورد في كتاب «الدستور البريطاني»، فهل تستطيع أن تترجمه؟

فترجمتـه له على الفور ترجمة صحيحـة، وعندئذ نهض رئيس اللجنة من كرسيه ومدَّ يده لي مصافحًا، ثم قال: قُمْ! فتح اللـه عليك! وقمـت من هـذا الاختبار القاسي وأنا واثق من أنني سـأكون الأول، ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى قرأت اسمي في الجرائد على أنني الأول

في مســابقة التاريخ، وســأحصل على مكافأة مالية قدرها ٢٥ جنيهًا بالتمام والكمال.

الشرط الأخير

بقي بعد ذلك الشرط الأخير، وهو أن أنجح في امتحان شهادة التوجيهية، ولهذه المسألة بدورها قصة تستحق أن تُروى، ذلك لأنني عندما بدأت السنة الدراسية، قررت أن أركِّز جهدي كله على امتحان المسابقة، أما المواد المقررة في تلك السنة فكنت أهملها كثيرًا؛ لأن الوقت لم يكُن يتسع للأمرين معًا، ومن الطرائف أن ناظر المدرسة التي كنت ملتحقًا بها في ذلك الحين (مصر الجديدة الثانوية) كان يستدعيني مرارًا إلى مكتبه ويؤنبني على عدم اهتمامي بدروس السنة التوجيهية، وعندما حان موعد الامتحانات التي كانت تُعقد داخليًّا كل ثلاثة أشهر باسم «امتحانات الفترة» لم أجد في نفسي استعدادًا لدخولها لانشغالي بكتب المسابقة.

ولمَّا وجد ناظر المدرسة أنني تغيبت عن الامتحانين الأول والثاني من امتحانات الفترة، استشاط غضبًا واستدعاني إلى مكتبه وقال لي إنه سيفصلني من المدرسة حتى أحضر «ولي أمري» إلى مكتبه، وبعد يومين، ذهبت إلى مكتب الناظر ومعي ولي أمري، فقال له الناظر إن مدرسته حريصة على أن تكون نسبة نجاح تلاميذها في الشهادة الثانوية عالية، وإنني بإهمالي هذا سوف أسيء إلى نتيجة المدرسة.

وعدتُ إلى بيتي، وقد عقدتُ عزمي على مواصلة الطريق نفسها،

وعندما أُعلنت نتيجة المسابقة، واطمأننتُ إلى تفوُّقي فيها، بدأتُ أبدي اهتمامي بالدروس المقررة، وكان من سوء حظي أنني أصبت في الفترة المتبقية لي قبل الامتحان النهائي بالتهاب شديد في قزحية العين أصبح فيما بعد يعاودني في مواسم الحساسية كل عام أو عامين، ونصحني الطبيب بألَّا أُجهد عيني كثيرًا، فأصبحتُ أذاكر دروسي في ساعات النهار فقط، وأتوقف تمامًا عن المذاكرة بمجرد مغيب الشمس، هذا فضلًا عن أن الوقت الذي تبقَّى لي قبل الامتحان بعد أن زالت حدَّة الالتهاب في عيني، وخفَّت آلامه الشديدة لم يكُن يزيد على أربعين يومًا.

وهكذا دخلت امتحان «التوجيهية» معتمدًا على قشور من المعلومات، وعلى «الفهلوة» في الإجابة عن أسئلة الامتحانات. وكانت مفاجأة المفاجآت بعد أن ظهرت نتيجة «التوجيهية» هي أنني كنت الخامس في شعبة الآداب على مستوى مصر كلها.

ويستطيع القارئ أن يتصوَّر مدى دهشة ناظر المدرسة حين رأى ذلك التلميذ المهمل الذي كاد يفصله يومًا ما بسبب عدم اكتراثه بدراسته، وقد نُشر اسمه في الصحف ضمن الخمسة الأوائل في البلد كله.

ولم تمضِ سوى أسابيع قليلة حتى أرسلت إليَّ «وزارة المعارف» شيكًا بمبلغ خمسة وعشرين جنيهًا قيمة جائزتي باعتباري الأول في مسابقة التاريخ في عام ١٩٤٥م. وعندما صرفتُ ذلك الشيك، أحسستُ أن في يدي ثروة طائلة، ولا بأس من أن أحيط القارئ علمًا بالطريقة التي أنفقت فيها هذه الثروة الطائلة.

كان أول شيء فكرت فيه هو أن أقوم بتفصيل بدلة محترمة تليق بي بعد أن أُصبح طالبًا في الجامعة، وأذكر أن هذه البدلة لم

تكلفني أكثر من خُمس مبلغ الجائزة، مع أن قماشها كان من صوف إنجليزي فاخر، كما أن الذي قام بتفصيلها أحد كبار الخياطين في وسط القاهرة، أما بقية المبلغ، فقد أهديتُ جزءًا منه إلى أمي لقاء تضحياتها الهائلة من أجلي، ومن أجل بقية أفراد أسرتي، كما وزعت على إخوتي الخمسة مبالغ بسيطة على سبيل الهدايا، واحتفظت بجزء من المبلغ لكي أشتري به هدية رمزية لمدرس التاريخ العظيم الذي كنتُ مدينًا له بالفضل في نجاحي في هذه المسابقة.

أما أبي، فكانت هديتي له هي أنني سأوفِّر عليه مصاريفَ الجامعة طوالَ سنواتها الأربع، وبهذه المناسبة، فإنني أذكر أن الموظف المختص بالمصروفات في كلية الآداب، قال لي عندما أخبرته أنني سأتمتع بالمجانية التي تُمنح للناجحين في مسابقات «التوجيهية»: إنك لم تكُن في حاجة إلى النجاح في هذه المسابقة؛ لأن ترتيبك في شهادة التوجيهية ودرجاتك العالية كانا كافيين لأن تدخل بهما الجامعة مجانًا!

الباب الثاني

في الأدب.. وتاريخ الأدب!

استهلال

ـ درس نجيب محفوظ للكُتَّاب الجدد

«سألتُ الأديب الأكبر نجيب محفوظ عن النصيحة التي يقدمها إلى جيل الشباب من الكتاب، فقال الأستاذ:

الأديب عليه أن يدرس أدبه جيدًا، فهناك مِن بين مَن يمتهنون الأدب مَن لم يدرسوا هذا الفن، فإذا سألتهم عن كاتب أجنبي معين تجد أنهم يعرفون اسمه جيدًا ربما من الصحف أو ممن يسمعون عنه في الجلسات الأدبية، لكنك إذا سألتهم ماذا قرؤوا لهذا الأديب تجد أنهم لم يقرؤوا له شيئًا، وهذا وضع مشين، فالأديب إنما يتعلَّم من تجارب الأدباء الذين سبقوه، ودون ذلك يظل حبيس إطار ضيق لا يتسع بالقراءة والاطلاع على تجارب الآخرين.

على أن الثقافة الأدبية وحدها لا تكفي الأديب؛ فهو في حاجة أيضًا إلى الثقافة العامة، وعليه أن يقرأ في التاريخ وفي السياسة وفي العلوم وفي الفلسفة وفي علم النفس، وعليه أن يدرس الموسيقى والفن

التشكيلي؛ فالمعارف العامة هي مادة إنتاجه الأدبي، وعليه أن يكون مُلمًّا بها، والفنون الأخرى تؤثر في فنه بأكثر ممَّا يتصور...».

(من كتاب «حوارات نجيب محفوظ»، محمد سلماوي، مركز الأهرام للنشر ٢٠١٥م).

٥ حكايات على شرف «ألف ليلة وليلة»

أعظم ما قدمه العرب للإنسانية!

الحكاية الأولى

بابا.. بابا.. نعم يا «يوسف».. شغل لي «ألف ليلة وليلة».. حاضر.. عايز حكاية إيه؟ فاطمة العرة (يقصد حكاية معروف الإسكافي).. اشمعنى يعني؟ بِتضحَّك.. خلاص ماشي هاشغلّك حكاية فاطمة العرة.. يلّا بقى علشان تنام.. تصبح على خير يا بابا.. وانت من أهله يا «يوسف».

(دقائق معدودة ويغطس «يوسف» في النوم قبل أن تبدأ الحكاية!).

(من حوارات أب وابنه قبل النوم)

الحكاية الثانية

في عام ٢٠٠٩م، جمعتُ ما يقرب من مئتي حلقة (أو يزيد قليلًا) من حلقات ألف ليلة وليلة الإذاعية «النادرة»، بالصدفة وقعتُ على موقع أرشيفي قديم للتسجيلات الإذاعية النادرة، وعليه وجدتُ حلقات متفرقة من البرنامج الإذاعي الخالد «ألف ليلة وليلة»، ظللتُ قرابة العام أتتبع هذه الحلقات وأجمعها وأنظمها وأرتبها حتى

تيسَّر لي في النهاية «مجموعة» لا بأس بها، أظنها من أكمل المجموعات الإذاعية المتاحة من «ألف ليلة وليلة»[1].

أكثر ما أعتزُّ به في هذه المجموعة هو الحلقات الأولى من البرنامج، التي تضمَّنت الحكاية الإطار؛ حكاية «شهريار وشهرزاد»، ثم ما بدأته شهرزاد من روي الحكايات، وفيها ـ أي: في الليالي الأولى الإذاعيةـ ستجد حكايات «حلاق بغداد»، و«معروف الإسكافي»، و«حسن البصري»، و«علاء الدين والمصباح السحري»، ثم تتوالى الحكايات، ويتوالى السحر..

الحكاية الثالثة

«(ألف ليلة وليلة)، ذات الحوادث العجيبة، والقصص المطربة الغريبة، لياليها غرام في غرام، وتفاصيل حب وعشق وهيام، وحكايات ونوادر فكاهية، ولطائف وطرائف أدبية، بالصور المدهشة البديعة، من أبدع ما كان، ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان».

كل مَن أسعده حظه وكان من عُشَّاق اقتناء الطبعات القديمة، يحفظ عن ظهر قلب العبارة السابقة المكتوبة على ظهر الغلاف الخارجي من طبعة «مكتبة صبيح وأولاده» لليالي، وجاء في افتتاحية هذه الطبعة أيضًا العبارة الخالدة:

«وبعد، فإن سير الأولين صارت عبرة للآخرين؛ لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر ويطالع حديثَ الأمم السالفة وما جرى

(١) ولا تنسَ أن هذا الكلام كان في سنة ٢٠٠٩م؛ أي منذ ما يقرب من عشر سنوات.. أمكنني خلال هذه الفترة أيضًا تجميع ضِعف عدد هذه الحلقات وبما يمثل كنزًا فعلًا.

لهم فينزجر، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين، فمن تلك العبر الحكايات التي تسمى (ألف ليلة وليلة)».

ليست هذه هي الطبعة الوحيدة التي أحتفظ بها في مكتبتي من ليالي ألف ليلة، لديَّ قسم خاص أُطلق عليه «ركن الليالي»، يحتوي على طبعات مختلفة ونادرة منها، وكل ما يتعلق بها من كتبٍ، ودراساتٍ، وترجمات.

من أقدمها طبعة كلكتا (١٨١٤م) الأولى على الإطلاق، وهي التي أصدرها جمال الغيطاني في سلسلة الذخائر في ٨ مجلدات في تسعينات القرن الماضي، وطبعة بولاق الشهيرة (١٨٣٥م) بتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي، وهي الأتم، وصدرت في مجلدين عن هيئة قصور الثقافة، أيضًا ضمن سلسلة «الذخائر» قبل أعوام. وطبعة محمد علي صبيح وأولاده التي صودرت وأُفرج عنها، وكذلك طبعة لبنانية في ٤ مجلدات صدرت عن مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت.

أما الطبعات المنقحة، أو التي يحلو للبعض أن يصفها بالمهذبة (التي أُعدت للناشئة والشباب!)، فكثيرة، لكن أشهرها وأقدمها عندي: طبعة دار المعارف التي صدرت في الستينات من القرن الماضي، في ١٣ جزءًا من قطع الجيب، أشرف على إعدادها وتصحيحها وإخراجها للنشر محمد أحمد برانق وآخرون، وطبعة مكتبة مصر في ٨ أجزاء بإشراف سعيد السحار[1]، وأخيرًا طبعة دار الهلال التي صدرت في ١٢ حلقة، جُمعت بعد ذلك في ٣ مجلدات.

فيما بعدُ أدركت أهمية أن يكون لديَّ ما يشبه الدليل أو المرشد لطبعات «الليالي»! ذلك أن الضجة التي تثار مع كل مرة تظهر فيها

(١) هذه كانت أول طبعة أقرأ فيها «الليالي» كاملة، وكنتُ في الصف الثاني الإعدادي.

طبعة جديدة من الكنز القصصي تجعل البعض في حيرة من أمره ولا يعرف ما حكاية طبعات «الليالي» بين منقحة وغير منقحة، وأخرى مهذبة... إلخ، ولهذا فقد كنتُ حريصًا على توفير وتيسير ما يشبه القائمة لهذه الطبعات لأنها ستكون دليلًا -كما قلتُ- لمن هو مقبل على الإبحار في عالم «الليالي»، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لتمام التوثيق لهذا الأثر الأدبي الخالد..

أشهر طبعات «الليالي»

للدكتور جابر عصفور فصل قيم في كتابه «أوراق ثقافية» عن الطبعات القديمة لألف ليلة وليلة. أشار فيه إلى طبعات «الليالي» القديمة في القرن التاسع عشر، ذاكرًا أنها طبعات متعددة تتجاوز الطبعات العشر. أغلبها مطبوع في القاهرة. وفيما عدا ما عُرف واشتُهر من طبعتين في الهند (كلكتا الأولى والثانية)، وطبعتين بيروتيتين، وواحدة في ألمانيا.. فيما عدا ذلك فهناك سبع طبعات على الأقل طُبعت في القاهرة وحدها فيما بين سنتي ١٨٣٥ و١٨٨٤م.

وهذه قائمة مفصلة بأهم وأشهر طبعات «الليالي» المعروفة:

- طبعة كلكتا الأولى بالهند، أو النسخة الهندية الأولى، التي صدرت تحت عنوان «حكايات مئة ليلة من ألف ليلة وليلة»، سنة ١٨١٤م، برعاية كلية فورت ويليام، وهي الطبعة التي أعادت نشرها سلسلة «الذخائر» في ٨ مجلدات سنة ١٩٩٧م.

- طبعة برسلاو بألمانيا عام ١٨٣٧م، وهي التي صدرت طبعة مجلدة فاخرة منها عن دار الكتب المصرية، إبان رئاسة الدكتور جابر عصفور

لها عام ١٩٩٨م، وصدَّرها بمقدمة نقدية تحليلية قيِّمة، وصدرت هذه الطبعة بعنوان «ألف ليلة وليلة.. من المبتدأ إلى المنتهى»، بتصحيح مكسيميليانوس هابخط، في ١٢ جزءًا، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عام ٢٠٠٣م.

- طبعة بولاق الأولى (١٢٥١هـ ١٨٣٥م)، وهي الطبعة المصرية الأولى بتصحيح ومراجعة الشيخ عبد الرحمن الصفتي.

- طبعة بولاق الثانية، بتصحيح ومراجعة الشيخ محمد قطة العدوي، وعن هذه الطبعة صدرت كل الطبعات المتداولة والمعروفة في مصر وبيروت وأنحاء العالم العربي، وعن هذه الطبعة أيضًا صدرت الطبعة الجديدة من سلسلة «الذخائر».

- طبعة المطبعة الكاثوليكية ببيروت (١٨٨٨م)، كُتب على غلافها الخلفي أن الأب أنطون صالح اليسوعي، أحد الآباء اليسوعيين، هو الذي قام بتهذيبها وتصحيحها.

- طبعة سعيد علي الخصوصي، صاحب المطبعة السعيدية بجوار الأزهر الشريف، وهي دون تاريخ ومأخوذة عن طبعة بولاق القديمة، في ٤ أجزاء.

- طبعة مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر الشريف، وهي دون تاريخ أيضًا، في ٤ أجزاء.

- طبعة محسن مهدي التي أصدرها عام ١٩٨٤م، بمدينة ليدن بهولندا.

- طبعات «منقحة ومهذبة»، قام عليها عدد من المحررين الذين قاموا بتنقيحها وتهذيبها وإخراجها في شكل أجزاء عدة، منها:

* طبعة «دار الشعب»، التي أشرف عليها الكاتب الكبير أحمد رشدي صالح، وقام برسم لوحاتها الداخلية الفنان الكبير حسين بيكار، ومنها طبعة مجلدة في سلسلة «كتاب الشعب».

* طبعة «دار الهلال» الأولى، التي أصدرها جورجي زيدان في القاهرة عام ١٩٠٠م وظلت تُصدر كل عام جزءًا حتى اكتملت أجزاؤها الخمسة عام ١٩٠٤م. وهي الطبعة التي كتب عليها جورجي زيدان مصدرًا إياها.

* طبعة دار الهلال الثانية، وهي التي أشرف عليها المرحوم طاهر الطناحي، صدرت ضمن سلسلة «كتاب الهلال» (فبراير ١٩٥٦م)، وكتب على غلافها الخلفي «طبعة مهذبة ومزدانة بالرسوم».

* طبعة «دار المعارف» التي أشرف عليها ونقحها محمد أحمد برانق، وحسن جوهر، وأمين أحمد العطار، في ٧ أجزاء من القطع الصغير.

* طبعة «دار مصر للطباعة»، راجعها ونقحها سعيد جودة السحار، عام ١٩٨٦م، في ٨ أجزاء من القطع المتوسط.

- طبعات «الليالي» البيروتية والعربية المزورة المشهورة والمنقولة عن الطبعات المصرية:

* طبعة «مؤسسة الزين اللبنانية»، وهي طبعة مزورة، كُتب على غلافها الخارجي «قصص غريبة، لطائف وطرائف أدبية، أعجوبة من عجائب الزمان».

* طبعة «المكتبة الثقافية»، بيروت، في ٤ أجزاء.

* الطبعة الأصلية الأولى التي حققها وراجعها وقابلها وقام بتصحيحها الشيخ محمد قطة العدوي، وهي الطبعة البولاقية الأولى، صادرة عن

«مكتبة المثنى البغداديه» لصاحبها قاسم محمد الرجب، وكتب على غلافها «إعادة طباعة بالأوفست لطبعة بولاق الأولى سنة ١٢٥٢هـ».

* طبعة «دار صادر» البيروتية، في مجلدين، وهي منقولة بكاملها عن طبعة الشيخ محمد قطة العدوي.

وكل الطبعات السابقة المنسوبة صراحة إلى الشيخ محمد قطة العدوي لا علاقة لها به بالمرة، لا من قريب ولا من بعيد؛ فهي طبعات منحولة عليه من باب التزوير والتدليس والدجل. وهي جميعًا انطلقت من الخطأ الذي وقعت فيه مكتبة المثنى البغدادية حين نسبت طبعتها المزورة إليه وإلى طبعة بولاق الأولى ١٢٥٢هـ.

والثابت أن طبعة بولاق الأولى كانت سنة ١٢٥١هـ، وأن الذي صححها وأشرف عليها هو الشيخ عبد الرحمن الصفتي وليس الشيخ قطة العدوي!

الحكاية الرابعة

إن «ألف ليلة وليلة» هي درة الخيال الشعبي العربي ودرة القصص الإنساني، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من المكانة التي أحرزتها ألف ليلة في تراث البشرية، وما لقيته من تقدير واحتفاء كان - وما زال وسيظل - هو الأهم والأبرز بين تراث الإنسانية كله؛ فإن معرفة بسيطة بها ومنظمة تعرف بها وتؤطِّر لعوالمها وحكاياتها، وما يعرف عنها ما زال غائبًا عن مكتبتنا العربية.

لهذا، فإنني أعتبر أنِ **إعادة التعريف بـ«الليالي»** وتبصير الناس بتاريخها وموقعها من الآداب العالمية، وموقع «الليالي» كذلك من

التراث الأدبي الإنساني، هو ضرورة متجددة للحض على الاهتمام بهذا العمل العبقري الفذّ الذي ألهم أدباء العالم وفنانيه ومثقفيه وكتابه - باعترافهم وشهادتهم - أعظم أعمالهم وأشهرها وأروعها..

وهنا ننتقل إلى الحكاية التالية عن «ألف ليلة وليلة»؛ أصلها وفصلها، وما كان من أمرها غربًا وشرقًا..

أصل وفصل

أقدَمُ إشارة وردت في كتب التراث العربي إلى «ألف ليلة وليلة» ما أورده محمد بن إسحاق النديم في كتابه «الفهرست»، صفحة ٤٢٢، في مستهل المقالة الثامنة، من الباب الثامن من كتابه؛ حيث يقول:

«أول من صنَّف الخرافات، وجعل لها كتبًا وأودعها الخزائن، وحمل بعد ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد ذلك واتسع في أيام الملوك الساسانية، ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء البلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه. فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب (هزار أفسان) ومعناه الألف خرافة. وفي هذا الكتاب دون المئتي سمر؛ لأن كل سمر كان يحدّث به في ليالٍ عدة، وهي من أظرف الحكايات التي وضعتها الفرس في غابر الدهر».

كانت تلك الحكايات تسمى في الأصل «ألف خرافة»، ووُجدت بلا شك في فارس في وقت من الأوقات، وأغلب الظن أنها تحتوي منذ ذلك الحين أو تشتمل على القصة المحورية «قصة الإطار» المشهورة، التي تعود في النهاية، على ما يبدو، إلى أصل هندي. ثم أصبحت هذه

حكايات تُعرف باسم «ألف ليلة العربية» منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وهذا الاسم تحوَّر في تاريخ غير محدد إلى اسم «ألف ليلة وليلة» المعروفة باللغة الإنجليزية بـ«الليالي العربية».

وأيًّا ما كانت الأسماء التي أُطلقت عليها حكايات «ألف ليلة العربية» أو قصص «ألف ليلة وليلة» أو «الليالي العربية»، كما شاعت في الترجمات والآداب الغربية، فإنها في النهاية تُطلَق على تلك المجموعة الضخمة متعددة الأعراق والأصول من القَصص الشعبي، قيل في أصولها إنها فارسية أو هندية، لكنها لم تكتسب شرعية التكوين والذيوع والانتشار إلا بعد اكتسابها الهوية العربية الإسلامية فيما بعد القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى اكتمال صورتها المعروفة تقريبًا كما وصلتنا في القرنين الثامن والتاسع.

المؤلف المجهول

وهذه المجموعة من القصص مجهولة المؤلف، وربما أيضًا ليست لمؤلف واحد، يختلف عددها وترتيب ورودها باختلاف النسخ المتاحة لها، ويجمعها كلها إطار واحد أو قصة إطارية جامعة هي «الحكاية الأم» أو الحكاية الإطار التي اشتُهرت وعُرفت بها في جميع أنحاء العالم. وهي التي أشار إليها ابن النديم في كتابه «الفهرست» قائلًا:

«السبب في وضعه ـ أي كتاب ألف ليلة وليلة ـ كما هو معروف، أن ملكًا من ملوك الفرس كان إذا زوج امرأة قتلها بعد يوم، غيرة عليها من الرجال، فتزوَّج بجارية من بنات الملوك ممَّن لهن عقل ودراية يقال لها (شهرزاد)، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه،

ووقفته على حيلته عليه. وكان للملك كهرمانة يقال لها (دنيا زاد)، كانت موافقة لها على ذلك».

وقد عرف العرب حكايات «ألف ليلة وليلة» من أزمان قديمة جدًّا، وإن كانت في صورتها الأولى المنقولة والمترجمة لا بصورتها المكتملة الحالية بأشكالها المتعددة.

وعلى الرغم من وجود أشتات من آثار بابلية وفارسية وهندية وإغريقية ومصرية قديمة، في هذه المجموعة الضخمة من القصص الشعبي الفني، فإنه وباعتراف أغلب ـ إن لم يكُن كل ـ الدارسين والباحثين لا تشكِّل هذه الآثار إلا جزءًا وجيزًا من أجزائها المتعددة، أما بقية أجزائها الأخرى فهي «أدب قصصي عربي خالص جديد كل الجدَّة، وهي تأليف شعبي خالص، استعان فيه المؤلف الشعبي بـ(موتيفات) من الموروثات الشعبية العربية الثقافية والاجتماعية، تعبِّر عن مجتمعات عربية إسلامية متأخرة في بغداد ودمشق والقاهرة».

ويقول جميل نخلة المدور، في كتابه «حضارة الإسلام في دار السلام»:

«ولمَّا راج الكتاب وذاع وتداوله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات، لا سيَّما ما يتضمن أخبار وحكايات الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الإنس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك، إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يخالطها من كلام الفرس إلا القليل، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم في تجميلها ورونقها».

ومن هنا، غلبت الطوابع العربية الإسلامية على ما عداها من العناصر

البابلية والفارسية والهندية السابقة عليها.

ومن رواية ابن النديم المتقدمة في «الفهرست»، نستخلص أن أصل «ألف ليلة وليلة» ترجمة لكتاب هندي فارسي قديم اسمه الـ«هزار إفسانه»، ومعناه «الألف خرافة»، وقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية في القرن الثاني أو الثالث الهجري، إلا أنه وبمرور الزمن أضيفت إليه مجموعتان كبيرتان متمايزتان من الحكايات، هما: المجموعة البغدادية، والمجموعة المصرية، والأخيرة هي الأهم، في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي أو في أوائل قيام الدولة المملوكية.

ويحتوي النص النهائي لـ«ألف ليلة وليلة» على مواد قصصية مصرية يمكن تحديد تاريخها باطمئنان بالقرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). وهذه الحكايات المصرية تدخل ضمن إسهامات عدد كبير من الأقطار والمدن العربية في إنشاء قصص ألف ليلة وليلة في أوقات مختلفة.

وهناك بعض القصص التي نشأت مستقلة عن أصل «الليالي» في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وُجدت فيها بعد مضمنةً في قصص «ألف ليلة وليلة»، مثل «حكاية الملك جليعاد والوزير شماس»، و«حكاية السندباد».

اكتشاف «الليالي» أوروبيًّا

ومن المؤكَّد أن النصوص الأولى القائمة بذاتها لهذه الحكايات الشعبية قد تعرَّضت لعدة تحويرات قبل أن تصبح في الصورة التي وصلت إلينا، وتُعرف بها الآن؛ فجميع مادة هذا الأدب الشعبي خضعت لعمليات معقدة من التغيير والتطوير؛ فحكايات «ألف ليلة وليلة» نفسها تعتبر

حقلًا خصبًا للتفكير والتأمُّل في الطرق الرئيسية والجانبية التي سلكها الابتكار الأدبي حتى وصل في تُؤدة ورويَّة إلى صورته النهائية.

وما زال الكتاب في زيادة وإضافة حتى اتخذ صورته شبه الأخيرة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) وهي الصورة التي وصلتنا تقريبًا، ومعنى هذا أن «الليالي» بصورتها المكتملة الحالية شهدت عمليات عدة من الإضافة والحذف المستمرين. وكان من نتاج عمليات هذا الاكتمال أنه ما زالت هناك حتى الآن نسخ من «الليالي» تتضمن حكايات ليست موجودة في غيرها من النسخ الأخرى.

ومن المعروف أن «الليالي» عُرفت في أوروبا مبكرًا جدًّا، وكان ذلك مع ترجمة أنطوان جالان لها للفرنسية.

وطبعة أنطوان جالان الفرنسي عام ١٧٠٤م هذه، تُرجمت عنها حكايات ألف ليلة وليلة إلى اللغات الإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية، والرومانية، والهولندية، والدنماركية، والألمانية، والسويدية، والروسية، والبولندية، والهنجارية (المجرية). كما نُقلت عنها ترجمات فون هامر، وفيل، وهاننج، وليتمان إلى الألمانية، وترجمات هنري تورنز، وإدوارد ويليام لين، وجون بين إلى الإنجليزية.

اكتشاف «الليالي» عربيًّا

عربيًّا، وكعادتنا الأثيرة، لم يبدأ الالتفات والانتباه إلى «الليالي» في الدراسات العربية إلا مع أطروحة الدكتورة سهير القلماوي التي تقدمت بها إلى كلية الآداب جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه تحت إشراف

الدكتور طه حسين عام [illegible]م، وطبعت في دار المعارف عام ١٩٤٧م، وكان هذا الكتاب باكورة الدراسات العلمية المنهجية عن «ألف ليلة وليلة»، تلتها جهود جيل من الأساتذة والدارسين العظماء الذين قاموا بدرس «الليالي» ضمن دراساتهم العميقة للأدب الشعبي وفنونه، منهم: الدكتور عبد الحميد يونس، وأحمد رشدي صالح، والشاعر فوزي العنتيل، والباحث والإذاعي فاروق خورشيد.

وما زالت «ألف ليلة وليلة»، وستظل، تثير ما تثيره فينا من إحساس بالمتعة والفن والخيال، وما زالت تُستلهم في الإبداع الفني والأدبي العربي والإنساني في فنون لغوية أو غير لغوية. إنها تتمتع بقدرة خارقة على مقاومة الاندثار والفناء، وأتصور أن هذا مرتبط بصدق «الليالي» الكامل في التعبير عن زمانها؛ لأنها استطاعت أن تعكس الرؤية الحضارية على مستوى الحياة اليومية البسيطة أو على مستوى الحياة الفكرية، وقد أحاطت بالحضارة العربية الإسلامية بل الحضارات الشرقية كلها وعبرت عن هذه الحضارات الشرقية مجتمعة.

الحكاية الخامسة

الليالي في وجدان المبدعين والكُتَّاب

لم يحظَ كتاب أدبي في تاريخ البشرية بما حظي به كتاب «ألف ليلة وليلة» من الذيوع والانتشار والتأثير في وجدان ومخيلة كبار الأدباء والمبدعين العالميين في كل العصور، منذ أن عُرفت «الليالي» وتُرجمت إلى كل اللغات المعتبرة تقريبًا وإلى وقتنا هذا. ومن الأمور التي لا يستطيع أن ينكرها منكر أو يجحدها جاحد أنه ما من أديب فذ أو كاتب بارع

أو روائي قدير أو قصصي حاذق إلا وله في إبداعه وكتابته نصيب من «ألف ليلة وليلة»، عمدة الأدب القصصي بلا منازع.

وإذا عُدْنا إلى عميد الرواية العربية، نجيب محفوظ، فسنجده في أحاديثه التي أدلى بها أو حواراته التي أجراها يؤكد تأكيدًا جازمًا أنه لولا «الليالي» ما كان نجيب محفوظ وما كانت إبداعاته الخالدة التي وضعته في الصدارة بين كُتَّاب الرواية في العالم. ولنجيب محفوظ درَّة روائية لم تنَل حظها الذي تستحقه من الدرس والشهرة، قياسًا إلى أعماله الكبرى المعروفة، وهي روايته «ليالي ألف ليلة» التي استوحاها واستلهمها بالكامل من «ألف ليلة وليلة».

وهنا نماذج ـ مجرد نماذج ـ لما كان لـ«الليالي» من مكانة وتأثير في نفوس وعقول نخبة من أبرز كُتَّابنا ومبدعينا.

«الخراط»: حكايات الأم

يقول إدوار الخراط: «سِرُّ عبقرية الشعوب أخفى وأعمق وأصدق، والتراث الشعبي أذهب غورًا في أعماقنا جميعًا، وحكايات جدتي وخالتي على سطح بيتنا في غيط العنب في الليالي المقمرة تحت سماء الإسكندرية الصافية عميقة الزرقة، هي حكايات (شهرزاد) محكية بلغة الأم، باللغة الأم».

وعن تأثُّره بـ«الليالي» في أعماله الإبداعية، يقول: «كان هناك في (ألف ليلة وليلة) ـ وكيف يمكن أن نغفل أو ننكر؟! ـ بُعدٌ مهم وظاهر فيها، هو بُعد القهر والفقر المدقع والطغيان والعسف، بُعد الرعب والحيف والجور الذي لا يطاق؛ لذلك فربما كانت النصوص

التي استلهمت فيها (ألف ليلة وليلة)، وقطَّرتها وكثَّفتها ـ بقدر ما كان في الإمكان ـ في (ترابها زعفران)، التي قد يصح على سبيل الشطح أن أسميها (ألف ليلة وليلة إسكندرانية)، وفي (حجارة بوبيللو) وغيرها، نصوص تستند أيضًا إلى هذا البعد، في سياق واقعي أرضي، سياق الإسكندرية في الثلاثينات من القرن الماضي».

«الغيطاني»: ذروة القص

أما الروائي جمال الغيطاني، صاحب التاريخ الطويل مع «ألف ليلة وليلة» وطبعاتها التاريخية، وبعث طبعاتها المجهولة وإعادة إصدارها من خلال ترؤسه لسلسلة «الذخائر»، فيقول: «في مكتبتي قسم خاص بـ(ألف ليلة)، الطبعات المختلفة منها، طبعة كلكتا (١٨١٤م) الأولى على الإطلاق وطبعة بولاق الشهيرة (١٨٣٥م) وهي الأتم، وطبعة محمد علي صبيح وأولاده التي صودرت وأُفرج عنها، وطبعة جزائرية في أربعة مجلدات صغيرة للجيب، وهي كاملة تقريبًا بالقياس إلى طبعة بولاق، وطبعة بيروتية قديمة عن مطبعة الآباء اليسوعيين، وطبعة أوروبية قديمة في مدينة برسلاو نُشرت مسلسلةً في مجلة التراث الشعبي العراقية، وأخيرًا طبعة محسن مهدي المحققة، التي أصدرتها دار بريل في هولندا... إلخ».

وعن تقدير أثر «الليالي» في نفسه، يقول «الغيطاني»: «أتوقف طويلًا عند (ألف ليلة وليلة) باعتبارها ذروة فن القص والإبداع العربي، وعندما أقول (العربي) فإنني أعني ذلك الميراث الفني والثقافي الداخل في عناصر تكوين الثقافة العربية، والمنتمي إلى حقب تاريخية مختلفة، وديانات

متعددة، وحضارات متعاقبة، متجاورة، ومؤثرات وافدة، متفاعلة من ثقافات أخرى».

«شلبي»: سيرة ذاتية

ويطلق الروائي خيري شلبي على «ألف ليلة وليلة» وصف «سيرة ذاتية للشعب المصري»، ويؤكد أن «الليالي» معزوفة شعبية في تمجيد المرأة العربية. ويسترجع من معين الذاكرة الزاخرة ذكرياته مع «الليالي»؛ حيث يقول: «على أرضية شباك المندرة، كانت ترقد بأجزائها الأربعة المهترئة تحت ركام من ورق السيرة الهلالية وسيرة عنترة بن شداد وسيرة ذات الهمة وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة فيروز شاه وسيرة حمزة البهلوان وسيرة الظاهر بيبرس. ليست مندرتنا هي الوحيدة التي يحفل شباكها بهذه الكتب؛ فمعظم منادر البلد، والأصح منادر القرية، لها شبابيك كهذه عليها الكتب نفسها. ربما تجد جزءًا من سيرة عنترة ناقصًا أو جزءًا من الهلالية جديدًا فاعلم أن هذا الجزء الناقص من عنترة قد أعير لمندرة أخرى مقابل هذا الجزء الجديد من الهلالية. أما أجزاء (ألف ليلة وليلة) فإنها لا تنقص أبدًا؛ لأنها غير قابلة للإعارة مطلقًا؛ لأنها بعد أن قُرئت مئات المرات أمست حكاياتها قابلة للطلب منفصلة في لحظة من لحظات السهرة. يحنُّ الحضور لحكاية من الحكايا فيطلبون قراءتها، وقد شاهدت في طفولتي مدى الإحباط الذي يرين على القوم إذا اتضح أن الجزء الذي فيه هذه الحكاية غير موجود أو غابت منه صفحة واحدة».

«البساطي»: تأثر تلقائي

ويقول الأديب محمد البساطي: «عندما بدأت الكتابة، وبدأت أستكشف عددًا من الجوانب الفنية في أعمال الآخرين وأعمال التراث الإنساني بوجه عام اكتشفت أن (ألف ليلة وليلة) ليست عملًا سهلًا وأنها تنطوي على درجات من (الفنية) هائلة على مستوى البناء والشخصيات والأجواء. وكان من أوجه متعتي الخالصة أن قرأت (ألف ليلة وليلة) مرة أخرى، وتيقَّنت أنني لم أستوعبها استيعابًا كاملًا في القراءة الأولى، ثم تيقَّنت أنها شأن الأعمال العظيمة كلها قادرة على أن تجذب قارئها بين وقت وآخر ليعيد قراءتها من جديد في ضوء جديد».

وعن تأثُّره في أعماله الروائية والقصصية بـ«ألف ليلة وليلة» وتغلغلها في البناء القصصي والسردي، يؤكد «البساطي» أن تأثُّره هذا قد تم بشكل تلقائي دون تعمُّد منه في ذلك، ويضيف: «مثلًا في قصتي (إث إث) في مجموعتي (أحلام رجال قصار العمر)، تنهض هذه القصة على تناول شخصية صغير مشوه يقوم بتربيته أخوه الأكبر، فيحمله على كتفيه ويصر على أن يحمله حتى بعد أن يكبر ويصير حمله عبئًا. لقد اكتشفتُ بعد كتابتها أن هذه القصة مبنية على حكاية من حكايات (سندباد) الشهيرة، وهي حكاية (السندباد) الذي يحمل (شيخ البحر) على كتفيه، ويكون من ذلك ما عاناه من معاناة هائلة فصَّلتها الحكاية».

وليس أخيرًا..

«موسوعة الليالي».. أهم معجم شارح لحكايات الليالي!

في الثلث الأخير من ٢٠١٨م، وبعد انتظار طال لأكثر من ثلاث سنوات، صدر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، الكتاب العالمي الباذخ «موسوعة ألف ليلة وليلة»، أو «موسوعة الليالي العربية»، بتوقيع المترجم القدير السيد إمام.

«موسوعة ألف ليلة وليلة»، التي تقع في جزأين، أهم معجم شارح لدرة الإبداع القصصي العربي والعالمي على مرِّ العصور، وذروة ما وصل إليه الخيال العربي الخلَّاق، يضم أهم ما كُتب في العالم حول حكايات «شهرزاد» التي بهرت العقول وخلبت الألباب، جامعًا ومتضمنًا الأعراف والتقاليد الاجتماعية والمسكوت عنه في طبقات المجتمع العربي في العصر الوسيط، من المفردات والألفاظ للمأكل والملبس، للبنية والفضاء، وصولًا إلى علاقته بالعالم، وكل ما يتصل بعلامات الليالي الثقافية والمعرفية والاجتماعية.

الموسوعة التي اضطلع بتحريرها وتصنيف موادها كلٌّ من «أولريش مارزوف» و«ريتشارد فان ليفن»، صدرت للمرة الأولى بالإنجليزية عام ٢٠٠٤م، وذلك بمناسبة مرور ٣٠٠ عام على ترجمة «ألف ليلة وليلة» على يد الفرنسي أنطوان غالان في القرن الثامن عشر، ومن وقتها صارت «الليالي» أيقونة الخيال الإنساني التي ألهمت، ولا تزال تلهم، عظماء الفكر والفن والأدب بأعمال صارت من روائع التراث الإنساني.

عن «موسوعة الليالي العربية»، يقول مترجمها، السيد إمام: «يهدف القسم الأول من الموسوعة، الذي يضم أربعة عشر مقالًا حول الليالي،

أن يكون (غذاءً للفكر)، ويقدم استعراضات قصيرة يعالج كل منها مجالات لموضوعات محددة أو أسئلة بعينها ذات صلة بدراسة الليالي العربية.

منها ما يتصل بعروض موجزة وكلية لقصص الليالي وحكاياتها بتفريعاتها العديدة وتوالداتها المتداخلة، بينما يضم الجزء الثاني ما يقرب من مئتين وخمسين مادة متنوعة تغطي تقريبًا كل (تيمات) و(موضوعات) ألف ليلة وليلة، بما فيها الثقافات والأديان والمناسبات والمراسم والأسماء والشخصيات والمأكولات والمدن، وكل ما يتصل بمفردات الثقافة والمجتمع والأنثروبولوجيا في كتاب الليالي مع إيضاحات مسهبة».

ويوضح السيد إمام: «لقد كتب هذه المقالات باحثون معروفون عالميًا بأبحاثهم في الدراسات الإسلامية، ومتخصصون في دراسة الليالي العربية، ولا يهدف هؤلاء الباحثون والمتخصصون إلى تقديم معالجة شاملة لموضوعهم، بقدر ما يهدفون إلى إثارة حب الاستطلاع لدى القُرَّاء، بل ومواجهتهم في بعض الأحيان ببعض العبارات المثيرة للاستفزاز».

تُسهم الموسوعة المترجَمة إلى العربية حديثًا في إعادة التعريف بـ«الليالي» وتبصير الناس بتاريخها وموقعها من الآداب العالمية، والحض على الانتباه لهذا العمل العبقري الفذ الذي ألهم أدباء العالم وفنانيه ومثقفيه وكُتَّابه - باعترافهم وشهادتهم - أعظم أعمالهم وأشهرها وأروعها.

وكانت دورية «أخبار الأدب» الأسبوعية[1] قد أفردت ملفًا كاملاً منذ ثلاث سنوات ونصف السنة لهذه الموسوعة المهمة، وقدمت موادَّ

---

1) تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم المصرية.

رائعة عن محتواها ومنهج تصنيفها، ومقالات أخرى توضِّح القيمة العلمية والمعرفية لهذه الموسوعة الضخمة، فضلًا عن نشر أجزاء من الموسوعة في «بستان الكتب» في العدد ذاته.

«الأغاني» لـ«الأصفهاني».. في عيون المعاصرين

تبدو علاقة عددٍ لا يُستهان به من الناشئة، في أنحاء متفرقة من العالم العربي، بتراثهم الأدبي القديم «غائمة» و«ضبابية» إلى حد كبير. وعلى الرغم من احتواء هذا التراث على كنوز حقيقية ومصادر وافرة الثراء والغنى، مادةً وأدبًا ولغةً، فإن غياب ما يسميه البعض «المتوسطات القرائية» أو «كتب الصياغات العصرية» التي تُعرّف بهذه الكتب وتمهّد الطريق لقراءتها والتعرُّف إليها، يجعل الفجوة في هذه العلاقة مرشحة للاتساع.

ربما ولهذا السبب تفرض بعض التجارب المعاصرة لكتابات «معاصرين» نفسها، وتستدعي حضورها بعدما تناولت هذه المحاولات بعض الكتب التراثية فعملت على تهذيبها أو اختصارها أو الاشتغال على مادتها، فتعيد صياغتها بلغة عصرية أو تستخرج منها قصصًا وحكايات مدهشة، متجددة، صالحة للقراءة والمتعة، فتقدمها في ثوب جديد شائق.

لدينا من الأمثلة في تاريخنا القريب «تهذيب الحيوان» لعبد السلام هارون، و«المختار من العقد الفريد»، و«المنتخب في أدب العرب»، و«التوجيه الأدبي»، وغيرها كثير. تجربتان مهمتان من بين هذه المحاولات،

عكفتا على الكتاب التراثي الأشهر «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وقدمتا كتابين من أجمل وأبدع الكتب الموازية «متنًا على متن» لهذا المنجم الأدبي، فكانتا من أحسن العتبات والمداخل لجذب الأنظار لهذا الكتاب الفريد وتوجيه القُرَّاء إلى أهميته وضرورة الاطلاع عليه، أو على الأقل سيخرج قُرَّاء الكتابين بمتعة لا تنفد ومعرفة واسعة وعميقة بـ«الأغاني»، وما يحتوي عليه من تراث سردي وحكائي زاخر.

أما كتاب «الأغاني»، الذي كتبه أبو الفرج الأصفهاني (توفي ٢٨٦هـ)، فهو موسوعة أدبية ثقافية مذهلة، ومصدر وافر الثراء عن حياة العرب وأحوالهم وتفاصيل معيشتهم، أهوائهم ونزواتهم، حربهم وسلمهم، عن حياتهم الخاصة في العشق والهوى. بالجملة كان «الأغاني» لـ«الأصفهاني» هو الكتاب الذي يمثِّل مرآة ناصعة وصادقة عن الحياة العربية بكل ما تعنيه العبارة حتى منتصف القرن الثالث الهجري.

يقع الكتاب الضخم في ٢٤ جزءًا[١]، وتقوم فكرته ببساطة على اختيار مئة صوت[٢] كان هارون الرشيد قد أمر إبراهيم الموصلي، مغنِّيه، أن يختارها له، وزاد عليها بعض أصوات أخرى، فكان يذكر الصوت وتوقيعه (لحنه)، ويذكر قائله ويترجم له.

إذن، فقد تم لـ«الأصفهاني» في هذا الكتاب جمع تراجم لأهم ١٠٠ شاعر عربي، عارضًا لأهم وأروع أبيات الشعر العربي، بذائقة فائقة الحساسية والإبداع، وفي أثناء ذلك سجَّل «الأصفهاني» التاريخ الاجتماعي والثقافي والفلكلوري للعرب في الجاهلية وصدر الإسلام، وحتى عصر المؤلف، عاداتهم وتقاليدهم، حلّهم وترحالهم، المرأة وحضورها، وحضرت المرأة

(١) في ٣٢ جزءًا في طبعات قديمة.
(٢) أي قصيدة شعر تم تلحينها وغناؤها أو في مفهومنا الحديث «الأغنية».

بقوة في حكايات الحرائر والجواري، الغلمان والقيان، والعبيد... إلخ العناصر والعوامل التي تشكِّل في النهاية صورة رائعة نابضة بالحيوية للمجتمع العربي منذ الجاهلية، وحتى القرن الثالث للهجرة.

وكان لثقافة أبي الفرج الأصفهاني الموسوعية الشاملة أثر كبير جدًّا في ثراء المادة التي جمعها وقدمها في كتابه؛ فشملت الأدب والنقد والموسيقى والغناء والتاريخ والأيام والأنساب والقصص والسير والحكايات والأمثال... إلخ. وكان لكل فنٍّ من هذه الفنون نصيبٌ وافر وممثل في موسوعته «الأغاني»، كما في كتبه الأخرى.

هذا عن «الأغاني»، الذي كان يتوافر على قراءته وبحثه صفوة الصفوة من دارسي الأدب العربي أو المحيطين بذخائر التراث القديم. فماذا عن المحاولات المعاصرة التي أعادت تقديم مادة «الأغاني» في صياغات تناسب العصر وأذواق المتأدبين من الناشئة في زمننا هذا؟

لا بُدَّ لي، أولًا، أن أعترف بأن عبوري بوابة التراث العربي جاء من الافتتان بقراءة أجزاء ضخمة من هذا الكتاب، وقراءة ما كُتب عنه أيضًا، ولحسن الحظ أنني تعرفت إليه في سن باكرة للغاية، وبدأتُ رحلة مطالعته واقتناء أجزاء متفرقة منه قبل دخولي الجامعة (ثم الحصول على نسخة كاملة، رائعة منه، وأنا في الجامعة)، ومن بين محاولاتٍ وكتابات ليست قليلة تغيت هدف التعريف بـ«الأغاني» ومحتواه وقيمته... إلخ، فإن كتابين رائعين توافرا على مادة الموسوعة الباذخة عرضًا واستلهامًا، وبقيا في روحي وذهني لا يفارقانني، وهما كتابان لهما في نفسي مكانة عزيزة جدًّا؛ أولهما كتاب «شخصيات حية من الأغاني» لمحمد المنسي قنديل، والثاني «حكايات من أغاني الأصفهاني - يوميات المغنين والجواري» في جزأين رائعين للكاتب الصحفي الراحل كمال النجمي.

ولنبدأ بأقدمهما صدورًا: كتاب المرحوم كمال النجمي، الذي كان واحدًا من كبار الكتاب والصحفيين المصريين في النصف الثاني من القرن العشرين، أوتي من الموهبة والثقافة ما استطاع به أن يخلِّد اسمه، ويمتلك أسلوبه الأدبي الناصع، وأن يلعب الدور الذي نفتقده الآن دور المثقف «الوسيط»، المثقف الذي يبتغي مخاطبة المقبلين على القراءة والمعرفة ويأخذ بأيديهم إلى أول الطريق.

صدر كتاب «النجمي» عن دار الهلال العريقة، في طبعة شهيرة، أنيقة، في جزأين بغلاف مبهج للفنان محمد أبو طالب، ولم يكُن «النجمي» يتوقَّع حجم النجاح الكبير الذي حققه الجزء الأول لدى صدوره، ليعقبه الجزء الثاني، يقول «النجمي» في مقدمته: «وإننا لنرجو بهذا الجزء الثاني من كتابنا أن نسهم في توثيق الصداقة التي حاولنا أن نعقدها بجزئه الأول بين القارئ العربي العصري وبين كتاب الأغاني العظيم الذي قرأته الأمة العربية جيلًا بعد جيل».

ولا أنسى أنني التهمتُ فصول الكتاب التهامًا على مدار ثلاث ليالٍ متصلة، بعدما اشتريته ذات دورة من معرض الكتاب قبل سنوات بعيدة[1].

رحم الله كمال النجمي الذي كان من أصحاب الأساليب الجميلة، وكان واحدًا من المثقفين الكبار الذين لعبوا الدور الذي نفتقده الآن بضراوة؛ دور المثقف «الوسيط»، المثقف الذي يبتغي مخاطبة المقبلين على القراءة والمعرفة، ويأخذ بأيديهم إلى أول الطريق.

---

(١) حينما وجدتُ الكتاب أمامي في جناح دار الهلال (قبل سنوات قليلة)، فرحتُ وابتهجتُ وعدتُ بذاكرتي إلى تلك الأيام الحلوة، ما أجمل أن تعود إلى أيامك الخوالي، تتذكر بهجة اللقاء الأول، ومتعة التعرف الأول، ولذة المطالعة الأولى!

«شخصيات حية من الأغاني»

أما الكتاب الآخر، والأوفر شهرة وانتشارًا، خاصةً بعدما صدرت طبعة جديدة منه في ٢٠١٦م (عن دار الكرمة للنشر والتوزيع)، بعد عقود من صدور طبعته الأولى، فهو «شخصيات حية من الأغاني» لمحمد المنسي قنديل.

من متع الحياة الجليلة أن تقرأ كتابًا عذبًا، يلتصق بذاكرتك، يتغلغل في روحك ويحفر بنعومةٍ علاماتِه التي لا تُمحى، ويسجل رقم قيده في الذاكرة، غير قابل للمحو أو النسيان، وإذا زدنا أيضًا أن يرتبط هذا الكتاب بمرحلة باكرة من العمر، براءة التعرُّف إلى العالم ولذة الخوض والاكتشاف وتلمُّس الطريق، فإنه يحتل مكانته ككتاب لاكتشاف «طريق» لا «محطة وصول»..

هذا بالضبط ما ينطبق على كتاب «شخصيات حية من الأغاني»، المنسي قنديل من أكثر الكُتَّاب عذوبة وتقديرًا وتعاطفًا مع التاريخ والحروف والبشر، كاتب يبحث عن الحقيقة بعيدًا عن القوالب الجاهزة والمكرورة، يبحث دائمًا عن قالبه ولغته وصياغته التي لا تقلِّد أحدًا، ولا تسعى لأن تكون «عادية» أو «مألوفة».. أبدًا.

«شخصيات حية من الأغاني» أحد الكتب التي يمكن أن نطلق عليها «كتب النوستالجيا الحية».. لا أظن أن أحدًا من أبناء جيلي أو الأجيال الأقدم نسبيًّا، واتصل بسببٍ من الأسباب بتراث العرب الأدبي الزاخر، إلا واحتل هذا الكتاب مكانة فريدة في وجدانه وعقله. مثلًا: الصديق الروائي محمد ربيع، صاحب رواية «عُطارد»، يقول: «إن كتاب المنسي قنديل (شخصيات حية من الأغاني) هو أول كتاب أقرؤه للمؤلف.

هو الذي جعلني أحب قنديل. وأقرأ كتاب (الأغاني) بعد ذلك»[1].

«شخصيات حية من الأغاني» كان العتبة السحرية لكثيرين من الكُتَّاب المعاصرين كي يحبوا المنسي قنديل ذاته ويقبلوا على كتاباته وكي يقعوا في غرام «الأغاني» فيصبح واحدًا من الكتب التي لا يفارقونها ويرجعون إليها بين آنٍ وآخر.

دارت صفحات كتاب المنسي قنديل حول الكتاب التراثي الأشهر، وكأنه قرر أن يغوص في أعماقه ويستخرج من لآلئه ودرره ما ليس له مثيل، يبحث عمَّا وراء «الأغاني»، عمَّا تدور وقائعه في مخادع الملوك وبلاط الأمراء وفي فضاء الصحراء والبوادي، وحيث تجري مغامرات حارة وأنفاس لاهثة تدور خلف الخيام وتحتها ووراءها، يتتبع همسات العُشَّاق ولوثات الشعراء ومماحكات المتغزِّلين، وكأن المنسي قنديل قرَّر، بطموحٍ، أن يعيد قراءة الكتاب الضخم ذي الأجزاء الأربعة والعشرين، ويبدع بلغة عصرية، رائقة وسلسة، صياغة جديدة للمتن العربي القديم.

يُقدِّم المنسي قنديل، في الكتاب المُمتع، شخصيات مختارة بعناية من موسوعة «الأصفهاني»، لكنه يقرر إعادة البناء والكتابة والترتيب، فـ«يتراجع رجال السُّلطة قليلًا ليتقدَّم الشعراء، يخفض الفرسان سيوفهم حتى يعلو همس العشاق، يتوقف صليل السيوف حتى يتواصل إيقاع اللحن والغناء، عشاق معذبون يعيشون ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين، وعندما يسمعون حداء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة». هكذا يتحدث المنسي قنديل عن صنيعه في هذا الكتاب.

وبأسلوبه العذب السيَّال يعرض علينا «المنسي» صفوة من الناس،

---

(١) قال هذا بمناسبة صدور طبعة جديدة من الكتاب عن دار الكرمة للنشر والتوزيع.

رفعهم جهدهم العقلي عن طبقتهم العادية، بداخلهم بذرة من الطموح القلِق، يتأرجحون بين الأحلام التي يسطرونها في كلمات القصائد، وبين تقاليد الصحراء التي لا ترحم، أناس عبَّروا بكل صراحة عن مشاعر الهوى المستعر، والشهوة الصريحة، والرغبة في الحياة، فيُعيد لنا جمال أُنس الليالي الخوالي. وتبقى شخصيات «الأغاني» ـ واقعية كانت أو خيالية ـ خليطًا من الحب والجنون والرغبة، تحلِّق عاليًا قبل أن يهبط بها مدار الوهم، ولعلَّ هذا أحد أسرار إمتاع هذا الكتاب البديع.

سار المنسي قنديل في هذا الكتاب مثلما سار في كتبه الأخرى (هل نقول التاريخية أم التراثية أم الاثنين معًا؟)، التي جمع فيها مقالاته المنشورة على صفحات مجلة العربي الكويتية، وأما تجربته في هذه المجلة الثقافية العريقة التي عمل بها محررًا ما يزيد على عقدين من الزمان، فتستحق «رواية» بأكملها لثرائها الباذخ، تركت آثارها البيِّنة على إبداعه وفنه ومجمل كتابته.

في ظني، لولا ما أتاحته له «العربي» من إمكانية السفر والتجوال في بلدان مختلفة من العالم، شرقه وغربه، وتحرير عشرات الاستطلاعات التي برع في كتابتها، والتي تستحق دراسة أسلوبية خاصة، لما كان للمنسي قنديل أن يتجه إلى هذا اللون من الكتابة عن التاريخ والتراث، كتابة تعمد إلى التصوير الأدبي المعاصر، بلغة فريدة وأسلوب مستقل متفرد، لمادة تاريخية وتراثية، هي بطبيعتها جافة وتتأبَّى على القارئ لعادي أو المبتدئ الذي ستجابهه غابات متشابكة الأفرع والغصون، ولولا كتابات محمد المنسي قنديل عن التاريخ والتراث[1] لفات أجيال كثيرة أن تطَّلع على كنوز هذا التراث وأن تُقبل على قراءته، مستعينةً

---

١) جمعها فيما بعدُ في عدة كتب طُبعت منها طبعات عدة.

بما كتبه المنسي قنديل، ومتسلحةً بمعرفةٍ أولى تمهِّد الطريق لمزيد من التعرُّف والكشف والمقاربة.

ويمكن الإشارة إلى أن كتابه «لحظة تاريخ.. ٣٠ حكاية من الزمن العربي» الصادرة طبعته الأولى عن دار الشروق قبل عدة أعوام، هو في الحقيقة طبعة جديدة مزيدة ومنقَّحة من كتابه «تفاصيل الشجن في وقائع الزمن» بعنوان فرعي «قصص من الزمن العربي»، الذي صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الهلال المصرية في نوفمبر ٢٠٠١م، بالمنطق ذاته تعد الطبعة الجديدة من «شخصيات حية من الأغاني» الصادرة عن دار الكرمة مع مطالع ٢٠١٥م، طبعة مزيدة منقَّحة أضاف لها المؤلف وعدَّل فيها بما يمكن القول معه إن هذه الطبعة مختلفة عن الطبعة الأولى التي صدرت في التسعينات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وما أمتع لحظات التاريخ التي نعيشها مع المنسي قنديل بقلمه، وأروع شخصيات الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني عندما تتجسَّد حاضرة قائمة مبصرة تحدثنا ونشاهدها وننسى الدنيا وما فيها في خلسات من زمننا التعيس هذا..

وما زالت المكتبة العربية في حاجة إلى جهود مماثلة ومحاولات مستمرة للكشف عن كنوزنا التراثية القديمة.

في عشق الدراما التاريخية

«ليلة سقوط غرناطة».. السيناريو النادر!

لم أتوقَّع للحظة وأنا أشتري هذا الكتاب الذي يحمل اسم «ليلة سقوط غرناطة»[1] مذيلاً بتوقيع محفوظ عبد الرحمن، أكثر من قراءة نص جميل وممتع لواحدٍ من عُمَد الدراما العربية المعاصرة، هكذا ظننتُ، لكن الأمر تجاوز السقف المتوقَّع، لم يقتصر الأمر على قراءة نص بديع، جميل، موجع وناجز (ناخز)، بل انفتحت أمامي فجأة صفحة ناصعة و«حزينة» من تاريخ الدراما العربية، وقت أن كان يكتب لها السيناريو والحوار كاتب كبير بحجم محفوظ عبد الرحمن، ويخرجها واحد من أصحاب التاريخ المشرف مثل عباس الأرناؤوط، وحدِّث ولا حرج عن نجوم الدراما وعمالقة التمثيل ممن لم تشهد

(١) هذا الكتاب «مفاجأة حقيقية»، وسارة لكل عشاق الدراما العربية وفن السيناريو، صدر عن سلسلة «آفاق السينما»، العدد رقم ٨٤، وهو نص سيناريو المسلسل النادر «ليلة سقوط غرناطة» الذي كتبه القدير محفوظ عبد الرحمن، أحد أهم أعمدة الدراما العربية في العقود الأخيرة، وأخرجه عباس الأرناؤوط، وقام بأدوار البطولة: عبد الله غيث، أمينة رزق، توفيق الدقن، عبد الرحمن أبو زهرة، محمد وفيق، عبد العظيم عبد الحق، رغدة، أحمد خليل، صفاء الطوخي، راوية أباظة، وإبراهيم عبد الرازق.

الشاشة الفضية من يماثلهم موهبةً وإبداعًا وعبقريةً في فن التشخيص والأداء.

سيناريو رائع، مكتوب بحرفية عالية، ويقدم قراءة حزينة «مؤسية» للحظات الأخيرة في عمر غرناطة الإسلامية قبل سقوطها في يد الملكين الكاثوليكيين «فرديناند» و«إيزابيلا».. لكن الأهم هو ما يشير إليه استدعاء هذه اللحظة التاريخية العصيبة بكل التباساتها وحمولاتها التاريخية والسياسية والثقافية، لحظة تكالبت فيها الخيانة والمؤامرة والمكائد والدسائس واستثمار الفرقة التي لا تزول بين العرب أحسن استثمار.

حرَّضني السيناريو على مشاهدة المسلسل(١).. أما الداهية الذي اختار هذا السيناريو العبقري كي يُنشر على الناس في كتاب فهو لا يقل عبقريةً ولا حسًّا عن كاتبه، اختيار ذكي، ماكر، مراوغ على نمط «الحدق يفهم».. المهم أن يكون هناك «حدق» ويكون «بيفهم»..

قال لي رئيس تحرير سلسلة «آفاق السينما»، الصديق والناقد السينمائي المحترم وليد سيف، إنها فكرة الفنان والكاتب المسرحي المتميِّز عماد مطاوع، مدير تحرير السلسلة، و«أنا كرئيس تحرير تحمَّست لها بشدة، والأهم من هذا الحماس هو الأستاذ محفوظ عبد الرحمن نفسه؛ لأنه ولدى جمع النسخة في الهيئة على الكمبيوتر تعطَّل كثيرًا فتفضَّل هو وقام بجمعها بنفسه».

وكتب عماد مطاوع، في تصديره لنص السيناريو النادر: «تعتز الهيئة

(١) لم أنجح، حتى الآن، في الوصول إلى وسيلة تمكِّنني من مشاهدته.. وإن كان بعض الأصدقاء قد أخبرني أن حلقاتٍ منه قد ظهرت أخيرًا على «يوتيوب».. وإن كنت لم أرَها كاملةً بعد..

العامة لقصور الثقافة وسلسلة (آفاق السينما) بإصدارها سيناريو المسلسل الدرامي التاريخي (ليلة سقوط غرناطة) للكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن، أحد صناع الدراما التليفزيونية الكبار، وصاحب أشهر وأجمل الأعمال الدرامية التي ارتبط بها وجدان المشاهد المصري، منها: (بوابة الحلواني)، (أم كلثوم)، (ناصر ٥٦)، (حليم)، (لحم يحترق)، وغيرها من الأعمال التي تعلق بها المصريون والعرب، وأثْرت عقولهم ووجدانهم»..

وربما لم يحظَ عمل درامي تليفزيوني باهتمام المشاهد العربي، واهتمام أنظمة الحكم أيضًا، مثلما حظي مسلسل «ليلة سقوط غرناطة»، على الرغم ممَّا عانته ظروفه الإنتاجية من صعوبة بالغة؛ فقد جاء توقيت كتابته وعرضه في نهاية سبعينات القرن الماضي، بما شهدته من توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل وما أعقبها من تداعيات في العلاقات المصرية ـ العربية، جاء المسلسل كصيحة عالية ردًّا على ما اعتبره صُنَّاعُهُ «ضياع الحلم القومي العربي وانهياره، وإرهاصات التراجع والنكبات التي توالت على أجزاء من العالم العربي خلال تلك الفترة».

مُنع المسلسل من العرض في مصر وقتها، وتجنبَتْ شراءه وعرضَه دولٌ عربية أخرى، ولم يبقَ سوى دول قليلة هي التي وافقت على قبوله، نصفها من دول الشمال الأفريقي التي احتفت بالمسلسل وعرضته على شاشات تليفزيوناتها، بحسب محفوظ عبد الرحمن في مقدمته للسيناريو المنشور.

اختار محفوظ عبد الرحمن، بذكاء شديد وحساسية عالية، لحظة تاريخية مؤسية، شديدة الخطورة وبالغة الدلالة، ليجسِّد من خلالها أزمة الإنسان العربي عبر العصور، ولم يكُن تخيُّر لحظة سقوط غرناطة في أيدي الملكين الإسبانيين «فرديناند» و«إيزابيلا» إلا مجازًا وقناعًا لمآلات الحاضر

والأحلام التي انهارت وسقطت بفعل الخيانات المتراكمة والتنازلات المتتابعة وغياب الرؤية الكلية والقدرة على قراءة الواقع والمستقبل معًا.

يقول محفوظ عبد الرحمن في مقدمته لنص السيناريو: «في عام ١٩٧٩م، كنا نعيش في غيبوبة، كنا نحس أننا فقدنا حلم العدالة الاجتماعية، وبناء الدولة على أساس حضاري، وكنا قد فقدنا حلم القومية العربية، ورأينا التسلُّط الإسرائيلي في أعلى مظاهره الفاشية. وهرب الناس إلى أحلامهم الخاصة، وكانت الأغلبية مع الرغبة في الثراء والوصول بأي طريقة».

عُرض المسلسل في عام ١٩٧٩م، وتم إنتاجه في استوديوهات عجمان التي أخرجت عددًا من أروع المسلسلات التليفزيونية في تاريخ الدراما العربية، وكان يقع في ثلاث عشرة حلقة تدور كلها في ليلة واحدة تعرض لوقائع اللحظات الأخيرة قبل تسليم المدينة ودخول الإسبان غرناطة، وانتهاء أي وجود للعرب والمسلمين رسميًّا في شبه الجزيرة الإيبيرية.

تبدأ الأحداث في اليوم الأول من يناير سنة ١٤٩٢م، وتنتهي في صباح اليوم التالي، وخلال هذه الساعات العصيبة يعرض المسلسل لما دار في أروقة القصور والناس نيام وما دُبِّر من اتفاقات وتنازلات مخزية لتسليم المدينة، كان أمر المعاهدة السرية بين أبي عبد الله محمد الصغير (آخر أمراء غرناطة) والملكين الكاثوليكيين قد افتضح. سلمهما الملك الصغير مفاتيح قصر الحمراء، فكافآه بثلاثين ألف قطعة من الذهب القشتالي (وقيل من الفضة!) مع صون حقه الأبدي في ملكية قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته.

عاش أهل القصر ليلتهم الثقيلة، طويلة وحزينة، تثقلهم مرارة اكتشاف أنهم بيعوا كقطيع أبقار أو غنم، تقول عائشة، أم الأمير، لابنها الذي

سلَّم غرناطة: «حق لك أن تبكي كالنساء على ملك لم تصُنه كالرجال»..
هذه أم أمير غرناطة تخاطب ابنها الذي بكى ملكه الضائع ليلة سقوط غرناطة، ذلك كله في الوقت الذي ظهرت فيه بوادر حركة احتجاجية يائسة بقيادة أبي عبد الله الكبير وغسان الغساني، قائد الحرس، تحاول إيقاف عجلة الزمن وتحافظ على سراب البقاء، لكن التاريخ لا يرحم!

أهم ما ميَّز هذا العمل هو المساحة الأدائية الرائعة التي وفَّرها المخرج الأردني عباس أرناؤوط للممثلين، كي يحققوا حضورًا لافتًا للأداء التمثيلي في دراما تلفزيونية عربية، وهو ما تناولته الصحف العربية حينها باهتمام ووقفت أمام مبارزات أدائية بين توفيق الدقن وعبد الله غيث كانت تنتصر لكلا الفنانَين، ويتميَّز عبد الله غيث، الذي غيَّبه الموت في قمة عطائه، بأنه قدَّم سلسلة طويلة من الأعمال التاريخية المتميِّزة التي تحاكي الحقبة التاريخية ذاتها ومنها: «موسى بن نصير»، و«ثعلب الأندلس».

ولعل أيضًا ما ميَّز مسلسل «ليلة سقوط غرناطة» أن مجمل أحداث هذا العمل تتطرَّق لآخر ليلة من ليالي هذه المملكة الجميلة التي كانت في وقت من الأوقات محجة العرب والأوروبيين إلى الأندلس، وربما تزامنًا مع واقع سياسي رديء في تفاصيله اليومية آنذاك، داعب «عبد الرحمن» الحكام العرب في تناحرهم وتدميرهم لبعضهم البعض بما جرى من وقائع مأساوية في ليلة سقوط غرناطة، التي شهدت سقوط الحضارة الإسلامية في بلاد فتحها العرب المسلمون وبنوا فيها حضارة كبيرة، ونتيجة التناحر الذي جرى بين حكام الممالك الأندلسية ضَعُفَ بنيان الدولة وصارت البلاد لقمةً سائغةً بيد الإسبان الذين احتفوا باستعادة إمبراطوريتهم.

«قاموس الأدب العربي الحديث»

حسنًا فعلت الهيئة العامة للكتاب بإصدارها طبعة جديدة من «قاموس الأدب العربي الحديث» للدكتور حمدي السكوت، هذا القاموس لا يفارقني منذ اقتنيت طبعته الأولى الصادرة عن دار الشروق عام ٢٠٠٦م، وقتها كنت أعمل محررًا بموقع «بص وطل» الإلكتروني، في مصر الجديدة، وكان لـ«الشروق» مكتبة في الشارع الخلفي الموازي لمقر الموقع، ومنها اشتريتُ هذا السفر الجليل.

لكني استعضتُ بهذه الطبعة الجديدة (عن الهيئة العامة للكتاب)، عن الطبعة الأولى، لزيادات وإضافات وتعديلات جديدة أُدخلت عليها.

يهدف هذا القاموس إلى تقديم معلومات صحيحة وواضحة وسريعة حول الأدباء المبدعين في كل أنحاء العالم العربي، ويغطي الفترة من أوائل القرن التاسع عشر حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فضلًا عن مداخل لبعض الكتب المهمة، وأبرز المجلات الأدبية، وعددٍ من المكتبات ذات التاريخ والأهمية في الوطن العربي.

ويضم القاموس أيضًا طوائف مهمة أخرى تشمل الراحلين من كبار العلماء من أمثال: مشرفة، وكامل حسين، وأحمد مستجير.. ومن كبار النقاد مثل: طه حسين، وكبار رجال التنوير، وعلماء الإنسانيات،

وغيرهم، وقد جاوز عدد المداخل الألف والثلاثمئة مدخل.

هذا تعريف موجز بهذا القاموس، الذي لا بُدَّ أن أعترف بأنني منذ اقتنيت طبعته الأولى قبل سبع سنوات يكاد لا يفارق مكتبي ولا أستغني عنه؛ ذلك أنه بالفعل واحد من أفضل الكتب التي تغطِّي مساحة واسعة وعريضة من الترجمة الموجزة والتعريف بأبرز وأهم أعلام أدبنا العربي الحديث، مع توسُّعات في تحرير مواد متصلة بالنشاط الأدبي مثل التعريف بالمجلات الثقافية، والصحف والدوريات، التي لعبت دورًا مؤثرًا في الحياة الثقافية، وكذا التعرض لبعض الظواهر الأدبية، مثل: الصالونات، والمقاهي، والأسر ذات النشاط الإبداعي والفكري... إلخ.

أما أهم وأقيم ما في هذا القاموس - في رأيي - فهو فريق المحررين المكون من كبار أساتذة الأدب والنقاد من الأكاديميين، الذي قام على تحرير مواد الموسوعة بإشراف حمدي السكوت[1].

وستجد موادَّ حررها محمد بدوي، حسين حمودة، سامي سليمان، جنبًا إلى جنب محمود الربيعي، وأحمد درويش، وعبد العزيز حمودة، وصبري حافظ.. ومن الجيل الأكبر: يوسف الشاروني، ووديع فلسطين، وعشرات آخرون من مصر والعالم العربي[2].

عن الغاية من هذا العمل والهدف من تأليفه، يقول الدكتور حمدي

---

(١) الأستاذ الفخري بالجامعة الأمريكية، أستاذ الأدب العربي، مدير مركز الدراسات العربية ووحدة بحوث الأدب العربي بالجامعة الأمريكية سابقًا، وصاحب أول ببليوجرافيا علمية شاملة للرواية العربية، وأول سلسلة بيوجرافية نقدية ببليوجرافية عن أعلام الأدب المعاصر في مصر: طه حسين والعقاد والمازني وأحمد أمين ونجيب وغيرهم، بالاشتراك مع العالم والمستعرب الراحل الدكتور مارسدن جونز، الأستاذ بالجامعة الأمريكية.

(٢) بلغ عدد المساهمين في تحرير القاموس ٧٢ محررًا.

السكوت في مقدمته: «إن هذا القاموس يأمل أن يقدِّم للقارئ العادي معلومات صحيحة وواضحة وسريعة حول المبدعين وكبار رجال الفكر والثقافة في العالم العربي في العصر الحديث، وهو يتألف من مداخل أو مقالات موجزة، خصص كل منها لواحد من هؤلاء المبدعين أو المفكرين، في أرجاء العالم العربي كافة، من موريتانيا إلى عمان، ومن أوائل القرن التاسع عشر حتى العقد الأول من الألفية الثالثة، فضلًا عن مداخل للكتب المهمة، وأهم المجلات الأدبية والثقافية، والجمعيات أو المدارس الأدبية التي كان لها دورٌ في تطوير بعض الفنون الأدبية، وعدد من المكتبات ذات التاريخ والأهمية في الوطن العربي، كما أنه لا يغفل المجالس أو الصالونات الأدبية والمقاهي الثقافية.

يضم القاموس نحو ألف مدخل يدور معظمها حول المبدعين العرب، في مجالات الشعر والرواية والمسرح والقصة، أو حتى المكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية، والنقاد العرب الذين رحلوا عن عالمنا، بعد أن تركوا أثرًا واضحًا في مجال النقد والدراسة الأدبية.

ويكشف «السكوت» في مقدمته عن أنه في ظل غياب أي موسوعة عربية علمية ملائمة للشخصيات، كان لا بُدَّ من إضافة عددٍ من كبار الراحلين الذين لا غنى للمثقف العربي عن الإلمام بسِيَرهم، ومنهم كبار المفكرين والمثقفين العرب: الطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، وقاسم أمين، وبشر فارس، وفرح أنطون، ولطفي السيد، وهدى شعراوي، وصفية زغلول، ونبوية موسى، وسيزا نبراوي، ودرية شفيق، وغيرهم، وعدد من كبار العلماء والفنانين والمهتمين بالفكر الفلسفي، وكبار الصحفيين، من بينهم: علي مصطفى مشرفة، ومحمد كامل حسين، وأحمد مستجير، ومحمود مختار، وحسن فتحي،

ومصطفى عبد الرازق، وعبد الرحمن بدوي، وزكي نجيب محمود، ومحمد التابعي، وفكري أباظة، وعلي مصطفى أمين، وأحمد بهاء الدين، وغيرهم، وكبار المسرحيين والسينمائيين والموسيقيين من أمثال: يوسف وهبي، والريحاني، وزكي طليمات، وبديع خيري، وأمينة رزق، وسيد درويش، وعبد الوهاب، وأم كلثوم، وغيرهم.

سبب حماسي الشديد لهذا العمل هو افتقاد مكتبتنا العربية ما أسميه كتب «المداخل والمفاتيح»، وهي نوعية من المؤلَّفات وظيفتها الأساسية هي فتح المجال أمام القارئ العادي أو المتوسط للتوسُّع في موضوع أو قضية أو مسألة ما، خصوصًا إذا كان المشهد يتَّسم بالفوضى والارتباك والتباس الرؤية، وغياب المنهج والتفكير العلمي والسؤال النقدي، فبات كل شيء «سداح مداح»، افتقد الكثيرون البوصلة وغاب عنهم الشكل الأمثل لتنظيم المعرفة والتدرُّج في التخصُّص، وصولًا إلى امتلاك ناصية الموضوع الذي يشغلهم أو يهتمون بالبحث فيه.

لن تجد مؤلَّفًا واحدًا يفي بمثل هذا الغرض ومستوفيًا لشرائط التأليف العلمي والمنهجي، خصوصًا إذا كان العمل يتَّسم بالموسوعية والشمول، هذا جهد ضخم ينوء به الأفراد وحدهم، ولا بُدَّ أن تتصدى له المؤسسات المعنية بدعم مثل هذا اللون من النشاط التأليفي، لتوفير ما نحتاج إليه منها لنضعه بين أيدي الشباب والمقبلين على المعرفة في مستهل حياتهم كي يرتقوا الدرج بدلًا من التعثُّر والتخبُّط واللجوء إلى المتاح، وهو في الغالب «لا نفع منه ولا فيه».

«موسوعة كمبردج لتاريخ الأدب العربي»

من المحامد المعرفية التي لا تُقدَّر بثمن للموسوعات الكبرى ودوائر المعارف العامة والمتخصصة على السواء، أنها تتيح لقارئها والمطلع عليها المدخل المناسب للقراءة في موضوع معين أو مجال معرفي بذاته؛ ليس فقط من جهة التعرُّف الأولي إلى هذا الموضوع أو جانب متصل به، بل أيضًا ـ وهذا ربما يكون الأهم من وجهة نظر كثيرين ـ يقدم ضمنيًّا رؤية لتنظيم القراءة وترتيب الأولويات بحسب اهتمامات القارئ بهذه الموسوعة أو تلك.

في هذا الإطار، تأتي الترجمة العربية للمجلدين الأولين لموسوعة كمبردج في تاريخ الأدب العربي[1]، وهي بإجماع المتخصصين واحدة من أهم وأشمل وأغنى المداخل المعرفية لدراسة تاريخ الأدب العربي منذ أقدم عصوره وحتى واقعه الراهن.

صدر المجلد الأول (الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي) بتوقيع المترجم عبد المقصود عبد الكريم، ويتناول الفترة من فجر الأدب العربي

---

(١) صدرت عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة.

حتى نهاية العصر الأموي؛ أي حتى العام ١٣٢هـ**[١]، وهو ببساطة بحسب مترجم الكتاب: «أقرب إلى أن يكون مقدمة لدراسة الأدب العربي، أو حتى مقدمة لدراسة الثقافة العربية على الرغم من تركيزه على الفترة الزمنية التي يشير إليها، وعلى الموضوع الذي يشير إليه».

وصدر المجلد الثاني أيضًا بعنوان «الأدب العباسي»، بترجمة محمد بريري وأحمد عبد اللاه الشيمي، ليستكمل تاريخيًّا نشاط الأدب العربي حتى نهاية العصر العباسي وسقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، في عام ٦٥٦هـ.

«موسوعة تاريخ الأدب العربي»، في أصلها الإنجليزي الصادر عن جامعة كمبردج، تقع في ستة مجلدات ضخام، يقدِّم المجلد الأول منها مادة وافية عن الأدب العربي منذ العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، مادة ثرية تتصل باللغة العربية والخط العربي والشعر والنثر الجاهليين، والقرآن والحديث، والسيرة، والحكايات والأساطير في الجاهلية والإسلام، والشعر الأموي والموسيقى، ويتتبع التأثير اليوناني والفارسي والسرياني على الأدب العربي، ويضم ملحقًا بيلوجرافيًّا يتضمَّن ترجمات القرآن للّغات الأوروبية والأفريقية.

وكما تتنوَّع الموضوعات، تتنوَّع المصادر بشكل هائل لتغطي فترة زمنية واسعة (من النقوش الجدارية في العصور القديمة إلى محمد أحمد خلف الله وطه حسين، ويوسف السباعي، وحميد الله، وعبد الله الطيب في القرن العشرين)، وتتنوَّع أيضًا أسماء المساهمين وجنسياتهم واهتماماتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقائدية، يجمع بين هذه الأسماء كلها ما قدمته من إنجازات في مجالات الأدب والثقافة العربية.

(١) العام الذي شهد سقوط الدولة الأموية.

والحقيقة، كما يقول مترجم الكتاب، فإن محتوى المجلَّد أوسع من العنوان الذي يحمله، والمعنى المقصود هنا من كلمة «الأدب» هو المفهوم الواسع للأدب كما يوضحه المحررون، ويبررون تبنيهم لهذا المفهوم، في مقدمتهم للجزء الأول من الموسوعة، بل عن تخطي الفترة الزمنية التي يشير إليها العنوان، وبشكل خاص في عرض تأثير القرآن على الأدب العربي؛ حيث نعثر في فصل عن «تأثير القرآن على الأدب العربي»، في القرون الوسطى على استشهادات من شعر أبي نواس والمتنبي وابن الرومي وأبي العلاء المعري وأبي تمام وأبي العتاهية وغيرهم.

كما نعثر على استشهادات من نثر أبي العلاء المعري (في «رسالة الغفران» وكتاب «الفصول والغايات»)، ومن «مقامات الحريري» أيضًا.

سنجد أيضًا فصلًا عن تأثير القرآن في الأدب المعاصر، وينطبق الأمر نفسه عند عرض التأثير الفارسي على الأدب العربي؛ حيث نعثر، على سبيل المثال؛ على استشهاد من بخلاء الجاحظ.

وعلى النهج ذاته يسير المجلد الثاني في تعقبه القضايا والموضوعات المتصلة بالأدب العربي طيلة أربعة قرون متصلة..

وَصْلٌ/

عندما وصف المسلمون عالمهم في القرون الوسطى!

وعن المركز القومي للترجمة أيضًا (الذي يلعب دورًا عظيمًا في نشر العلوم والمعارف والإسهام بتأسيس عصر ذهبي جديد للترجمة في ظل ظروف صعبة وإمكانات محدودة وعلى الرغم من ذلك يؤدي أدواره

بنشاط واقتدار) صدرت الترجمة العربية لكتاب مهم للغاية، أتصور أنه يتصل من حيث موضوعه وتبويب فصوله ومداه الزمني بموضوعات ومواد «موسوعة كمبردج لتاريخ الأدب العربي» التي تحدثنا عنها قبل قليل.

الكتاب عنوانه «الكتابة وأشكال التعبير في إسلام العصور الوسطى»، وهو كتاب موسوعي بالمعنى الذي يصله بموسوعة تاريخ الأدب العربي، لكنه يوسِّع الدوائر ويمدُّ الخطوط ليتناول التراث الإسلامي بمعناه الثقافي الواسع خلال فترة ثمانية قرون متصلة في تاريخ الإسلام، ويمكن أن يعد بمنزلة مقدمة أو مدخل للتفكير الإسلامي، تُستكشف جوانبه الإنسانية والخيالية عبر أطياف فكرية واسعة، ويعتمد «النقد الثقافي»، بمعناه الواسع، إطارًا تحليليًا ومنهجيًا له.

زمنيًا، يشير مصطلح «العصور الوسطى»، كما يستخدمه محررو مقالات الكتاب، أو «Middle Age»، إلى فترة تاريخية تمتد من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي. بدأت العصور الوسطى في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية في عام ٤٧٦م وامتدت حتى العصر الحديث المبكر. تتراوح العصور الوسطي من نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية، حوالي القرن الخامس، حتى قيام الدول الملكية وبداية الكشوفات الجغرافية الأوروبية، وعودة النزعة الإنسانية، وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي بداية من عام ١٥١٧م. هذه الأحداث هي التي أدت إلى دخول أوروبا في مرحلة بداية «الحداثة» التي تلتها مرحلة «الثورة الصناعية».

لا يتوقَّف الكتاب إزاء النصوص التي يعالجها بوصفها نصوصًا منبتَّة الصلة عن سياقها التاريخي وشرطها الثقافي/ الاجتماعي؛ فالنصوص

هنا تُعدُّ «تمثيلًا» دقيقًا وناصعًا للحياة الإسلامية في القرون الوسطى.
ويمكننا، من خلال النظر الدقيق والتحليل المنهج، الإجابة عن أسئلة من عينة: كيف وصف المسلمون في القرون الوسطى عالمهم؛ تاريخه وثقافته وممثليه الاجتماعيين الأساسيين؛ رجالًا ونساء، عاديين واستثنائيين، حين كتبوا عن هذا العالم بمفرداته ومكوناته ومشتملاته؟ كيف تعرَّفوا إلى النمط والمعنى في شؤون الإنسان وأوضحوا لقُرَّائهم الفرق بين المظهر والحقيقة.

ويناقش المساهمون الستة في الكتاب، وهم متخصصون في مجالات مختلفة من الفكر الإسلامي الكلاسيكي، هذه المسائل ويقدمون تحليلًا عميقًا من خلال دراسات الحالة التي تشمل: الكتابات النظرية، والتأريخ، والذكريات، والقص والتعبير الرمزي. ويقدم الكتابُ دليلًا للقارئ لاستخدام المصادر العربية (في مظانها) تعالجها عادةً الدراسات الحديثة على أنها تخصصات منفصلة، لكن الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى اعتبرتها «متصلة».

وعلى الرغم من استخدام الأيديولوجيات المتنافسة والمتناحرة أيضًا لنصوص مشتركة وكلمات كاشفة لتعزيز رسالتها وتدعيم أفكارها، فإن الآراء العامة للمسلمين في العصور الوسطى قد تختلف بحدة، مبتكرة مسارًا أدبيًّا مشتركًا، وكثيرًا ما يخطئ القراء المحدثون تلك الموضوعات المشتركة لخطاب مشترك ويقاربونها بالمفاهيم الحديثة للتدرج الهرمي الاجتماعي والجنسي والفكري. يقارن كتاب «الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى» المصادر بتفسيرات حديثة ومسائل أخطأت في تحديد الغائيات والتصنيفات الإشكالية ويقترح تحولًا كبيرًا للمنظور، ليصبح قراءة أساسية للمهتمين بأدب الشرق الأوسط والتاريخ والإسلام.

يقع الكتاب في جزأين؛ الأول: «الحقيقة والخيال»: ويضم ثلاثة فصول: «ابن زنبل وقصة التاريخ»، لروبرت إروين، و«التاريخ والقصة والتأليف في القرون الأولى من الإسلام»، لروبرت ج. هولاند، و«الكاتبات في القرون الوسطى: أشكال التعبير وإساءة التعبير»، لجولي سكوت ميسامي. «ابن زنبل وقصة التاريخ» فصل شائق يستهل بوصف تاريخي بارع لـ«روبرت إروين» عن مصري من القرن السادس عشر هو ابن زنبل، الرمَّال الذي كتب قصة زوال نظام سياسي وصفه بالعظيم لدولة المماليك استمر قرنين ونصف القرن، وصعود سلطة إمبريالية جديدة، هي سلطة الأتراك العثمانيين. يتعاطف ابن زنبل مع الخاسرين ويصور المماليك أبطالًا منكوبين انهمكوا في صراع ضد التاريخ. بينما يقارب «روبرت هولاند»، في مقاله عن «التاريخ والقصة والتأليف.. في القرون الأولى من الإسلام»، نصًّا مجهولًا لكاتب في القرن العاشر الميلادي (الخامس الهجري).

وتأتي المقالة الثالثة (الكاتبات في القرون الوسطى: أشكال التعبير وإساءة التعبير) لتقدِّم قراءة عميقة ومستفيضة رجعت فيها «جولي سكوت سيامي» إلى نصوص مهمة ومتباينة تكشف عن التناقضات بل المفارقات العميقة في التصوُّرات التي قدَّمها الإنتاج الذهني للكاتب المسلم عن المرأة. وعبر تحليلات نافذة تستأنس بأدبيات وإجراءات عملية ومنهجية، تخلص محررة المقال إلى نتائج بالغة الأهمية والقيمة وتلقي بالضوء على عدد من النصوص التراثية تعيدها إلى بؤرة الاهتمام وتدخلها في مجال المدونات التي يجب الرجوع إليها والاعتماد عليها حين تقديم أي مقاربة تسعى إلى أن تكون دقيقة عن صورة المرأة المسلمة في العصور الوسطى.

أما الجزء الثاني (المظهر والحقيقة) فيضم فصولًا ثلاثة أيضًا: «عن البيان والتبيين للجاحظ» لـ«جيمس مونتجمري»، وهذا الفصل تحديدًا يقدِّم قراءة شائقة لتراث النثر العربي من خلال كتابات «الجاحظ»، وبالأخص كتابه الموسوعي «البيان والتبيين»، وأية مراجعة لنصوص النثر العربي وأنواعه، لا يستطيع الباحث إلَّا أن يلاحظ مثل هذه الظواهر، بدءًا من سجع الكهان والخطابة الجاهلية، ومرورًا بالرسائل الديوانية والإخوانية التي ظلت لفترة طويلة نموذج النثر الفني العربي.. لكن، وإلى جانب تقديم الرسائل والمختارات الأدبية لصفوة ما قيل من شعر ونثر وحكمة، بالإضافة إلى الحكايات ذات المغزى العميق حول كل موضوع يمكن تصوره ويتعيَّن على الرجل المتعلم (الأديب) الإلمام به، فإن هذه الرسائل والمختارات أولت اهتمامًا كبيرًا، صريحًا وضمنيًّا، باللغة واستعمالها النموذجي.

وهذه المؤلَّفات كانت تشكل صميم النثر الفني الإسلامي الخالص في العصر الوسيط. وقد استمدَّت مادتها من الأدب السياسي من نوع الأدب المعروف باسم «مرآة الأمراء»، ومن النظرية الأخلاقية، ودراسة أنماط الأفراد، والفكر الديني الملهم، كما استمدتها مع مرور الوقت من ميادين العلم الأخرى، مع الحرص دائمًا على تأكيد العناصر الأدبية الممتعة والمسلية من خلال المواد التي تقدمها. ويعتبر «الجاحظ» (١٥٩ ـ ٢٥٥هـ ٧٧٦ ـ ٨٦٩م) أرفع ممثل لهذا النوع من الأدب؛ فقد وُلد «الجاحظ» ونشأ في البصرة، وأمضى معظم سِنِي حياته الطويلة في العاصمتين العباسيتين بغداد وسامراء، أديبًا وداعية لمبادئ المعتزلة.

الفصل الثاني من هذا الجزء يدور حول «المقامات سلسلة من الاهتمامات.. تأملات في (مقامات الهمذاني والحريري)» لـ«فيليب

مكينيدي»، ويقوم أدب المقامات على استغلال مؤثرات الأسلوب الكتابي إلى أقصى درجة، ويتمثل ذلك في النثر المسجوع والكلمات التي تُستعمل بدقة ومهارة، بحيث تبدو مبهمة لا تُفهم بالنسبة للشخص العادي وغير المثقف الذي يتحدث العربية. وتصف المقامات مشاهد الحياة اليومية ومشكلاتها بأسلوب مسرحي يرد على لسان بطل المقامة الذي يجادله غالبًا شخص آخر ممن يلقاهم.

والمقامات، في تعريفها الكلاسيكي، هي ذلك النوع النثري العربي الذي استخدم هذه العناية الخاصة بالبديع ضمن إطار جديد مختلف، يقوم على تخيُّل راوٍ للحكايات وبطل يقوم بالمغامرات ويتنقَّل بين البلدان، لكن ظل جوهره في النهاية على ما يؤثِّر تأثيرًا مباشرًا في أذن المستمع، خاصة العناصر الإيقاعية، وما أكثرها في ذلك اللون من النثر العربي، الذي طمح إلى أن يقترب من إيقاع الشعر الغنائي؛ فكانت العناية بالسجع بشكل خاص، وبألوان البديع المختلفة التي تفنَّن البلاغيون العرب في تصنيفها وذكر أسمائها، هذا فضلًا عن العناية بظواهر التكرار الإيقاعية، مثل تكرار الجمل القصيرة المتوازية، وتكرار الصيغ الصرفية والنحوية... إلخ.

وأخيرًا، يأتي الفصل الثالث عن «العالم الفيزيائي وعين الكاتب.. التنوخي والطب»، لـ«جوليا براي»[1].

(١) مقالات هذا الكتاب، في الحقيقة، محاولة لفهم بعض الطرق التي وصف بها بعض الكتاب المسلمين في القرون الوسطى عالمهم (القرون الوسطى هنا، بالمعنى الزمني الذي تحرَّك في إطاره كُتَّاب المقالات، تعني الفترة من القرن الثامن الميلادي وحتى السادس عشر الميلادي) وما اعتقدوه بشأن معناه في رؤية العالم وتكوين وجهة نظر حول الوجود والمعرفة والإنسان. الكتاب من تحرير «جوليا براي»، وترجمة عبد المقصود عبد الكريم.

«في الشعر الجاهلي» لطه حسين..
سيرةُ كتابٍ هزَّ العقول!

لم يُثِر كتابٌ في تاريخ الثقافة العربية الحديثة ما أثاره كتاب «في الشعر الجاهلي» الذي أصدره طه حسين في مارس من العام ١٩٢٦م، قامت الدنيا ولم تقعد بسبب هذا الكتاب ـ وربما حتى اللحظة ـ وتم الزج بالديني والسياسي في التفسيرات التي قدمت له، واندلع طوفان من الهجوم الدعائي الجارف ضد طه حسين، وحملة غير مسبوقة على الكتاب وصاحبه، لم ينلهما كتابٌ مثله في تاريخ الفكر العربي الحديث حتى يومنا هذا.

واقترنت حملات التشكيك بالذمة العلمية بحملات التشكيك في سلامة العقيدة! وانهالت حملات التكفير التي اختلطت بدوافع سياسية ونوازع اجتماعية غير بريئة، وصدر في الرد على الكتاب كتبٌ لا عدَّ لها ولا حصر، أكثرها لا قيمة له، انصب فيه الهجوم على شخص طه حسين، والإساءة إليه، ومعايرته بعاهته، وأقلها انصب على الأفكار التي ناقشها وفكرة المنهج التي طرحها.

لكن في النهاية انقشعت هذه الغيوم مخلفةً آثارها، وتبقَّى من هذا الكتاب الحجر الضخم الذي ألقاه في المياه الراكدة، وفتح الباب على

مصراعيه أمام استيعاب فكرة «المنهج» بمعناه الفلسفي والمعرفي في الدراسات الإنسانية، وتأكيد الحق في طرح السؤال؛ أيِّ سؤال، ومراجعة الأفكار أيًا ما كانت.

وقائع معركة معلنة!

ويبدو أن نشر الكتاب بعد نشر علي عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» بعامٍ واحد، وما أثاره من ضجة، بل من طوفان عنيف ضد الكتاب وصاحبه، الذي تم تجريده من رتبة العالمية وفصله من القضاء الشرعي ـ قد ألهب ثائرة المحافظين ضد هؤلاء «المجددين»، «المجترئين على المقدسات»؛ بحسبهم؛ إذ سرعان ما هاجمه شيوخ الأزهر، وكتبوا إلى مدير الجامعة يطالبون بمصادرة الكتاب ومحاكمة مؤلفه. وبعد أيام قلائل، اجتمع مجلس الجامعة لمناقشة الموضوع، وفوَّض مدير الجامعة لاتخاذ ما يلزم في هذا الشأن.

وفي ٢٧ من مايو ١٩٢٦م، عرض طه حسين أن يسلِّم للجامعة باقي نسخ الكتاب لتفعل بها ما تشاء. وقد تسلَّمت الجامعة منه النسخ فعلًا واشترت أربعًا وثلاثين نسخة كانت باقية لدى مطبعة الهلال. ووُضع الجميع في صناديق خُتمت بالشمع الأحمر وحُفظت في مخازن الجامعة، لكن هذا الإجراء لم يكفِ لتهدئة ثائرة الأزهر؛ ففي الخامس من يونيو بعث شيخ الأزهر بكتاب إلى النائب العام بُني على تقرير من علماء الأزهر حول كتاب طه حسين، طالب فيه باتخاذ الإجراءات القانونية ضد المؤلف، لكن النائب العام لم يستطِع اتخاذ أي إجراء؛ لأن طه حسين كان خارج القطر في ذلك الوقت.

وفي ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٦م وفي أثناء مناقشة ميزانية الجامعة، أثار النائب عبد الخالق عطية قضية الكتاب وكان سعد زغلول رئيسًا للمجلس، فشرح علي الشمسي باشا، وزير المعارف آنئذ، الخطوات التي اتُّخذت لمنع توزيع الكتاب، وأُعلن أنه لا يمكن القيام بأي عمل آخر لأن طه حسين كان في أوروبا.

لكن نائبًا آخر، هو الشيخ الغاياتي، واصل الهجوم بأسلوب عنيف قرر فيه أن طه حسين ما دام يعترف الآن بأنه مسلم فهو ولا شك قد ارتدَّ ثم أسلم، والتوبة هنا لا تعفي من العقوبة. ثم قدم العضو عبد الحميد البنان اقتراحًا يقضي بمصادرة الكتاب وتكليف النيابة برفع دعوى ضد طه حسين، وإلغاء وظيفته بالجامعة. وخلال مناقشة هذا الاقتراح تدخَّل رئيس الوزراء، عبد الخالق ثروت باشا، فذكر أن الإجـراءات التي اتُّـخذت تُعتبر كافية، كما أن المؤلف قد اعتذر، لكن المناقشة استمرت فترة طويلة، طرح خلالها رئيس الوزراء الثقة بوزارته حول هذه القضية وإن كان قد تراجع عن ذلك سريعًا.

وفي مارس من سنة ١٩٢٧م، نُشر تقرير رئيس النيابة في ٣٢ صفحة، وهو تقرير يمكن أن يُؤخذ على أنه مثال حي للنقد الأدبي الصحيح. والواقع أن القارئ يتملكه العجب إزاء نزاهة رئيس النيابة «محمد نور»، وموضوعيته، وثقافته الواسعة، واقتداره العجيب كناقد أدبي، وقد انتهى التقرير ـ بعد مناقشات ممتعة ومفحمة للمؤلف أحيانًا ـ بالعبارة الآتية:

«وحيث إنه ممَّا تقدَّم يتَّضح أن غرض المؤلف لم يكُن مجرد الطعن والتعدي على الدين، بل إن العبارات الماسَّة بالدين، التي أوردها في بعض المواضع من كتابه، إنما قد أوردها في سبيل البحث العلمي مع

اعتقاده أن بحثه يقتضيها، وحيث إنه مع ذلك يكون القصد الجنائي غير متوافر..

فلذلك، تحفظ الأوراق إداريًّا.

(القاهرة في ٣٠ مارس ١٩٢٧م/ رئيس محكمة مصر/ محمد نور)».

وهو حُكمٌ، بتعبير حمدي السكوت، يشهد بأمانة النظام القانوني في مصر في ذلك الوقت، وارتفاعه فوق مستوى العواطف والأهواء التي كانت متلاطمة في تلك الفترة. وبعد نشر التقرير عرض طه حسين استقالته، لكنها لم تُقبل، فتقدَّم محمود باشا رشاد، عضو مجلس الشيوخ، بسؤال إلى وزير المعارف عن السبب في عدم قبولها. وكان هذا السؤال سببًا في إثارة القضية من جديد. وانتهت المناقشات بوعدٍ من وزير المعارف بإحالة الكتاب إلى لجنة خاصة.

وفي سنة ١٩٢٧م، نشر طه حسين كتابه بعنوان جديد هو «في الأدب الجاهلي»، بعد أن حذف منه الفقرات التي سبَّبت الضجة، لكن هذا لم يُنهِ القصة أيضًا؛ ففي ٢١ مايو سنة ١٩٢٨م، أثيرت القضية مرة أخرى على لسان محمود رشاد باشا ثانية، وفي هذه المرة توسَّع في الهجوم ليشمل محاضرات طه حسين لطلابه حول القرآن، لكن مناقشات المجلس لم تنتهِ إلى اتخاذ أي قرار. وفي الخامس من يناير سنة ١٩٣٠م، في وزارة النحاس باشا، هوجم طه حسين مرة أخرى في أثناء مناقشة الميزانية، وكانت هذه هي المرة التي ساند فيها «العقاد» طه حسين في مجلس النواب.

وفي السابع، ثم في الثامن والعشرين من شهر مارس ١٩٣٢م، أثيرت قضية «في الشعر الجاهلي» في مجلس النواب من جديد، وكان الهجوم عنيفًا وشخصيًّا هذه المرة، وقام به النائب عبد الحميد سعيد، وتمت

على أثره إحالة طه حسين إلى التقاعد في اليوم التالي للمناقشة (٢٩ من مارس ١٩٣٢م).

طبعة جديدة.. مدخل وقراءتان

وعلى كثرة ما صدر من طبعاتٍ من هذا الكتاب بسبب تعرض صاحبه، أولًا، للمساءلة أمام النيابة والتشهير به على صفحات الجرائد (آنذاك)، وصولًا إلى اتهامه بالكفر والمروق من الدين، وبسبب، ثانيًا، مصادرة طبعاته ومنع ظهوره لسنوات طويلة حتى لم يعُد في الإمكان مصادرته أو منعه، بعدما تحوَّل العالم إلى قرية صغيرة، وبات تداوُل المعلومات كالماء والهواء، فإن الطبعة التي أصدرتها مكتبة الأسرة المصرية في العام ٢٠١٥م تكتسب قيمة خاصة وأهمية تاريخية، لعدة أسباب:

أولًا: أن هذه الطبعة جاءت مصوَّرة عن الطبعة الأولى التي صدرت عام ١٩٢٦م، وبالتالي فهي تحتفظ بالنص في صورته الأولى التي نشرها طه حسين، وأراد أن يكون الكتاب هكذا قبل تعرُّضه للمنع والمصادرة.

ثانيًا: جاءت هذه الطبعة مزوَّدة بالمقدمة ضافية القيمة التي كتبها تلميذ طه حسين؛ الناقد والأكاديمي الراحل د. عبد المنعم تليمة (توفي في ٢٠١٦م)، وهي مقدمة/ دراسة بعنوان «مدخل إلى قراءة الشعر الجاهلي»؛ وتمثل قراءة عميقة ورصينة للكتاب، وتقدم تحليلًا وافيًا لأطروحاته والنظريات التي استند إليها ولفكرة المنهج التي كانت، بلا شك، واحدة من المحطات المفصلية ليس في درس الأدب العربي وحده بل في مجمل الفكر والثقافة العربية الحديثة بلا منازع.

ثالثا: ذُيِّلت هذه الطبعة بدراسة أخرى كتبها تلميذ وحفيد آخر من تلاميذ طه حسين وأحفاده، هو الناقد والأكاديمي الدكتور جابر عصفور، وزير الثقافة المصري الأسبق، وصاحب الاهتمام الخاص والكبير بتراث «العميد»، الذي خصص له واحدًا من أهم كتبها وأكثرها عمقًا ومقاربة لمنجز طه حسين النقدي؛ كتاب «المرايا المتجاورة.. دراسة في نقد طه حسين».

ويأتي طرح نسخ جديدة من هذه الطبعة عقب وفاة مقدمها عبد المنعم تليمة، آخر تلاميذ طه حسين المباشرين من الذين استمعوا له وحضروا محاضراته في خمسينات القرن الماضي، وقبل توقُّف طه حسين عن التدريس لطلاب الفرق الأولى من الجامعة، واكتفائه بالمحاضرة لطلاب الدراسات العليا، بسبب كبر سنه.

الطرح والمنهج.. إضاءات نصية

يقول طه حسين في مقدمة كتابه/ الأزمة، عن فكرة «المنهج»:

«أريد أن أقول: إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة في ما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استخدمه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والناس جميعًا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ممَّا قيل فيه خلوًّا تامًّا. والناس جميعًا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة، يوم ظهر، كان من أخصب المناهج

وأقواها وأحسنها أثرًا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا، وأنه قد غلا مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث».

ثم يقول طه حسين في الكتاب (أو الباب) الثاني، بعد أن يوضِّح أن «أنصار القديم» ليست لديهم مشكلة في درس الأدب الجاهلي: «وأما أنصار الجديد، فالطريق أمامهم معوجة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى». ثم يستطرد فيذكر أن أنصار الجديد «يتساءلون: أهناك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبمَ يمتاز من غيره؟

ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلُّها إلى رويَّة وأناة وإلى جهود الجماعات العلمية، لا إلى جهود الأفراد.

هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن أولئك من جُرْهُم وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات.. لكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك، ويريدون أن يتبيَّنوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين».

ثم يتابع وفق الرؤية المنهجية التي تصطنع من «الشك» مدخلًا للبحث والدراسة: «وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث، هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح عليَّ الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو قريب من اليقين.

ذلك أن الكثرة المطلقة ممَّا نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة

المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًّا لا يمثِّل شيئًا ولا يدل على شيء».

ليضيف مقررًا: «وأنا لا أضعف عن أن أعلن إليك، وإلى غيرك من القُرّاء، أنّ ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلُّف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين».

وينتهي إلى القول إن البحث الفني واللغوي يفضي بنا «إلى أنَّ الشعر الذي يُنسب إلى امرئ القيس أو الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين، لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنيَّة أن يكون هؤلاء الشعراء، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن».

وتمضي فصول الكتاب، بعد ذلك، محاولةً أن تثبت بالتفصيل مصداقية هذا الفرض/ الطرح. ولم يكن مستبعَدًا ولا مُستغرَبًا أن تثور ثائرة المحافظين أو «أنصار القديم»، وأن تنشب تلك المعركة الهائلة الضارية لتملأ أنهار الصحف والمجلات، وتؤلَّف فيها الكتب الكثيرة، وتُثار تحت قبة البرلمان، كما أوضح حمدي السكوت في تعريفه الموجز بالكتاب[1].

هذه هي الأطروحة الأساسية التي فصَّل القولَ فيها كتابُ «في الشعر الجاهلي» الذي هزَّ العقولَ هزًّا عنيفًا مدويًا، لكن وكما سبقت الإشارة، فإن أهم ما أحدثه الكتاب في تاريخ الثقافة العربية، ليس في النتائج

---

(١) راجع «قاموس الأدب العربي الحديث»، إشراف وتحرير حمدي السكوت، باب الفاء، مادة «في الشعر الجاهلي»، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٥م، ص ٥٨١، ٥٨٢.

التي توصل إليها، ولا التفاصيل التي ناقشها، إنما في الآثار الكبرى التي تمخَّضت عنها المناقشات والزوابع التي ثارت بسببه. وكان من نتاجها، بعد عقود من صدوره، تأصيل فكرة «المنهج» والاعتداد به في البحث العلمي، وعدم الوقوف عند سابق الآراء المتناقلة والمتوارثة في أي شأن من شؤون الحياة، وعلى رأسها الفكر والثقافة والدرس الأدبي.

ولعلَّ من أهم ثماره أيضًا: هذه القراءات الجديدة الملحقة بهذه الطبعة القيمة لتلميذين (أو تلميذ وحفيد) ينتميان لجيلين مختلفين قرأ كل منهما الكتاب من زاوية مختلفة، وقدم رؤية جديدة، وتحليلًا رصينًا يستند إلى أساس نظري وأرضية معرفية متماسكة..

وهذا هو ما يبقى دائمًا من الكتب الإشكالية الكبرى في تاريخ الثقافة الإنسانية.

قضية «استخدام الحياة».. ووكيل نيابة الشهوة الفانية!

في الفصل السابق عن كتاب «في الشعر الجاهلي»، الذي أثار من الزوابع ما زال ممتدًّا حتى اللحظة الراهنة، كنا قد ألمحنا إلى اسم وكيل النائب العام محمد نور، الذي حقَّق مع طه حسين، وأمر بحفظ الأوراق إداريًّا في حيثيات سُجِّلت بحروف من نور كإحدى وثائق التنوير المضيئة المشرفة، وما أقلّها، في تاريخنا الحديث كله!

بعد تسعين عامًا تقريبًا من هذه الواقعة، وبالتحديد في فبراير من العام ٢٠١٦م، يصدر حكم بالحبس لمدة سنتين ضد كاتب ومؤلف مصري اسمه أحمد ناجي، بسبب نشره رواية مصورة بعنوان «استخدام الحياة» رآها البعض خادشة للحياء العام، ومخالفة للأعراف الأخلاقية للمجتمع، ومساهمة في نشر الرذيلة (هكذا!)، وأنه تجب مصادرة الرواية ومعاقبة صاحبها (وهو ما حدث بالفعل)، وذلك بعد أن أخذت المحكمة بحيثيات الإدانة التي قدَّمتها النيابة على لسان ممثلها في واحدة من أغرب القضايا والمرافعات التي ستكون «دالة» و«شاهدة» على الفارق الرهيب بين ثقافة ووعي وتكوين رئيس محكمة مصرية في عشرينات القرن الماضي، وأحد أحفاده في القرن الحادي والعشرين!

بالتأكيد. استدعت هذه القضية، التي شغلت الرأي العام الثقافي في مصر ضية عمين. تاريخًا من المواجهات بين المستمسكين بحرية الرأي والتعبير وبين فعل المصادرة والمنع والمحاكمة تحت دعاوى أخلاقية أو دينية أو مجتمعية. هذا لون من القضايا لا يكاد يتوقَّف في تاريخنا المعاصر: فالباحثون عن الشهرة والمهووسون بفرض أفكارهم الدينية والسياسية قسرًا وعنوة ما زالوا يفركون تحت الرماد، يتحيَّنون فرصة تلوح بوقوع نص أدبي تحت أيديهم مصادفة، أو حتى بإيعاز من مغرض مريض النفس. تبرق الأعين ويسيل اللعاب فيسارعوا بتقديم بلاغات للنيابة العامة أو رفع دعوى قضائية مباشرة أمام المحاكم يختصمون فيها كاتبًا صحفيًّا، أو روائيًّا أو قاصًّا أو فنانًا مبدعًا، أيًّا ما كان، ثم يتم بعدها إرسال نسخ من هذه البلاغات أو العرائض إلى وسائل الإعلام وتتوالى الأحداث!

ليس جديدًا أن يقف كاتبٌ أمام المحكمة بتهمة مثل هذه، وليس جديدًا أن يقوم أحد المتطوعين (هل نقول المتنطعين؟!) بما يشبه وظيفة «المحتسب» التي كانت سائدة في الأنظمة الاستبدادية في العصور الوسطى برفع دعوى قضائية يتهم فيها «كاتبًا» أو «كتابًا» بأنه يتضمَّن محتوًى أخلاقيًّا غير لائق، ويطالب بمنع ومصادرة الكتاب وإدانة صاحبه!

«قبل ما يزيد على خمسة عشر عامًا تقريبًا، صدرت رواية بعنوان (طفلة شنغهاي)، للكاتبة الصينية وي هوي، وثارت السلطات الرسمية الصينية حينها، وقامت بحرق ٤٠ ألف نسخة من الرواية، على أساس أنها رواية وضيعة، تلطخ سمعة الصين!! وهل يمكن لرواية، مهما كانت، أن تلطخ سمعة بلد بأكمله؟!

المهم، كان تصرف السلطات الصينية كفيلًا بصنع شهرة مهولة

مصرية، وتصاعدت الأجواء التي أعادت إلى الأذهان ما حدث مع (آيات شيطانية) لسلمان رشدي الهندي، و(لاجا) للكاتبة البنغالية تسليمة نسرين، و(أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ، و(تلك الرائحة) لصنع الله إبراهيم.. والقائمة تطول، ليست هذه إلا بعض الأمثلة. فمهما يتغيَّر السياق الزمني والمكاني والتاريخي والسياسي، تبقى السلطة كما هي لا تتغيَّر: الحرق والمنع والمصادرة.. كلها أفعال لا تؤدي إلا إلى المزيد من انتشار العمل ولفت الأنظار إليه، وتحويله أحيانًا إلى وسيلة دعاية مضادة لناقده. ويزداد تعقيد الأمر عندما يشمل هذا المنع الغث والثمين».

هذا كله ليس جديدًا. إنما الجديد في القضية هو إغفال الكثير من الوقائع والقضايا السابقة التي شهدت دعاوى مماثلة بدءًا من محاكمة النص التراثي الأشهر «ألف ليلة وليلة» والمطالبة بمصادرته وحرق نسخه (هكذا!!)، مرورًا بالكثير من كتب التراث والإبداعات الأدبية المعاصرة التي طالب أيضًا متهموها بإشاعة الفاحشة أو المساس بما يعدونه من الثوابت بمصادرتها أيضًا.

التاريخ القريب ـ والبعيد أيضًا! ـ يزخر بالعشرات من نوعية هذه القضايا، وبين شد وجذب، ولوائح اتهام وإدانة وعرائض دفاع ومقاومة، وأحكام ابتدائية تدين هذه الكتب وأصحابها وأحكام أخرى مستأنفة تنقض هذه الأحكام وتفنِّد حججها ودلائلها التي استندت إليها في الاتهام والإدانة. تتضح أزمة العقل العربي المعاصر الذي ما زال يعاني ازدواجية شديدة وفصامًا حقيقيًا بين الرغبة في الدخول إلى العالم الحديث ومسايرة ركب الحضارة، وبين أفكار قديمة ما زالت تعشش في ثنايا العقل الباطن، وتمسك بتلابيبه تمنعه من التقدُّم خطوة وتباعد بينه وبين التطور أميالًا.

وقائع القضية

تعود وقائع القضية إلى شهر أغسطس من العام ٢٠١٥م، حينما نشر أحمد ناجي في جريدة «أخبار الأدب» الأسبوعية، في عددها رقم ١٠٩٧، فصلًا من رواية له بعنوان «استخدام الحياة»، صدرت عن دار التنوير بالقاهرة، قام بعدها مواطن، يُدعى هاني صالح توفيق، برفع دعوى قضائية ضد جريدة «أخبار الأدب»، ورئيس تحريرها، والكاتب أحمد ناجي، لنشرهما ما اعتبره «مقالًا جنسيًّا» في الجريدة.

النيابة العامة قبلت الدعوى، وقالت: «إنه تمت إحالة الصحفي ورئيس التحرير للمحاكمة الجنائية، طبقًا للمادتين ١٧٨ و٢٠٠ مكرر أ/ ٢ من قانون العقوبات؛ لأنه في يوم ٣ أغسطس لسنة ٢٠١٥م نشر المتهم الأول مقالًا جنسيًّا بقصد العرض والتوزيع، بينما أخلَّ المتهم الثاني بواجب الإشراف على المقال محل الاتهام».

وأضافت النيابة، في أمر الإحالة للقضية رقم ١٩٤٥ لسنة ٢٠١٥م إداري بولاق أبو العلا، أن «الاتهام ثابت على المتهمَين وكافٍ لتقديمهما إلى المحكمة الجنائية بسبب ما قام به المتهم (أحمد ناجي) ونشره مادة كتابية نفث فيها شهوة فانية ولذة زائلة وأجَّر عقله وقلمه لتوجُّه خبيث حمل انتهاكًا لحرمة الآداب العامة وحسن الأخلاق والإغراء بالعهر خروجًا على عاطفة الحياء».

وتابعت أن «المتهم خرج عن المُثُل العامة المصطلح عليها فولدت سفاحًا مشاهد صوَّرت اجتماع الجنسين جهرة، وما لبث أن ينشر سموم قلمه برواية أو مقال حتى وقعت تحت أيدي القاصي قبل الداني والقاصر والبالغ فأضحى كالذباب لا يرى إلا القاذورات فيسلط عليها الأضواء والكاميرات حتى عمَّت الفوضى وانتشرت النار في الهشيم».

وبعد جلستين أمام المحكمة، شهدت خلالهما مرافعة المحامي عن المتهمين أحمد ناجي وطارق الطاهر، مرافعة مجيدة عن حرية الرأي والتعبير، والإحالة إلى كتب عدة من التراث العربي والإسلامي، حملت عبارات لا تحتمل التأويل بها ما اعتبرته النيابة «خادشًا للحياء» و«صادمًا للمجتمع»، في حين أن هذه النصوص كلها وغيرها، منها ما يَرِد في كتب التفسير والفقه والأحاديث القديمة، قضت المحكمة، برئاسة المستشار إيهاب الراهب، ببراءة الكاتب والروائي المصري أحمد ناجي من تهمة خدش الحياء العام، ورئيس تحرير صحيفة «أخبار الأدب» طارق الطاهر من تهمة التقصير في مهام عمله ورفض الدعوى المقامة. وكان دفاع المتهمين قد استند، أيضًا، إلى شهادات كل من الكاتب والروائي صنع الله إبراهيم، والكاتب المسرحي محمد سلماوي.

حيثيات البراءة «الأولى»

جاءت حيثيات حكم محكمة أول درجة ببراءة أحمد ناجي، وثيقة مشرفة وتاريخية دفاعًا عن حرية الرأي والتعبير، والرجوع الذكي إلى سياق الثقافة العربية والإسلامية، قديمًا وحديثًا، وقدمت هيئة المحكمة ما يشبه القراءة النقدية العميقة لهذه القضية وأشباهها، التي تُثار بين الحين والآخر، واستندت المحكمة في حيثياتها إلى نص المادة ٦٧ من الدستور، وبنت عليه ما يلي:

«ولما كانت المادة ٦٧ قد نصت على (حرية الإبداع الفني والأدبي مكفولة، وتلتزم الدولة بالنهوض بالفنون والآداب ورعاية المبدعين وحماية إبداعاتهم، وتوفير وسائل التشجيع اللازمة لذلك. ولا يجوز رفع أو تحريك الدعاوى لوقف أو مصادرة الأعمال الفنية والأدبية

والفكرية أو ضد مبدعيها إلا عن طريق النيابة العامة، ولا توقع عقوبة سالبة للحرية في الجرائم التي تُرتكب بسبب علانية المنتج الفني أو الأدبي أو الفكري)..

وحيث إنه من المقرَّر أن حرية التعبير وتفاعُل الآراء التي تتوالد عنها لا يجوز تقييدها بأغلال تعوق ممارساتها، سواء من ناحية فرض قيود مسبقة على نشرها، أو من ناحية العقوبة اللاحقة التي تتوخَّى قمعها، بل تكون للمواطن الحرية أن يتنقَّل بينها يأخذ منها ما يأخذ ويلفظ منها ما يلفظ دون أن يوضع له إطار أو قالب يحد من تكوين أفكاره ومعتقداته، كما أن طرح الأفكار والآراء والمعتقدات علانية يجعلها مجالًا للبحث والتقييم من جانب المختصين بل والمجتمع أجمع فيأخذ منها الصالح ويطرح الطالح.

كما أن العمل الأدبي هو كيان واحد إذا انقطع منه جزء انهار ذلك العمل، كما أن المحكمة ترى أن تقييم الألفاظ والعبارات الخادشة للحياء أمر يصعب وضع معيار ثابت له، فما يراه الإنسان البسيط خدشًا للحياء يراه الإنسان المثقف أو المختص غير ذلك، وما يراه صاحب الفكر المتشدد خدشًا للحياء لا يراه صاحب الفكر المستنير كذلك.

وكذلك ما يطرح في مجالات البحث العلمي في الطب مثلًا، يكون بالنسبة للغير خدشًا للحياء، إلا أنه لا يكون كذلك بالنسبة للأطباء، مثلًا، فإن العبرة في عقلية المتلقي وتقديره للأمور. فالعبارات التي حوت تلك القصة محل الاتهام ارتأت النيابة العامة أنها تخدش الحياء لم يرتئها الأدباء والروائيون خدشًا للحياء، ما دامت في سياق ومضمون عمل أدبي فني.

إذًا، فإن المعيار في ذلك يختلف من شخص إلى آخر حسبًا لثقافته

وأفكاره وتعليمه، فما أتاه العلماء والمثقفون قديمًا من أفكار وآراء واجتهادات كانت محل رفض ونقد لهم من مجتمعاتهم آنذاك أصبحت اليوم من الثوابت العلمية والإبداعات الادبية التي تُثري مجتمعنا.

ولما كان ذلك الأمر الذي ترى معه المحكمة انتفاء القصد الجنائي الخاص لدى المتهمَين عن قصدهما بخدش الحياء ونشر الرذيلة، ولما كان المستقر عليه قانونًا وفي قضاء محكمة النقض أن الأحكام الجنائية تُبنى على الجزم واليقين لا على الشك والتخمين، وأن تشكُّك القاضي في صحة الإسناد كفيل بالقضاء ببراءة المتهم، الأمر الذي تقضي معه المحكمة، والحال كذلك، ببراءة المتهمَين ممَّا نُسب إليهما من اتهام ورفض جميع الدعاوى المدنية المقامة وإلزام رافعيها المصاريف..

لهذه الأسباب، حكمت المحكمة ببراءة المتهمَين ممَّا نُسب إليهما من اتهام ورفض الدعاوى المدنية وإلزام رافعيها بالمصاريف أتعاب محاماة».

حكم «نهائي» واجب النفاذ

لم تقنع النيابة بانتهاء القضية عند هذا الحد، فقررت الاستئناف على حكم المحكمة الصادر ببراءة أحمد ناجي وطارق الطاهر، وصدر حكم محكمة الاستئناف يوم السبت ٢٠ فبراير، بحبس الأول سنتين، وتغريم الثاني ١٠ آلاف جنيه، وتم ترحيل الكاتب مقيدًا في الأغلال إلى أحد السجون لتنفيذ الحكم.

أصداء الحكم.. وشهادة قاضٍ مثقف

أصداء واسعة للحكم الصادر بحبس أحمد ناجي، دُشنت هاشتاجات

كثيرة على صفحات التواصل الاجتماعي لإعلان التضامن مع الكاتب ورفض حبسه، بيانات بالعشرات من كُتَّاب ومثقفين ودور نشر وجمعيات حقوقية ترفض الحكم وتعلن التضامن مع الكاتب، دعوات لإعداد مؤتمرات ولقاءات حاشدة، فضلًا عن مجموعة من الإجراءات اتخذتها نقابة الصحفيين المصريين، واتحاد الناشرين، اللذين بادرا فور صدور الحكم بإصدار بيانين رافضين للحكم وتداعياته من حبس الكاتب وتنفيذه حكمًا سالبًا للحريات بالمخالفة للدستور والقانون.

المستشار أشرف العشماوي، نائب رئيس محكمة استئناف، مساعد وزير العدالة الانتقالية الأسبق، الكاتب الروائي أيضًا، أدلى بشهادة مهمة للغاية، أعلن خلالها كامل تضامنه مع الكاتب المحبوس، وكتب على صفحته الشخصية على «فيس بوك» يقول:

«في مرحلة من حياتي العملية كنت معنيًّا بالتحقيق في مثل هذه النوعية من الجرائم التي تخص الكتاب والمفكرين، وكانت التهم وقتها هي ازدراء الدين وتحقيره أو نشر دعايات مثيرة وأمور كاذبة أو خدش الحياء العام والإضرار بالآداب العامة! وهي كما ترى عبارات مطاطة عامة.. ولأنني أدركت هذا منذ البداية وعرفت أن بعضها يهدف إلى التجريس أو امتصاص مشاعر غاضبة لا تستند إلى فكر يعينها، فقد نجحت في حفظ أكثر من أربعين بلاغًا على مدار سنوات طويلة لأسماء كان بعضها شهيرًا في وقته أو في زمن فات».

وتابع «العشماوي» شهادته المهمة: «ما لا تدركه الغالبية منا جيدًا أن القارئ في مصر لا يحتاج إلى وصاية من جهة رسمية ولا يثق إلا بمن يختاره ويلجأ إليه طواعية إذا ما تشكك، ليستنير برأيه وليس

ليجعله وصيًّا عليه، وأغلب الكتب والمطبوعات تعتمد على الذائقة الشخصية ولا تحتاج إلى وسيط.

أما موضوع خدش الحياء العام والإضرار بالآداب العامة فساعة واحدة أمام بعض الفضائيات كفيلة بهتك عرض كل أخلاقياتك ومبادئك وكافية لإصابتك بدهشة تعقبها حيرة لتدخل بعدها في اكتئاب، ولو فكرت في أن تشكوهم مثلما فعل المواطن الشريف الذي جُرحت مشاعره الرقيقة بسبب نشر فصل من رواية حتى أدمتها، فلن تسمع مجيبًا للأسف الشديد».

مرافعة «الشهوة الفانية»!

في ذلك الوقت، وقبل صدور الحكم النهائي بحبس الكاتب وتغريم الناشر، كان انفعالي بالقضية غاضبًا وحزينًا؛ ذلك أن الضجة التي أثارتها حيثيات النيابة على لسان ممثلها، والتي اشتهرت في الشارع الثقافي بحيثيات «الشهوة الفانية»، قد أعادت إلى الأذهان تاريخًا مؤسفًا ومحبطًا من المنع والمصادرة وتقييد الحريات والنشر والإبداع، كما استدعت قضايا ووقائع كثيرة مشابهة، في السياق الثقافي المصري والعربي المعاصر.

وهكذا يمكن اعتبار القضية فصلًا جديدًا من معركة الحريات والتعبير عن الرأي، التي تعود فصولها الأولى إلى قضيتي «في الشعر الجاهلي» لـ«طه حسين»، و«الإسلام وأصول الحكم» لـ«علي عبد الرازق» في عشرينات القرن الماضي، مرورًا بأزمات «الفن القصصي في القرآن الكريم» لـ«محمد أحمد خلف الله»، و«من هنا نبدأ» لـ«خالد محمد خالد»، و«أولاد حارتنا» لـ«نجيب محفوظ»، و«مفهوم النص.. دراسة

في علوم القرآن» و«الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية» لـ«نصر أبو زيد»، وطبعًا «ألف ليلة وليلة» طوال الوقت! ولن تنتهي مع رواية أحمد ناجي «استخدام الحياة»، التي اشتعلت وثارت بسبب أسطر رفعت ضغط السيد المحترم الذي تقدَّم بالبلاغ!

ليس جديدًا أن تشهد مصر قضايا من هذا النوع «التافه»، تقف خلفها عقليات جامدة ومتحجِّرة، لا علاقة لها بسيرورة زمن أو حركة تاريخ أو قانون تطور، أبدًا، وتاريخنا المعاصر يزخر بأمثال هذه الاتهامات والمواجهات بين أصحاب الكلمة وبين من يعتقدون أنهم دعاة الفضيلة حماة الأخلاق.

وأيًّا ما كان اتفاقنا أو اختلافنا مع المكتوب، قبولًا ورفضًا، فبالتأكيد، أو من المفترض أن يكون كذلك، أننا قد وصلنا ـ أو من المفترض أن نكون قد وصلنا ـ إلى مرحلة من التطور العقلي والرقي الإنساني تسمح لنا بمناقشة اختلافاتنا مهما كانت بعيدًا عن أروقة المحاكم وساحات القضاء!

أما ما أدهشني وأثار استغرابي وحُزني، حقيقةً، فهو قرار الإحالة إلى المحاكمة الذي تفضَّل بكتابته السيد وكيل النائب العام المنوط به التحقيق في القضية، لم أصدق ما قرأت؛ فحيثيات الاتهام واللغة المكتوب بها تُظهران إلى أي مدى وصلنا إلى قاع القاع!

تكشف المسافة بين تحقيق النيابة الذي أجراه وكيل النائب العام محمد نور مع طه حسين في قضية الشعر الجاهلي عام ١٩٢٧م وقرار الإحالة الذي أجراه السيد وكيل النائب العام عام ٢٠١٥م عن مدى ما وصلنا إليه على كل المستويات!

وشتان ما بين ثقافة رفيعة، ورؤى مستنيرة، وحجاج منطقي عقلاني، وتفهُّم لطبيعة النصوص المكتوبة ومحتواها، حملها قرار محمد نور عام ١٩٢٧م، الذي انتهى إلى «حفظ التحقيق إداريًّا» مع طه حسين، وبين انغلاق فكري كامل، ولغة باهتة ركيكة تفتقر إلى الوضوح واللياقة، فضلًا عن نصوع الصياغة وسلاسة التعبير؛ مجرد تعبيرات إنشائية خطابية جوفاء، لا تحمل فكرًا أو مضمونًا أو رؤية، وتدل دلالة قاطعة على المستوى الثقافي الضحل الذي حمله قرار الإحالة الثاني في ٢٠١٥م[1]!

لا الاتهام في ذاته أدهشني، ولا رفع راية الوصاية الأبوية على أفراد المجتمع، لكن ما أدهشني، حقيقةً، هو «اللغة، الصياغة، مفردات التعبير» التي كُتب بها قرار الإحالة، لغة تبين عن حالة عامة وصلنا إليها، وعن تكوين ثقافي وفكري أضحى سائدًا ومسيطرًا، وعن «رؤية للعالم» تكشف عن أن الدودة في أصل الشجرة، كما يقولون..

فَكُلٌّ يظن أنه مهيَّأٌ ليمارِس دور الوصاية والسلطة والمنع والحجر، بحسب ما تيسَّر له من قوة وجبروت، وحتى إن توسَّل بسلاح لم يكُن له أن يستخدمه، التجأ إلى اللغة وإلى التعبير بها، ظنًّا منه أنه يكفيه أن يكون أحد رجالات السلطة فتخضع له ويبسط عليها ومنها وخلالها هيمنته وسطوته!

لكن هيهات؛ فاللغة خوَّانة وخدَّاعة، مراوِغة وماكِرة، كاشفة وفاضحة، لا يستطيع أن يتلاعب بها أحد، وتتلاعب هي بالجميع إن أرادت، اللغة كاشفة عن أنماط التفكير والثقافة وطرائق التحليل

(١) لن نعدم أمثلة أخرى نقيضة على طول الخط، لحيثيات أحكام كتبها قضاة مستنيرون في قضايا مماثلة، ومن ينسى الحكم الذي أصدره القاضي سيد محمود يوسف برفض مصادرة «ألف ليلة وليلة»، قبل عدة سنوات؟!

ومنظور الرؤية.. أشياء كثيرة تبديها اللغة وتكشف عنها وتواريها أيضًا كما سطح البحر الشفاف، الرائق، كاسر الضوء والأشعة، تومئ ولا تصرح، إن أرادت، وتلمِّح ولا تعلن، وتواري حيث أرادت، وتفج فجاجة وقتما تشاء.. إنها اللغة التي تتجسد بها ومن خلالها الأفكار والأشياء والتصورات، ورحم اللـه الإمام ابن قتيبة الدينوري (المتوفى ٢٧٦هـ) الذي قال في مقدمة كتابه الشهير «عيون الأخبار»:

«سينتهي بك كتابُنا هذا إلى بابِ المزاح والفكاهة وما رُوي عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مرَّ بك، أيها المتزمِّت، حديثٌ تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أَرَدنا به، واعلم أنك إن كنتَ مستغنيًا عنه بتنسُّكِك فإن غيرك ممن يترخَّص فيما تشدَّدت فيه مُحتاجٌ إليه، وإنَّ الكتاب لم يُعمل لك دون غيرك فيُهيَّأ على ظاهرِ محبتك، ولو وقع فيه تَوقِّي المتزمتين لذهبَ شَطرُ بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك.

وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين، وإذا مرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تُصعِّر خدَّك وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب».

أما الأخ الذي انخدش حياؤه، وارتفع ضغطه، وكاد يُغمى عليه كما صرَّح، من قراءة أسطر في فصل في رواية، ارتأى أنها جرحت أخلاقه الكريمة، وخدشت حياءه الخفر، فإني أسأله: وماذا أنت فاعل إذا وقعت عيناك على صفحات بأكملها في كتب التراث العربي الشهيرة، ومنها مجلدات ضخمة في الفقه والتفسير والحديث؟!

. ماذا سيحل بك إذا قرأت فصل «عائشة بنت طلحة» مثلًا في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، أو قرأت كتاب ابن قتيبة الدينوري «عيون الأخبار»، أو طالعت كتب الجاحظ ورسائله وموسوعته الكبرى «الحيوان»؟!

ويل لك إذن من قراءة حكاية «الحمال والثلاث بنات» في «ألف ليلة وليلة»، لو قرأتها في طبعة غير منقَّحة، وويل لك ألف مرة إذا قرأت الأبواب التي خصصها شهاب الدين أحمد النويري في موسوعته الضخمة «نهاية الأرب في فنون الأدب» لنوادر الزناة والزواني!! الأمر نفسه فعله الوزير سعد الدين ابن منصور الآبي في موسوعته «نثر الدر»، و«الكشكول» لبهاء الدين العاملي..

هل أخبرك بالمزيد وعن المزيد في تراثنا الأدبي (ولم أتطرق حتى الآن لأيٍّ من كتب الفقه والتفسير والحديث والسيرة والمرويات التاريخية!)، أم ستسقط من بين أيدينا مصابًا بسكتة أخلاقية وجلطة من الخدش المتكرر والحياء المهدور؟!

وما زال هناك ـ وسيظل ـ من يتصيَّد نصًّا هنا أو أسطرًا هناك، بغرضٍ أو بمرض، كي ينالَ بعض الشهرة، أو يزايد على ما لا يحتاج ولا يقبل المزايدة أو يتوافر على قضية يرتبط بها اسمه فيبدو في نظر مشايعيه بطلًا مدافعًا عن الأخلاق والدين والمجتمع والبشرية بأسرها.

لكن هؤلاء يغفلون، وربما يتغافلون، أن كلَّ ما يجنونه من وراء هذا هو ما يندرج تحت باب «الدعاية السلبية المضادة» التي تلعب دورها الفعَّال في انتشار النصوص التي تقع تحت طائلة المنع أو المصادرة من قِبَل أي جهة دينية أصولية، أو ما تنتقده أي جماعات أو تيارات إسلامية أو مسيحية متطرِّفة في أحد النصوص الروائية، تبقى هذه الدعاية المضادة

سببًا جوهريًّا لذيوع التداول «شبه السري» والأكيد لهذه الأعمال، فكل ما يتعرَّض للمنع يقع عند القارئ في شرك الفضول الذي يستدعي الحصول عليه بكل الطرق لعبًا على حقيقة أنَّ «كل ممنوع مرغوب» رغم أنف الجميع!

الباب الثالث

في النقد!

كلام عن النقد والنقاد!

لو أنك سألت أي مشتغل بالكتابة الإبداعية عن أزمته الحقيقية مع النقد، سيجيبك وهو مغمض العينين مرتاح البال والضمير: لا يوجد نقد.. لا يوجد نقاد، النقد غائب.. وربما كانت هذه الإجابة هي التي تتردد بنصها وحرفها ومعناها منذ عقود بعيدة، وهي مظهر لإشكالية مزمنة أظنها ستظل قائمة بصورة أو بأخرى ما ظل هذا الطوفان الذي لا يتوقَّف من الكتابات التي تظهر كل يوم وتضع على غلافها الخارجي كلمة «رواية» أو «قصة» أو «شعر»... إلخ.

البعض يلخِّص الأزمة في خلوِّ الساحة النقدية من متابعة جادة ودؤوب للأعمال الأدبية التي يكاد لا ينقطع تدفقها ولا ظهورها (رواية وقصة قصيرة وشعر)، في حين ما زال هناك من يرى أن هناك نقادًا يضطلعون بدورهم الأصيل في متابعة الأعمال الإبداعية وممارسة دورهم المنوط بهم من الكشف عن جماليات الأعمال الأدبية وإلقاء الضوء عليها والتحريض على متعة تلقيها وإتاحتها لأكبر قدر ممكن من متذوقي الأدب ومتابعيه ومحبيه.

والحقيقة أن هذه الأزمة/ الإشكالية تفاقمت في السنوات العشر الأخيرة، وربما قبلها بزمنٍ أيضًا، مع التحولات المذهلة التي شهدها واقعنا المعاصر، المسألة لم تعُد فقط كمًّا من المستحيل تتبُّعه ورصده

حرفيًّا، بل صار لها جوانب وأبعاد متشابكة ومعقدة، فليس هناك سوق واحدة أو مجال واحد يضم كل الكتابات الإبداعية التي يتحقق لها الحد الأدنى من شرط الفن وتحقق الإبداع، وليس هناكِ اتفاق أيضًا على مفهوم حقيقي للنقد كما كان يعرِّفه أساتذتنا الكبار، كتابًا ومبدعين ونقادًا أيضًا.

فالنقد في نظر البعض يعني الإشادة والثناء بالعمل المنقود، والبعض الآخر يعتبر النقد جواز مرور العمل إلى الأضواء والشهرة والجوائز! بينما يعتبره فريق ثالث مجرد مجاملة بمنطق «شيّلني وأشيّلك، واللي هتكتبه النهارده هيترد لك بكرة!».

لكني، في الحقيقة، أستشعر في أحيان كثيرة، أن النقد إن لم يكُن إبداعًا ولا فنًّا، فهو على الأقل لون من الكتابة الدقيقة التي تكشف هي الأخرى عن موهبة وحساسية إبداعية حقيقية. فالناقد الأكاديمي يملك علماً حقيقيًّا، حصَّله بدراساته وبوقوفه الطويل أمام نصوص الأدب، لكنه لكي يصل إلى القُرَّاء ويؤثر فيهم، يجب أن يُخْفِي هذه المعرفة لا أن يستعرضها كما يحدث في كثير من الأحيان.

والكاتب الجائع للشهرة، سواء أكان شابًّا أم شيخًا أم متوسطًا في السن، لا يتوقَّع من الناقد إلا أن يقوم بتسويق أعماله، والكاتب الجائع للشهرة لا يعرف معنى النقد، ومن ثَمَّ فهو في الحقيقة لا يُكنُّ له أي احترام مهما حاول أن يتملَّق الناقد أو يهادنه أو يغريه بالكتابة عنه. مثل هذا الكاتب يكون أكثر صدقًا مع نفسه عندما يردد هذه الجملة التي لا معنى لها: «إن الناقد كاتب فاشل»، ورحم الله أستاذنا شكري عياد حينما قال:

«وللنقد أشواك: أقلُّها إيذاء أن المنقود لن يرضى عنك أبدًا. وإعجاب

الإنسان بشعره (أو كتابته) وبولده ضعفٌ بشري لاحظه الجاحظ من قديم. فكيف يمكن أن يرضى عنك وأنت تنظر إلى هذا الشعر أو الكتابة بعين غير عينه؟».

(من مقاله «أشواك النقد» المنشور بكتابه «على هامش النقد»).

البعض يحكم علاقته بالنقد والنقاد بمدى قربه أو بعده عن الاتصال بهذا الناقد أو ذاك؛ فمن رآني وكتب عني وعن نصوصي فهو «الناقد» بألف لام التعريف! ومن لم يكتب بعد أو يتناول نصوصي فهو «الناقد الغائب»، «الناقد الكسول»، «الناقد المتقاعس»... إلخ الأوصاف التي تتردد في هذا المجال دون تغيير أو إبداع!

الغريب أن بعض هؤلاء الكُتَّاب الذين يمارسون الكتابة الإبداعية، ممن لا يكفون عن الصراخ وإلقاء الاتهامات يمينًا ويسارًا يتوقفون تمامًا عن هذا الصخب والضجيج المزعج بمجرد أن يكتب أحدهم (خاصة من الأسماء المعروفة) مقالًا عن كتابٍ من كتبه، أو رواية من رواياته. حينها يتحوَّل هذا الناقد السلطوي أو الناقد الممالئ أو الناقد «المتناقد» (بحسب ما سمعت من أحدهم! ولا أعلم ماذا يقصد حتى الآن!) إلى الناقد الكبير والمرجعي والمهم والقدير... إلخ، وفورًا يتم إسدال الستار على كل ما تم اتهامه به من قبل أو الهجوم عليه سابقًا!

(لا تنسَ - عزيزي القارئ - مرة أخرى أن وصف المعروفة أو المشهورة هذا يحدده، إلى مدى بعيد، مدى قرب هذا الناقد من المؤسسة الثقافية الرسمية!).

والله رأيتُ هذا بعيني، وشهدته مرارًا، قبل أن يكتب أحدهم (ناقد أو من وُصف بهذا الوصف) عن نص كاتب من الكُتَّاب، قال فيه هذا

الكاتب عن هذا الناقد ما قاله «مالك» في الخمر! وبعد أن يكتب الناقد (إذا كتب) يُنعَت بكل الأوصاف التي تضاد بل تناقض ما قاله عنه الكاتب صاحب «النص المنقود» قبل ذلك! وهذه من عجائب الكتابة والكُتَّاب في زمننا هذا؛ الشيء ونقيضه، الفعل وعكسه، ولا بأس أن يتم هذا كله قبل الحصول على جوائز، وبعده أيضًا!

لا يعني هذا أن الذين يشتغلون بالنقد أو يمارسونه أو يتصلون به (ولو من بعيد) مغبونون مظلومون مفترى عليهم ولا حول لهم ولا قوة! ليس صحيحًا، فالشكوى أغلب على سلوكهم من شغلهم والندب على ما كان وما هو واقع صار لسان حال الأغلبية من النقاد (الذين يعتبرهم البعض غير موجودين بالأساس)، أما الكسل فهو السمة الغالبة، وإني لأتعجب عندما أعرف أن فلانًا يشتغل بالنقد أو يزعم أن له صلةً ما به، وآخر نص قرأه واشتغل عليه يعود إلى جيل الستينات، وربما قبل هذا!

في ظني، أن الذين يشتغلون بحرفة النقد أو يمارسون الكتابة النقدية غالبًا تكون نسبة كبيرة منهم ممن درسوا النقد في الجامعة ولهم اتصال بالحياة الأكاديمية، تدريسًا وكتابة، وهؤلاء ليسوا خليطًا واحدًا، بل يمكن تقسيمهم شكليًّا إلى ثلاث فئات:

الأولى: ما تبقَّى من جيل الأساتذة والنقاد الكبار المحترفين، وهؤلاء عددهم قليل جدًّا تجاوزوا الستين أو السبعين واكتسبوا شهرة عريضة وصاروا سلطة نقدية حقيقية مؤثرة؛ وإن كان هذا التأثير لا يتجاوز حدود النخب ولا يجاوز خطوط المجال الضيق والدوائر الأضيق التي تضم ما اصطُلح على تسميته «نخبة الكتاب والمثقفين»، وهؤلاء النقاد فقدوا أهم خاصية كانت تميِّز الجيل أو الأجيال الأسبق

منهم، وهي «التواصل الجماهيري»، و«التأثير الجماهيري»، الذي كان متحققًا لـ«لويس عوض» مثلًا، أو «محمد مندور»، أو «شكري عياد»، أو «رجاء النقاش».

الفئة الثانية: جيل الوسط، أو ما يسمى جيل الوسط من النقاد، وهم التلاميذ المباشرون للفئة الأولى، ومنهم نقاد حقيقيون وجادون ويمارسون فعل الكتابة النقدية بإبداع حقيقي، لكن تأثيرهم محدود بحدود الدوائر التي يتعاملون في إطارها والمنافذ التي تُتاح لهم كتابة ونشرًا، وهم في العموم «قلة»، أما غالبية هذه الفئة فشكواهم تسبق إنتاجهم، وضجيجهم مزعج والنقد الذي يمكن أن يوجَّه لهم أكبر بكثير جدًّا من النقد الذي يمكن أن يصدر عنهم!

وأخيرا: الفئة الثالثة، وهم الذين لم يتجاوزوا الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم، اكتسبوا اسم أو لقب «ناقد» بالقوة لا بالفعل، بمعنى أنهم هم الذين قرروا اكتساب هذه الصفة بالاقتحام لا بالتكوين الجاد العميق، وبالدعاية والإعلان لا بالفهم والاستيعاب، وبالعلاقات العامة والاتصال بدوائر المؤسسة أكثر من المجهود الحقيقي الذي ينبغي أن يُبذل في قراءة النصوص وتأملها وتذوقها أولًا ثم نقدها ثانيًا!

«نماذج بشرية»

محمد مندور.. نجومية النقد والناقد

إذن، وكما ذكرنا، يشتكي المبدعون مُرَّ الشكوى، وهم مُحِقُّون، خفوت النشاط النقدي أو غيابه وعدم مواكبته طوفان الكتابات الإبداعية الذي نشهده في الرواية والقصة وأشكال الإبداع المختلفة، في الوقت الذي تتدفَّق فيه الروايات (بغثِّها، وهو الكثير، وسمينِها، وهو الأقل بطبيعة الحال) لا تواكب الكتابة النقدية هذا التدفق بالمتابعة والتحليل والفرز.

أزمة النقد، التي باتت على رأس الموضوعات المطروحة للنقاش والجدل خلال العقود الأخيرة، تتجلَّى أشد ملامحها ظهورًا في غياب الكتابة النقدية العميقة والبسيطة في آنٍ، وليس هنا مجال التعرُّض لملامح هذه الأزمة وأعراضها، أسبابها ومسبباتها، فلذلك حديث آخر.. لكن من دون شك، فإن في فترة ما من تاريخنا المعاصر، كانت الحياة الأدبية تزخر بالنقاد الكبار الذين كانوا يملؤون الدنيا ويشغلون الناس.

ولا أظن أن أحدًا يختلف حول أن أبرز الأسماء النقدية التي سطعت في سماء الحياة الفكرية والإبداعية في منتصف القرن العشرين كان اسم محمد مندور (١٩٠٧_ ١٩٦٥م) الذي أُطلق عليه «شيخ النقاد».

وإلى الآن، ومع كل مناسبة تتصل بـ«مندور» (ميلاده أو وفاته)

تستعيد الحركة الثقافية، بمرارة وأسى وشجن، ذلك المنجز الضخم، الباهر، الذي تركه محمد مندور على الرغم من حياته القصيرة (توفي عن ٥٨ عامًا)، فهو الناقد اللامع، الناقد الجماهيري، الذي انخرط بكليته في النشاط الأدبي والسياسي والثقافي وغاص حتى النخاع في المشاركة الفعَّالة في هذه الحياة الزاخرة المضطربة، فترك كتبًا ومقالات وترجمات ما زلنا حتى اللحظة ننهل منها ونعود إليها ونتعجَّب من هذه القدرة العظيمة على الكتابة والإنتاج والمتابعة الدؤوب لكل ألوان النشاط الإبداعي والظواهر الثقافية خلال تلك الفترة.

أول كتاب وقع تحت يدي لـ«مندور»: «في الأدب والنقد»، كتاب صغير صادر عن دار نهضة مصر، قرأته قبل دخولي الجامعة، كان كتابًا بسيطًا وسهلًا يعرض لبعض القضايا العامة والمفاهيم المتصلة بالأدب والنقد، ويقدِّم معرفة أولية شائقة للمقبل على الدراسة الأدبية، لكنه لم يكُن الكتاب الذي يربطني بصلة قوية بصاحبه أو يجعلني مهتمًّا بتتبُّع باقي مؤلَّفاته.

لكن الأمر تغيَّر تمامًا مع قراءتي كتاب «نماذج بشرية»، الذي صدرت طبعة منه في مكتبة الأسرة عام ١٩٩٦م، وكتب له مقدمة طويلة الناقد الراحل رجاء النقاش، كنت ألتهم السطور والفصول التهامًا، لا أكترث لشيء أو أهتم لأمر سوى ما حملته فصول الكتاب من متعة لا تدانيها متعة، هل النقد جميل وممتع هكذا؟ لماذا إذن يتهمونه بالصعوبة والبعد عن الناس؟ إن كان النقدُ هكذا فأهلًا به وألف مرحب، هذه كتابة جميلة عن نصوص جميلة وشخصيات أجمل وأروع، خلقها كُتَّابها الخالدون على الورق فاستمدُّوا من عظمة هؤلاء الكُتَّاب خلودًا مماثلًا وروعة متجددة وحياة باقية، لم أكُن أتخيَّل للحظة وأنا أقرأ عن شخصية الثائر

الصغير «جفروش» في رائعة فيكتور هوجو «البؤساء» أنني سأبكي كل هذا البكاء وأتأثر كل هذا التأثر ويبلغ مني الحزن مبلغ الاكتئاب والانزواء كأن هذا الـ«جفروش» من لحم ودم تربطني به أواصر القربى والنسب.

كان «نماذج بشرية» فتحًا عظيمًا وهائلًا على روائع الأدب العالمي ونصوصه الكبرى، انفتحت الشهية على مصراعيها لقراءة كل النصوص التي أوردها محمد مندور في كتابه: «البؤساء» و«دون كيشوت» و«فاوست» و«هاملت» و«الكوميديا الإلهية» و«روبنسون كروزو» و«الملك لير» وغيرها من النصوص العظيمة.

ما هذا بناقد، إنه ساحر يمتلك المقدرة على سحبك سحبًا لمتابعة كل كلمة وحرف يكتبه، لا تعقيد أو غموض أو إلغاز، كتابة واضحة وسهلة وناصعة وبسيطة، تحمل من الوضوح قدر ما تحمل من الأفكار والمعلومات والتحليل، وبقدر سلاستها وانسيابيتها كان الكم الهائل من الرؤى والنقدات النافذة التي تحتويها الفصول. خرجتُ من قراءة الكتاب وأنا مبهور الأنفاس لا أكاد أصدق أن هناك جمالًا كهذا ومتعةً كتلك.

وكان هذا الكتاب عقد اتفاق بيني وبين «مندور» لم ينقطع، ولن ينقطع. أبحث عن كل ما كتب وأستقصي إنتاجه الغزير، للمتعة وحدها ولا شيء آخر، إلى أن قُدِّر لي الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وهي التي تخرَّج فيها «مندور» وصار عَلَمًا من أعلامها الكبار، فاجتمعت المتعة بالدراسة، وقرأتُ هذه المرة أعماله الكبرى: «النقد المنهجي عند العرب» و«النقد والنقاد المعاصرون» و«مفهوم الشعر» وترجماته، خاصةً «منهج البحث في اللغة والأدب» لرائد المنهج التاريخي الفرنسي جوستاف لانسون، الذي هيمن لفترة طويلة على وعي كثيرٍ من النقاد ودارسي

الأدب، ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي أيضًا.

وطوال السنوات الأربع، تكشَّفت لي، شيئًا فشيئًا، جوانب العظمة «المندورية»، والقدرة الهائلة على التأليف والكتابة في مجالات متعددة ومنها النقد. ولاحظت أيضًا، خلال هذه الفترة، مدى الاحترام الذي يحظى به «مندور» في نفوس تلاميذه وتلاميذهم من بعد، من الأساتذة الكبار، وتتبعت أيضًا ما كتبوه عنه، وهو كثير غزير، يعالج كل منهم وجهًا من وجوه «مندور»، في الدراسة الأدبية والنقدية، وفي الفكر السياسي والاجتماعي، وفي الفنون والصحافة، وحتى القانون.

ولما قرأتُ سيرة «مندور» وتعرَّفتُ إلى جوانب من حياته تعجبتُ واندهشتُ من هذه السيرة التي لا تخلو من خوارق ومعجزات، كيف يتأتَّى لإنسان مهما أوتي من قدرة وذكاء أن يجمع بين دراسة ثلاثة علوم مختلفة ويتفوَّق فيها جميعًا في الآن ذاته! كان يدرس اللغة العربية وآدابها في الوقت الذي كان يدرس فيه أيضًا علم الاجتماع في كلية الآداب، ويجمع بينهما وبين دراسة القانون! ويتخرج في الكليتين ويحوز شهادة الليسانس في القانون والآداب بامتياز.

لا أذكر عدد المرات التي قرأتُ فيها ما حكاه «مندور» على لسانه لـ«فؤاد دوارة» في كتابه القيم «عشرة أدباء يتحدثون»، وكذلك في كتاب فؤاد دوارة الآخر عن «مندور» وضمنه الحوار المطول الذي أجراه معه حول حياته، كنت كلما اشتدَّت عليَّ الأزمات وانغلقت الأبواب وتكاثرت المنغصات، عدتُ إلى هذه السيرة فأنشط بعد فتور وأمتلئ حماسًا وطاقةً لمواجهة المصاعب، إذا كان هناك إنسان بهذه القدرة والإرادة فالأمل قائم والإنجاز ممكن وبلوغ الهدف ليس مستحيلًا!

أعـود إلى «منـدور»، الناقد الجماهـيري، الذي عـلا نجمه خلال

الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، ووصل إلى ذروة الشهرة والانتشار في الستينات حتى وفاته سنة ١٩٦٥م. ثلاثة عقود تقريبًا من النشاط المذهل والكتابة المتدفقة والمتابعة التي تكاد تصل إلى التحرِّي الدقيق عن الأعمال الأدبية؛ في المسرح والقصة والرواية والشعر، كان «منـدور» ناقد هذه الفترة بامتياز، يكتب في الصحف ويؤلف الكتب ويلقي المحاضرات، ويشتبك في معارك أدبية ونقدية لا تنتهي مع أعلام كبار كان سن قلم أحدهم يكفي وحده لإسكات أي مغامر ارتأى في نفسه القدرة على المناكفة والاختلاف!

لماذا كان «مندور» ناقدًا عظيمًا؟ وكيف تحقق للنقد على يديه كل هذه الجماهيرية والانتشار والمقروئية في زمنه؟

بحثتُ طويلًا عن إجابة هذين السؤالين وكان الجواب حاضرًا ظاهرًا من دون فذلكة ولا يحزنون. كان «مندور» يمارس النقد كنشاط إبداعي إنساني، غير معزول عن الناس ولا المجتمع، كان يستثمر ثقافته الزاخرة ومعارفه الواسعة وإلمامه الذي لا ينقطع بنظريات النقد وأصوله واتجاهاته استثمارًا منتجًا، لم يكُن معنيًّا في كثير أو قليل باستعراض عضلاته النظرية أو التحميل على القارئ بحشد من المفاهيم والمصطلحات والتراكيب الصعبة، كان يجعل كل هذا في الخلفية، وتظهر آثاره وأعراضه في معالجاته للنصوص وتحليلاته لها، كان يدخل إلى الموضوع ولا ينشغل بما حوله؛ لهذا فقد كان نقده طازجًا منعشًا عفيًّا، محببًا إلى النفس، حتى لو اختلفت مع رأي أعلنه أو تفسير طرحه، كل هذا جميل ومقبول، لكن في النهاية تبقى مقالاته النقدية محتفظة برونقها تجمع بين الحُسنيين؛ البساطة والعمق، سلاسة العرض وتماسك التفسير، وضوح اللغة والتمسك بالمنهجية والأصول النقدية، لم يكُن يهدر شيئًا لحساب آخر، ولهذا فإن الدكتور

«مندور» عندما يكتب مقالًا عن كاتب شاب أو نص جديد كان ذلك بمثابة إعلان صريح عن مولد كاتب موهوب سيحظى بالرعاية والاهتمام وستلتفت إليه الأنظار بعد ما كتبه «مندور» عنه!

صحيح ليس معنى ذلك أن كل ما كتبه قد أثبتت الأيام صدقه، ومن قال إن هذا يدخل ضمن طموح أي شخص؟! فكلنا في النهاية بشر، لكن يبقى السواد الأعظم ممَّا كتب يحتفظ بقيمته وأهميته كوثائق نقدية بالغة الأهمية، وتحتل مساحة واسعة وكبيرة من تاريخ نقدنا العربي المعاصر.

ليس هذا الفصل عن «مندور» الناقد.. هذا فصل لتحية أستاذ مفكر ومثقف كبير وناقد عملاق نبحث عن مثيله الآن.. فلا نجد إلا «فصولًا» كُتبت لكن بماء!

«علم الأسلوب.. مدخل ومبادئ»

إحياء تراث شكري عياد «النقدي»

منذ رحيل الناقد الكبير الدكتور شكري عياد (١٩٢١ـ ١٩٩٩م)، أحد أهم وأبرز الأصوات النقدية المصرية والعربية في النصف الثاني من القرن العشرين، لم تضطلع جهة رسمية أو غير رسمية، بإعادة طبع ونشر أعماله الفكرية والنقدية والتنويرية، عدا ترجماته الرصينة لروائع الأعمال الأدبية في الثقافة الغربية[١].

وحسنًا فعلت دار التنوير، بالقاهرة، باتفاقها مع أسرة المرحوم شكري عياد على إعادة طبع ونشر أعماله المؤلفة والمحققة والمترجمة، في طبعة جديدة منقحة، تأتي لتسد فراغًا كبيرًا في المكتبة العربية، استهلتها بكتابه المرجعي القيم «علم الأسلوب.. مدخل ومبادئ»، وهو عبارة عن كتابين في مجلد واحد، الأول «مدخل إلى علم الأسلوب»، والثاني «اللغة والإبداع.. مبادئ علم الأسلوب العربي».

في هذا الكتاب الجامع، يتضح السعي الدؤوب لـ«عياد» في البحث عن «الصفة» أو «العامل المهيمن» الذي يمنح العمل الأدبي «أدبيته»،

---

(١) صدرت بعض ترجماته لأعمال أدبية عن المركز القومي للترجمة.

محاولًا اكتشاف هذا العنصر الذي سماه «الأسلوب» مستخلصًا إياه من دراسة عميقة للغة وتصوراتها عند اللغويين والبلاغيين القدامى في التراث العربي، ومقارنًا إياها بالتصورات الحديثة لعلماء اللغة واللسانيات المحدثين.

وقدم «عياد» طرحًا متماسكًا ومنطقيًّا لقضايا تتعلق بالوظيفة الاجتماعية للأدب، والنوع الأدبي، ومنها ما يتصل أيضًا بما سماه «التفسير الحضاري للأدب»، لكن كل هذه القضايا والموضوعات تكاد لا تغادر المحور الرئيسي الذي بنى عليه معالجاته جميعًا، وهو «الأسلوب». ويكاد مصطلح «الأسلوب» في فكر شكري عياد النقدي يتوازى في مواضع كثيرة مع مصطلح «النوع الأدبي» في معناه العميق والأبعد، لا معناه الخارجي أو السطحي فقط، بحسب ما التفت إلى ذلك عددٌ من دارسيه.

يقول «عياد» في كتابه: «إن الأسلوب كلمة واسعة مطاطة، لكننا لا نقصد بها هنا طريقة اختيار الألفاظ وتركيب الألفاظ في الجمل، وتسلسل الجمل لتعبِّر عن الحركة اللحظية للأفكار. أو بنوع من القياس، فإن الأسلوب بالنسبة إلى الكتابة كنبض القلب بالنسبة إلى الحركات الجسمية، قد تعنف وقد تسرع وقد تبطئ ونبض القلب موجود دائمًا. يساير هذه الحركات الجسمية هدوءًا وعنفًا وسرعةً وبطئًا، ويظل له مع ذلك اطراده وانتظامه وصفاته الخاصة من قوة أو ضعف وسلامة أو مرض، فكذلك الأسلوب، تتنوع أغراض الكلامِ وفنونه، والأسلوب هناك دائمًا يساير هذه الأغراض والفنون، ويتشكَّل بالأشكال المناسبة لها».

وفي هذا يفارق «عياد» نسبيًّا المعنى الشائع لمصطلح «الأسلوب»، في

أبسط مفاهيمه، وهو قدرة المتكلم على التصرف بالتركيب العربي، حذفًا وإضمارًا وتقديمًا وتأخيرًا، وغير ذلك من ممكنات وطاقات اللغة التي تتيحها لمستخدمها في مستوياتها الأعلى من الكلام، بالإضافة إلى قدرة اللغة على التطور والتغيير واحتمال الدلالات المتجددة بالاشتقاق والنقل وغيرهما، ومهارة صانع النص والكلام في نقل الدلالات واستعارة الألفاظ لتؤدي مقصوده.

ويوضِّح «عياد» أن «علم الأسلوب» أو «الأسلوبية»، في الدرس اللغوي المعاصر، قد انبثقا من اللسانيات الحديثة التي ظهرت في الربع الثاني من القرن العشرين، ووُلدت على يدي «شارل بالي»، تلميذ اللغوي السويسري الشهير فرديناند دي سوسير، الذي اكتشف البنية القارة لأي نظام لغوي، مؤسسًا لمفهوم العلامة اللغوية، وبعد ذلك اتسع الخوض فيها وفي أُسسها وتحليلاتها في مجال الأدب والبلاغة، وكانت في ذلك كله مصدرًا لتيارات لسانية وأدبية أخرى مثل «البنيوية» و«التفكيكية»، وتيارات ما بعد الحداثة.

ويخلص «عياد»، في كتابه المرجعي، إلى اعتبار الأسلوب «جملة الصيغ اللغوية التي تعمل عملها في إثراء القول وتكثيف الخطاب، وما يستتبع ذلك من بسط لذات المتكلم، وكشف عن سرائره، وبيان لتأثيره على السامع». وتظهر الأسلوبية كـ«جسر ممتد بين اللسانيات والتاريخ الأدبي» يهدف، مثل التاريخ الأدبي، إلى إثارة الاختزالية المتميزة للإبداعات الكبرى، التي يكشفها بوسائل التحليل اللساني في النص الإبداعي، دون الرجوع إلى مرجعية المؤلف ومقاصده.

فالأسلوب هو الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه؛ إذ يعبِّر تعبيرًا كاملًا عن شخصيته، ويعكس أفكاره وصفاته الإنسانية، ويبيِّن كيفية

نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته، وغير ذلك ممّا يؤكد أن «الذاتية» أساس للأسلوب.

المشروع النقدي وهاجس «التأصيل»

كان الدكتور شكري عياد، رحمه الله، أحد أعلام قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، وكان أستاذًا مرموقًا بين أساتذة القسم الأعرق بجامعة القاهرة، جنبًا إلى جنب عبد الحليم النجار، ومحمد كامل حسين، وعبد العزيز الأهواني، وسهير القلماوي، وعبد الحميد يونس، وشوقي ضيف، ومحمود علي مكي، وحسين نصار، والنعمان القاضي، وغيرهم.

وفي مستهل حياته الأكاديمية، كان على شكري عياد، تلميذ الشيخ أمين الخولي، أن يختار تخصصًا آخر غير الدراسات الإسلامية والقرآنية، حتى يستطيع الاستمرار بجامعة القاهرة، فاختار موضوع الدكتوراه عن «تأثير كتاب الشعر لأرسطو في البلاغة العربية» بعد أن درس في الماجستير «تحليل مشاهد يوم القيامة في القرآن تحليلًا أسلوبيًّا»، وهي التي نُشرت بعد ذلك في كتاب بعنوان «من وصف القرآن.. يوم الدين والحساب».

وفي دراسته تلك للنص القرآني، ينطلق «عياد» من مقولات شيخه وأستاذه الكبير أمين الخولي ليبيِّن حقيقة الجمال القولي في الأسلوب القرآني، ومعرفة الفنون القرآنية، لكن وبعد أزمة محمد أحمد خلف الله الشهيرة وكتابه «الفن القصصي في القرآن» تم القضاء على «مدرسة التفسير الأدبي للقرآن» بكلية الآداب جامعة القاهرة،

ولم يعُد هناك متخصص في الدراسات الإسلامية بالكلية، إلى أن ظهر بعد ذلك نصر حامد أبو زيد، ودفع هو الآخر ثمن جرأته واجتهاداته العلمية بالنفي وصدور حكم قضائي بالتفريق بينه وبين زوجه.

كان لـ«شكري عياد» أثره العميق في تأصيل الوعي النقدي لأجيال من الدراسين والباحثين، من خلال دروسه الجامعية في البلاغة وعلوم التفسير وأصول النقد الأدبي واتجاهاته المنهجية المختلفة. وكان، رحمه الله، أحد الذين فتحوا أبواب المعرفة النقدية الحديثة، في موازاة التحليل البلاغي أولًا والتحليل الأسلوبي ثانيًا للنصوص الأدبية، مكتشفًا أبعاد «البطل في الأدب والأساطير»، ومقدمًا قراءة مغايرة لـ«من وصف القرآن.. يوم الدين والحساب»، قبل أن يعكف على دراسة أثر كتاب «أرسطو» في تراثنا البلاغي والنقدي.

ويمكن القول إن كتابه «البطل في الأدب والأساطير»، الذي صدر في فبراير ١٩٥٩م، قد استهل به نوعًا جديدًا من التأصيل النقدي، وبحثًا عن الجذور التي تتأصَّل بها دلالة المفاهيم النقدية الجديدة، كي تضرب بأصولها القوية في تراث يمنحها الحياة والنماء.

كما أضاف «عياد» إلى ذلك دراسته لفن القصة القصيرة، ساعيًا إلى تأصيل هذا الفن الأدبي الذي لم يكتب قبله أحدٌ عنه في مصر، مثلما كتب هو دراسته الرائدة «القصة القصيرة في مصر: دراسة في تأصيل فن أدبي». ولم يكتفِ شكري عياد بذلك كله، بل قام بالانطلاق إلى آفاق النقد التطبيقي ومعالجة النصوص الأدبية، من خلال تجاربه الرائدة في النقد، ودفع طلابه وتلاميذه إلى الاهتمام بأهم ما يميز الأعمال الأدبية من حيث هي «أعمال أدبية»، وهي «اللغة» التي ظلَّت الشغل الشاغل له طوال ممارساته النقدية والإبداعية، وكانت هي نقطة الانطلاق لتدشين ثلاثيته

النقدية اللافتة: «دائرة الإبداع.. مقدمة في أصول النقد»، «مدخل إلى علم الأسلوب»، و«اللغة والإبداع.. مبادئ علم الأسلوب العربي».

ويمضي المشروع النقدي لـ«عياد» صعودًا في كتبه التالية التي أكملت صياغته، والتي سوف تظل علامات مضيئة على طريق التأصيل النقدي الذي جمع، في مرحلة نضجه، بين دراسة «موسيقى الشعر العربي» سنة ١٩٦٨م، الذي كان في أصله الأول محاضرات ألقاها على طلابه في الجامعة سنة ١٩٦٦م، وذلك قبل أن ينشر دراسته «الأدب في عالم متغير» سنة ١٩٧١م و«الرؤيا المقيدة: دراسات في التفسير الحضاري للأدب» سنة ١٩٧٨م و«مدخل إلى علم الأسلوب» سنة ١٩٨٢م و«اتجاهات البحث الأسلوبي» سنة ١٩٨٥م و«دائرة الإبداع» سنة ١٩٨٧م و«اللغة والإبداع» سنة ١٩٨٨م و«بين الفلسفة والأدب» سنة ١٩٩٠م و«المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين» سنة ١٩٩٣م. وكلها كتب تدل على غيرها من الكتب، التي يتجسّد بها المشروع النقدي المتكامل لشكري عياد، الذي لم يُخفِ ولعه بتأكيد معنى «التأصيل» في بحثه عن الأصالة التي أصبحت سمة له، وعلامة دالة على إنجازه الكبير.

الحكي بـ«أنتَ».. من «التوحيدي» إلى يوسف إدريس

خيري دومة.. الناقد الأصيل

يشيعُ في بعض الأحيان، بل ربما في الكثير منها، أن تنشأ فكرة أعمال مهمة أو دراسات فكرية أو نقدية معمقة من مجرد ملاحظة عابرة تعنُّ لباحث، أو من الوقوف على سطر يلفت الانتباه أو هامشٍ مغرٍ في أثناء القراءة، غالبًا ما تؤدي مثل هذه المفارقات القدرية إلى عكوف أصحابها، سنوات وسنوات، لإنجاز كتابٍ أو دراسة تكون حصادًا لرحلة معرفية مثيرة وشاقة، لكنها بالتأكيد ممتعة ومثمرة.

لعلَّ هذا ينطبق بصورة كبيرة على مشروع نقدي طموح للباحث الأكاديمي والناقد المرموق د. خيري دومة، أستاذ الأدب والنقد الحديث بكلية الآداب، جامعة القاهرة، مدير مركز اللغة والثقافة العربية التابع للجامعة ذاتها. بزغت فكرة هذا المشروع، بسيطة، في أثناء عكوفه على إعداد أطروحته للدكتوراه، تحت إشراف أُستاذِه الناقد القدير الدكتور سيد البحراوي، عن «تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة».

لاحظ «دومة» في أثناء قراءته لنصوص القصص القصيرة التي

يشتغل عليها لتصنيفها، وتحليلها، واكتشاف تقاليد الأنواع الأدبية المختلفة فيها، أن هناك ظاهرتين لغويتين «بسيطتين»، حين تظهران في النص القصصي فإنهما تشيران بوضوح وباطّراد مُطَمْئِن، إلى توقُّف حركة السرد، وتصاعد نغمة «الغناء»، وتعلنان عن إمكانية للتداخل بين نوعين من الأدب يصحُّ أن يلتفت إليها الباحث.

أولى هاتين الظاهرتين كانت **استخدام ضمير المخاطب لسرد القصة**، بدلًا من ضميرَي المتكلم والغائب المعتادين في كل سرد، أما الثانية فكانت استخدام الجملة الاسمية (أو الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع)، بدلًا من الجملة الفعلية (خصوصًا ذات الفعل الماضي المعتاد في معظم السرد).

وما بين أوائل تسعينات القرن الماضي، حين انتهى «دومة» من إنجاز أطروحته للدكتوراه[1] وبين لحظتنا الراهنة، استغرقت الرحلة ما يزيد على عشرين عامًا كاملة، لتتبلور الملاحظة الذكية وتتطور الفكرة، وتُدعم بمزيدٍ من النصوص القديمة والمعاصرة، وتصير كتابًا مهمًّا بعنوان «**أنتَ.. ضمير المخاطب في السرد العربي**»، صدر أخيرًا عن الدار المصرية اللبنانية، ضمن سلسلتها المهمة «رؤى نقدية».

يقول «دومة»: «تشكلت فصول هذا الكتاب، فصلًا بعد فصل، على مدى زمني متسع، وكانت مادته دائـمًا كتابًا مفتوحًا. سيظل كذلك، ولا أظنه سيكتمل. لم يكُن من الممكن إغلاقه إلا بقرار. وستظل تداعبني بلا نهاية، فكرة إضافة فصول وزوايا ونصوص جديدة إليه».

---

(١) صدرت في كتاب مهم بعنوان «تداخل الأنواع الأدبية في القصة المصرية القصيرة ١٩٦٠ ـ ١٩٩٠» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

هكذا، ربما للمرة الأولى في النقد العربي الحديث، يُخصَّص كتابٌ بكامله لدراسة وتحليل ظاهرة السرد عن طريق ضمير المخاطب، أو كما يسميه البعض «الضمير الثالث» (أنتَ أو كاف الخطاب).

لقد اتسعت المساحة التي يحتلها السرد بضمير المخاطب على نحوٍ لافت في العقود الأخيرة، بحيث أصبحت الـ«أنتَ» جزءًا من القص، وليست مجرد «أنتَ» اتصالية بين الكاتب والقارئ. لقد أصبح كلام الراوي بضمير المخاطب تمثيليًّا أو تقريريًّا (خبريًّا وليس إنشائيًّا إذا استخدمنا لغة البلاغة الكلاسيكية)؛ فهو يحكي القصة، ويرسم الشخوص، ويسرد الأحداث، ويصف الزمان والمكان والظروف مستخدمًا ضمير المخاطب.

ويكشف المؤلف ـ عن طريق تحليله عددًا من الأعمال الأدبية والنصوص التراثية ـ عن أن اتباع هذه الطريقة في السرد المعاصر يمكن رده إلى أسلافٍ له، أو بصيغة أخرى يمكن رده إلى ما هو أبعد من الأعمال الأدبية الحديثة التي اعتمدت ضمير المخاطب في سرد الأحداث.. ويقول «دومة»:

«ضمير المخاطب في الأدب، أو حتى في السرد، ليس ظاهرة جديدة، ولا ظاهرة خاصة بالأدب العربي؛ فقد ألفنا (الحديث) إلى القارئ وبضمير المخاطب في كل الثقافات الشفاهية، التي تقوم على لقاء حيٍّ بين متكلم ومستمعيه. وكان من الطبيعي أن تنهض البلاغة القديمة في كل الآداب، على حضور المخاطَب، ورغبة المتكلم في إقناعه بكل السبل، واتخذ هذا التفاعل بين المتكلم والمستمعين صورًا متعددة على مدار التاريخ، وجدت أبرز تجلٍّ لها في نوعين من الأدب القديم على وجه الخصوص، هما: الشعر الغنائي والخطابة».

ويكشف «دومة» عن أن طه حسين كان مثالًا بارزًا على مخاطبة القارئ بضمير المخاطب على نحو مباشر؛ فبدأت منه، ومن كتبه النقدية والإبداعية المتشابهة في هذه النقطة، خصوصًا في كتابيه «المعذبون في الأرض» و«ما وراء النهر»، ولاحظ كيف يوظف مصطلح «الحديث» توظيفًا لافتًا ودالًّا جعل منه راويًا محدِّثًا بامتياز.

ومن طه حسين، انتقلت إلى تلميذه يوسف إدريس، الذي استخدم في سرده الواقعي الجديد ما سماه المؤلف «فن الحديث»، لكن بطريقته الخاصة المختلفة تمامًا عن طريقة أستاذه.

إذن، وبحسب «دومة»، بات مصطلح «الحديث» مصطلحًا سرديًّا، يتبلور بين يدي بحثه يومًا بعد يوم، ودراسة بعد دراسة، وفي هذه الأثناء ربط المؤلف بين المصطلح في مفهومه السردي المعاصر، وبين مصطلح «الحديث» الذي يحضر بقوة في التراث العربي، ومن هنا استشعر المؤلف ضرورة البدء من هذه النقطة البعيدة لتعميق الفهم للظاهرة وللوعي بحضوره ومجالاته المختلفة من ناحية ثانية.

بهذه الكيفية، تطرَّقت دراسة «دومة» إلى فحص وتأمل سيرة المصطلح في التراث العربي، وكيف شاعت كلمتا «حديث» و«حدثنا»، ومشتقاتهما على نحو مدهش وبمعانٍ متغيرة، وكيف عالجت المعاجم العربية الكلمة ومعانيها، وكيف شملت معانيها أنواعًا مختلفة من النثر العربي القديم، وكيف تحرَّج المثقفون من استخدامها في وصف القص، ثم كيف انتقلت الكلمة إلى اللغة العامية فصارت «**حدوتة**»، واكتسب معناها ظلالًا جديدة، إلى أن وصلنا إلى بدايات النهضة العربية الحديثة، وما رافقها من مصطلحات سردية مستحدثة.

في سياق البحث، وفي أثناء عمله على النثر العربي القديم بتاريخه

الطويل، لفت المؤلفَ واحدٌ من أشهر الكتب التي استخدمت ضمير المخاطب وأطولها في التراث العربي، وهو كتاب أبي حيان التوحيدي «الإشارات الإلهية»، الذي رأى فيه «دومة» بلورةً لنوع من الأدب العربي لم يلقَ حظَّه من الدرس النقدي، كما مثَّل ذروة متقدمة لاستخدام ضمير «أنت»، على نحو أقرب إلى ما فعله الكتاب المعاصرون، حين انقسموا على أنفسهم وأشبعوها لومًا وتقريعًا.

من هنا، قطع المؤلف شوطًا كبيرًا في مسار البحث، وبدأت تتبدى وجوه أخرى من الظاهرة دفعته إلى مناقشة نصوص وكُتَّاب وجوانب جديدة، تبلورت كلها حول النقطة التي بدأت منها: «صعود ضمير المخاطب في السرد المعاصر». كان ضمير «أنت»، مع اختلاف ما يشير إليه من معنى في كل مرحلة، هو المسألة المحورية التي تقف وراء كل المساعي البحثية في الموضوع.

يقع الكتاب في مقدمة وستة فصول وخاتمة، الفصل الأول منها يدور حول التأصيل النظري لمصطلح «الحديث»، أو «أنت» سيرة مصطلح سردي مهمَل، والفصل الثاني يدور حول «المناجاة» أو «شدو من حديث متصل» عن كتاب «الإشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدي، ويخصص المؤلف الفصل الثالث لدراسة «طه حسين الراوي المحدث».

فيما يخصّص الفصل الرابع لدراسة «فن الحديث في سرد يوسف إدريس»، ويأتي الفصل الخامس لدراسة وتحليل ظاهرة «صعود ضمير المخاطب في السرد المصري المعاصر»، والفصل السادس والأخير يحلل فيه المؤلف عددًا من النصوص السردية؛ الروائية والقصصية، للكشف عن بروز ضمير «أنت» الذي أطلق عليه «ضمير النقمة والسخرية والاحتجاج».

هذا الكتاب فاز بجائزة أحسن كتاب نقدي في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٧م.. وقد تشرفتُ بقراءة مخطوطة الكتاب في صورته الأولى، وكم تمنيت على صاحبه أن يدفع به للنشر، لكنه كعادته يتأنَّى كثيرًا في إخراج كتبه، وفرحت فرحًا شديدًا بظهوره ولا أخفي سعادتي الكبيرة بالكتاب وصاحبه.

ميخائيل باختين..
«سيرة» ناقد القرن العشرين

ربما لم ينَل ناقد غربي من الاهتمام والبحث والدراسة (خاصة في ربع القرن الماضي) مثل ما نال الناقد والمنظِّر الروسي الشهير ميخائيل باختين (١٨٩٥ـ ١٩٧٥م)، وهذا القول لا ينسحب فقط على المشهد النقدي في أوروبا وأمريكا، بل يشمل أيضًا العالم العربي الذي اكتشف باختين «ناقدًا» و«فيلسوفًا لغويًّا» و«مُنظِّرًا ثقافيًّا» في النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي.

أتصور أن القيمة الكبرى في الاجتهادات والاستبصارات التي قدَّمها ميخائيل باختين، تتمثَّل في تجنُّب البحث عن نظرية نقدية مغلقة وضيقة الأفق. مثَّلت تجربة «باختين» ردًّا عمليًّا على ضيق الأفق الذي وَسَمَ بعض نقاد ما سُمي «الواقعية الاشتراكية» في الاتحاد السوفيتي، باعتبار ما كان. سبح «باختين» ضد التيار السائد، في وقته، وتصدى لفكرة النظرية المغلقة بكل أشكالها، ودفع ثمنًا فادحًا وباهظًا لاجتهاداته تلك ولتبنيه هذه الفكرة أو هذا الموقف.

شاعت مقولات «باختين» وأفكاره الأساسية، خاصة ما يتعلق بتصوراته عن «الكرنفال»، و«تعدد الأصوات» و«الرواية متعددة

الأصوات»، والعلاقة بين الزمان والمكان، أو مفهوم «الزمكانية»، وعن اللغة باعتبارها «أيديولوجيا»... إلخ، باعتبارها مقولات صالحة أثبتت حيويتها وكفاءتها لأنْ تُستخدم مع كثير من النصوص، والروائية منها بشكل خاص، وتكتسب تجربة «باختين» جزءًا من قيمتها من كونها اهتمت بالآداب الشعبية وتأثيرها فيما يسمَّى الأدب الرسمي.

يقول الناقد حسين حمودة: «إن التاريخ لا يظل مغمض العينين طويلًا. وأعمال (باختين) أعيد اكتشافها في الغرب في فترة متأخرة عن سياق إنتاجها، ثم أعيد اكتشافها في العالم كله فيما بعد. وأتصور أيضًا أنها تمثل إمكانية لربط (الأدبية) بسياقها الأكبر بعمق وبابتعاد عن أي شكل من أشكال الانغلاق وضيق الأفق».

ربما لكل هذه الأسباب، تأتي قيمة وأهمية هذا الكتاب الصادر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، بعنوان «الماس والرماد.. ميخائيل باختين في حوار مع فيكتور دوفاكين»، ترجمة: أنور محمد إبراهيم. يضم هذا الكتاب الضخم (٦١٠ صفحات من القطع الكبير) المحاورات التي دارت بين واحد من أبرز ممثلي الفكر الفلسفي والنقدي واللغوي في القرن العشرين «ميخائيل ميخايلوفيتش باختين» (١٨٩٥_١٩٧٥م) وبين عالم اللغة والأدب فيكتور ديميتربيفتش دوفاكين (١٩٠٩ _ ١٩٨٠م) الذي كرَّس السنوات الأخيرة من عمره في وضع مجموعة من الذكريات الشفهية لأبرز معاصريه من العلماء والأدباء والشعراء، سجلها على جهاز تسجيل صوتي خاص به بدءًا من عام ١٩٧٣م.

ويكتسب هذا الكتاب الكبير عن ميخائيل باختين أهمية خاصة؛ فهو، في ما أعلم، أول كتاب يُترجَم إلى اللغة العربية، ويتعرَّض بشيء كثير من التفصيل لسيرة هذا الناقد الفذ، عظيم التأثير على النقد العربي المعاصر؛

فـ«باختين» لم يترك سيرة ذاتية، ولم يكتب مذكراته، أو يدوِّن شيئًا وصل إلينا عن حياته الخاصة بقلمه. يملأ هذا الكتاب بعض الفراغ في هذه المساحة الخاصة بحياة «باختين» وسيرته، ويلقي بالضوء على كثير من الجوانب الغامضة في سيرة حياته ومسيرته التأليفية النقدية والفلسفية.

وعبر ستِّ محاورات مطولة، أجراها «دوفاكين» مع الناقد الذي طُمرت أعماله طويلًا، يرسم لنا «باختين» نفسه، بنفسه، هذه اللوحة الشاملة للطريق الذي سار فيه عبر عصره غريب الأطوار، هائل التحولات، هذه اللوحة الكلية الشاملة لن نجدها في أي مصدر آخر. يقول «س. ج. بوتشاروف»، الذي قدَّم لهذه الطبعة من كتاب «الماس والرماد.. باختين في حوار مع دوفاكين»:

«لم يتحدث ميخائيل باختين إلى أيِّ شخص على هذا النحو من التفصيل عن أسرته وعن مدرسيه في المرحلتين الثانوية والجامعية، عن جامعة بطرسبورج قبل الثورة وبعدها. في هذه المحاورات لا يتحدث باختين عن فلسفته إطلاقًا بلغة متعالية يكتنفها الغموض، لكنه يتحدث بلغة إنسانية سهلة، لغة تكاد تكون لغة الحياة اليومية المعتادة، لكنه إبان حديثه البسيط، ومع دوران (جهاز التسجيل)، تتدفق أحداث حياة المفكر الكبير الذي (عاش بيننا)، والذي تفاعل مع رفاقه التاريخيين، وعاصر شتى الأزمات، وشق طريقه خلالها. أمور كثيرة ممَّا قصه باختين على دوفاكين لم نكُن لنعرفها لولا هذه المحاورات».

يروي هذا الكتاب، عبر صفحاته الطوال، ما ظللنا فترة طويلة في عالمنا العربي نجهله عن الناقد والمنظِّر الروسي، ويجيب عن أسئلة خاصة في هذا السياق، يفسِّر ويعلِّل ويكشف، لماذا تمت إعادة الاعتبار للكتابات التي تم تجاهلها وقمعها نتيجة اعتبارات أيديولوجية، مِثل

ما حدث بالضبط مع كتابات ميخائيل باختين التي ظلت مقموعة طوال عصر الستار الحديدي السوفيتي، إلى أن ذاب هذا الجليد الكاسح فاستهلت هذه النصوص «المكتشفة» رحلة قرائية جديدة.

اكتُشفت كتابات «باختين»، وأعيدت قراءتها، بفضل جوليا كريستيفا وتودوروف وغيرهما من الذين وَجدوا في أفكار «باختين» عن «الحوارية» و«الكرنفال» و«تعدد الأصوات» ما ينقض التراتب القمعي بين الأنواع الأدبية، ويستبدل بحضور الصوت الواحد الحضور «البوليفيني» لتعدد الأصوات، فيحرر النصوص الأدبية من أسْر النظرة ذات الاتجاه الواحد، ويفتح الخطاب الأدبي على أفق حيوي من التفاعلات النصية متغايرة الخواص، وذلك على نحو ما حدث في كتابه عن «مشكلات شعرية ديستويفسكي» (١٩٢٩م) و«رابليه وعالمه»، وغيرهما من النصوص النقدية التي أعيدت قراءتها في سياق صعود البنيوية وما بعدها، بحسب ما يذكر الناقد جابر عصفور في أكثر من موضع من مقالاته وكتبه التي تحدث فيها عن «باختين».

تتبدَّى مأساوية «السيرة الباختينية»، وتراجيدياها الأكثر قتامة ووجعًا، باعتبارها سيرة «مفكر وناقد ولغوي تم قمعه وتهميشه لسنوات طوال»، لقد كانت سيرة ميخائيل باختين مثالًا دالًّا على غيره من ضحايا ممارسة الأصولية الجدانوفية أو الماركسية بلا فارق.

اعتُقل «باختين» سنة ١٩٢٩م بتهمة النشاط السري المعادي للدولة، لكن السبب الحقيقي هو أفكاره الأدبية والنقدية «غير الأصولية»، وحُكم عليه بالسجن عشر سنوات في جزر سولوفستكي، وهي معسكر للموت يقع في أقصى الشمال السوفيتي.

ونتيجة تدخُّل بعض العقلاء، استبدل بالحكم المميت النفي لست

سنوات في كازاخستان. وبعد انتهاء العقوبة، ظل هذا الناقد العظيم منزويًا، يعمل بالتدريس في معهد صغير بمدينة سرنسك في الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٦١م، لا يجرؤ على نشر شيء من أعماله حتى لا يلفت إليه الأنظار أو يتذكَّره أحد من كُهَّان الأصولية.

وظـل «باختين» في عزلته الاختيارية وهوان حاله إلى أن سـقطت السـتالينية والجدانوفية، وأعاد الجيل الجديد من الباحثين السـوفيت اكتشـافه في سـعيهم إلى تأسـيس «نظرية جمالية» جديدة متحررة من الجدانوفية، فتحلَّق حوله علماء العلامة السميوطيقيون البنيويون من جامعة تارتو في ما عُرف باسم «مدرسة تارتو» ذات الشهرة العالمية في سنوات المد البنيوي، وخرجت أعماله إلى العالم كله بعد أن أَعَدَّ الطبعة الثانية التي صدرت سنة ١٩٦٣م لكتابه ذائع الصيت «مشكلات الشعرية عند ديستويفسكي» الذي صدرت طبعته الأولى سنة اعتقاله ١٩٢٩م.

بلا شك، لقد مثَّلت أطروحات «باختين»، في السنوات التي تلت وفاته، ثورة حقيقية في مجال النظريات النقدية والفلسفات اللغوية والتحليل الاجتماعي للأدب، ما دعا البعض من كبار النقاد في العالم إلى اعتباره «ناقد القرن العشرين»، خاصة مع ما ذكرناه سابقًا من صلاحية مفاهيمه التحليلية للتعامل مع تجارب إبداعية تنتمي إلى مناطق متعددة من هذا العالم. من هنا تبدو قراءة هذا الكتاب المهم مغامرة مغوية للمهتمين بحياة «باختين» وسيرته، وتتبُّع السياق الذي أثمر أطروحاته النقدية واللغوية معًا.

الباب الرابع

تراثنا.. تاريخنا!

استهلالات نصية!

[التاريخ بحر عميق، وبمجرد سقوطك فيه يصبح من اليسير أن تستمر في السقوط إلى الأبد.

وستتزاحم تساؤلات مستحيلة في ذهنك بينما تتعثر قدماك: كيف حدث ذلك؟ لماذا فعلوا ذلك؟

هل كل شيء مقدَّر مسبقًا، أم أنه متشابك فحسب؟].

[هذا الشيخ الوقور الذي نسميه «التاريخ» ويسكن في الأعالي.. ماذا يظن نفسه؟!

يتعامل مع النفوس كأنها أعداد صماء، وكأنه ينتقم منها، هي التي تظن أنها تصنع التاريخ!

هناك من نقول عنهم إنهم يركبون الموجة.. هؤلاء هم الذين يتقدَّمون الصفوف الصماء.. لا يعذِّبون أنفسهم بالسؤال عمَّا يريده ذلك الشيخ الجليل.. لكنهم ينصاعون لأوامره يومًا بيوم.. إن قال شمالًا فهو الشمال.. أو قال يمينًا فهو اليمين.. أو قال لهم دوروا على أعقابكم انقلبوا يهرعون! فهل من فقيه؟!

ومع ذلك، فقد أعطى المسلمون العقل إجازة مفتوحة منذ ألف سنة تقريبًا! والأنكى من ذلك أننا سعداء بهذه الاستقالة العقلية،

ومستمتعون كل الاستمتاع بالتكرار والاجترار والنوم على التاريخ!

العالم كله يتحرك، يبحث، ينتج، يبدع. العالم كله ينقد نفسه، ويراجع أخطاءه، ويعزل ذاته من ذاته، كلما قطع شوطًا ما لكي يتحرر من انغلاقاته وتراكماته وينطلق من جديد. ونحن نائمون ربما نومةَ كهنةِ بيزنطة الذين كانوا يتساءلون والعدو على الأبواب: كم عدد الملائكة الذين يمكن أن يدخلوا من ثقب الإبرة؟!

الرجاء، لا تستنكروا ولا تستهزئوا ولا تقولوا مبالغات، فمن يستمع إلى فتاوى الفضائيات والمصطلحات الشاذة التي جعلتنا موضع سخرية للأمم والشعوب قد يفقد أمله كليًّا بنهضة هذه الأمة!].

(من مقال لـ«هاشم صالح» نُشر بجريدة «الشرق الأوسط»).

[عدم التعلُّم من التاريخ عَرَض مزمن من تجليات أزمة الثقافة والسياسة معًا، لا نتعلم أبدًا من أخطاء الماضي، ولذلك نكرر نفس الأخطاء، وبإصرار مذهل، فوضى المصطلحات والشعارات هي أيضًا أحد تجليات أزمة ثقافية مزمنة، لم يتوقف أحد ليسأل نفسه عن «الشعب» الذي يتكلم عنه أو يشتمه أو يهينه، لم يتوقَّف البعض ليسأل نفسه عن الفارق بين إزاحة الحاكم وهدم النظام وهدم الدولة.. كل القوى السياسية لا تحاول أبدًا أن تستوعب أن الزمن هو العنصر المفقود في حركتها، هي تتوارث أفكارًا نظرية، دون أن تطوِّرها مع الزمن، ودون أن تستوعب تغيُّر العصر، أو خصوصية المكان والتجربة، يصدق هذا على المتأسلمين مثلما يصدق على القوى اليسارية والليبرالية].

(من مقال «أزمة ثقافة» لـ«محمود عبد الشكور»).

كيف تعرفتُ إلى كتب التراث؟

دائمًا ما تبدو هناك حاجة ملحة إلى ما أطلق عليه «كتب المداخل والمفاتيح»؛ تلك التي تتوسط بين القراء المبتدئين الذين يستهلون طريقهم، ومن ثَمَّ خطواتهم الأولى، للتعرُّف إلى أيٍّ من فروع المعرفة، وبين بحار العلم الزاخرة ومحيطات المعرفة التي بلا شطآن ولا ضفاف.
أقول ذلك في ظل اتساع الفجوة المرعبة (هل أقول ثقبًا أسود؟!) بين الناشئة والشباب وبين الإقبال على القراءة، والتعرُّف إلى تراث أمتهم وتاريخ شعوبهم، فضلًا عن تجديد المعرفة التي تستدعي طوال الوقت مدَّ الحبال والأواصر بين الأجيال التي تتوالى موجاتها بلا انقطاع وبين أعلام تراثهم البعيد والقريب وإنتاجهم الذي يجب أن يكون دائمًا بين أيديهم وتحت أعينهم ولا يفارق تكوين وجدانهم وتشكيل عقولهم.

لذا، فإن إشاراتٍ إلى مثل هذه الكتب والمؤلَّفات تبدو ضرورية، خاصة في مجال التعرُّف إلى التراث العربي الزاخر.

وتتحدد الوظيفة المباشرة لمثل هذا اللون من التأليف في التعريف بعيون تراثنا العربي، في مجالات إنتاجه المعروفة آنذاك؛ في الأدب، والتاريخ، والتراجم والسير، والتصوُّف، وعلم الكلام والعقائد، والعلوم والفنون..

كما أنها تأخذ بيد من يرغب من الأجيال الشابة في التعريف والاطلاع

على مؤلفات تراثية عظيمة؛ صارت من «تراث الإنسانية» وليس «التراث العربي» فقط؛ مثل: شعر أبي العلاء المعري ونثره، أو كتابات أبي حيان التوحيدي، مثقف القرن الرابع الهجري، أو مؤلفات الجاحظ الموسوعية، أو «المقدمة» الفذة لابن خلدون[1]... إلخ.

خلال الرحلة الممتعة التي كان يخوضها الطموحون منًّا للبحث عن كتب التراث في مستهل حياتهم، وعن النصوص التأسيسية منه، التي يستطيعون قراءتها والإفادة منها، كان ثَمَّةَ مساران في البحث:

القراءة عن هذه المصادر والتماس تعريف مبسط عنها وعن سياق تأليفها ونبذة مختصرة عن مؤلفيها أولًا، ثم البحث عن المقالات والكتب والدراسات التي تشكل مِفتاحًا للدخول إلى هذا العالم والتعرُّف إليه، ومن ثَمَّ الإقبال على نصوصه وقراءتها.

أما المسار الثاني، فكان ببساطة هو التحصل على هذه النصوص، ثم قراءتها بعناية واكتساب الخبرة اللازمة للاستئناس بلغة التراث وتجاوز صعوباته الظاهرة وتشابكاته الكثيرة..

في المسار الأول، وهو محل اهتمامنا هنا، يمكن الإشارة إلى كتبٍ جليلة، صارت بدورها كلاسيكية ولا يُستغنى عنها، تتلخَّص مهمتها الأولى في التعريف ببعض كتب التراث ببساطة ويسر، وتُسهِّل على طلابها تكوين رؤية عامة منظمة لجمع شتات هذا التراث، والاعتماد على تصوُّر زمني واضح لنصوصه وتعاقبها، أفقيًّا ورأسيًّا، من خلال الموضوع الواحد، أو المؤلف الواحد، أو الفترة الزمنية الواحدة.

في هذا الصدد، يمكن الإشارة، مثالًا، إلى كتاب المرحوم جمال

---

(١) واحد من أعظم المؤلفات التأسيسية في تاريخ العمران البشري وعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ.

الغيطاني «منتهى الطلب في تراث العرب»[١]، وهو من الكتب التي تُساعد كثيرًا في التعريف ببعض الكتب الموسوعية في تراثنا القديم، أو كتب أخرى جمعت شتات هذا التراث ونظمته تبويبًا وتصنيفًا؛ كما في كتابَي «تاريخ الأدب العربي» لـ«كارل بروكلمان»، و«تاريخ التراث العربي» لـ«فؤاد سزكين».

في المسار نفسه، يمكن الإشارة إلى موسوعة «تراث الإنسانية» التي كانت تصدرها وزارة الثقافة المصرية في الستينات من القرن الماضي على شكل مجلة شهرية، تضم قراءات لأعظم الكتب التي أنتجها العقل البشري، وشكَّلت تراث الإنسانية في مختلف الحضارات والأزمان[٢].

في «تراث الإنسانية»[٣] يمكن قراءة مقالات وافية عن عشرات الكتب في التراث العربي، ليس هناك ـ في ظني ـ مدخلٌ أحسن منها للتعرُّف إلى روائع الفكر والأدب العربي في القرون الثمانية الأولى للهجرة، يكفي أن يطالع قارئها مقالًا عن «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي بقلم زكي نجيب محمود مثلًا، أو عن «العِقد الفريد» لابن عبد ربه له أيضًا، أو مقالًا وافيًا عن الكتاب ذاته لمحمد خليفة التونسي. أو يقرأ مقالًا لعبد اللطيف حمزة عن الموسوعة العظيمة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي المصري، أو يجد المحقق القدير إبراهيم الإبياري يكتب عن «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين النويري.. وهكذا.

---

(١) صدر عن دار الشروق في تسعينات القرن الماضي.
(٢) جُمعت أجزاؤها بعد توقفها عام ١٩٧١م في تسعة أجزاء صدرت في سبعة مجلدات.
(٣) أصدرت منها هيئة الكتاب المصرية طبعة جديدة في عشرة أجزاء حتى الآن خلال العام ٢٠١٦/ ٢٠١٧م.

أيضًا، فإن للمرحوم الأستاذ الناقد والأكاديمي القدير د. سيد حامد النساج كتابًا قيِّمًا، صدر عن دار المعارف المصرية العريقة، بعنوان «رحلة التراث العربي»، وهو كتاب تعليمي بامتياز، على غزارة مادته، واتساع المدى الزمني الذي غطَّى إنتاجه (من النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة وحتى القرن الثالث عشر). لكنه، وعلى الرغم من ذلك، يعطي المفاتيح اللازمة للتعرُّف إلى حركية وحيوية هذا التراث عبر القرون، وهو مدخل مناسب لمن لا يعرف شيئًا عنه، ويريد أن يتعرَّف إليه، كتابٌ ابتغى مؤلفه التعريف بأبرز وأهم كتب التراث العربي عبر تاريخه، فتعرَّض للجاحظ ومكتبته العامرة، وتوقف تفصيلًا أمام واحد من أهم كتبه وأجملها «البخلاء». واستعرض رحلة «المقامة العربية» وتطورها، وأفرد فصلًا طويلًا لأكبر مؤلف تراثي عرفه العرب، وهو كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، كما تابع «مشوار كتب الرحلة في التراث العربي»، واختتم رحلته بكتابين تراثيين من العصور المتأخرة.

من بين هذه الكتب أيضًا، أذكر ذلك الكتاب اللطيف السهل «مع التراث» للكاتب والقاص الراحل يوسف الشاروني[1]، وهو من الكتب التي تُكسب قارئها معرفة واسعة بجوانب مجهولة من تراثنا الأدبي الزاخر، ويمكن من خلاله التعرُّف إلى طائفة معتبرة من أهم النصوص السردية العربية على الإطلاق، سيكتشف مُطالعه أن للعرب تراثًا رائعًا عن «الحب» وأحواله ومقاماته وصباباته وشجونه ومواجده، سيعرف أن هناك كتابًا جميلًا اسمه «طوق الحمامة في الألفة والأُلَّاف» لفقيه عربي مسلم اسمه ابن حزم، عُد هذا الكتاب من أروع كتب الحب في تاريخ البشرية!

---

(١) صدر ضمن أعماله الكاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وسيعرف أيضًا أن أدب الاعترافات والسيرة الذاتية لهما وجود بارز في تراثنا العربي (وإن لم يكُن بذات الجرأة والكثافة والتنوع في الآداب الغربية)، فتناول «الشاروني» نصوص الأمير أسامة بن منقذ، والإمام أبي حامد الغزالي، والإمام جلال الدين السيوطي، في كتب رائعة من أهم كتب السيرة في تاريخنا العربي، وعن أدب البحر والشخصيات الخيالية التي رصَّعت نصَّنا الخيالي الخالد «ألف ليلة وليلة»، وبحث ممتع عن الأصول التاريخية لشخصية «السندباد البحري» الشهيرة.

هذه مجرد «عينة» من الكتب التي تعرَّضت للتعريف بأبرز وأهم كتب التراث العربي في مجالات متعددة ومتنوعة، وظيفتها الأولى كانت التعريف والتمهيد لقراءة هذه الكتب مباشرة، تكاد تشترك جميعًا في الغاية التعريفية والهدف التثقيفي المباشر، والإشارة إلى أبرز مظان تراثنا العامر، خاصة الإبداعي الأدبي منه، ثم تختلف بعد ذلك في طريقة العرض، والمنهج، كما تتباين في الأسلوب والاختيارات والمصادر المختارة. ويكاد يخرج قارئها منها بمعرفة تؤهله لمطالعة النصوص التي قرأ عنها في هذا الكتاب أو غيره، كما أنها تحرِّضه تحريضًا جميلًا على اقتناء تلك الكتب في طبعاتها المدققة الميسورة، بما يثري وعي وتكوين المقبلين على قراءة هذا التراث والتعرُّف إليه.

«مداخل في قراءة التراث العربي»

سعدتُ أيّما سعادة بصدور هذا الكتاب القيم «مداخل في قراءة التراث العربي» للأستاذ الدكتور عبد الحكيم راضي، أستاذ البلاغة والنقد العربي القديم بجامعة القاهرة، عن سلسلة «تراث»، في مكتبة الأسرة ٢٠١٦م. وسعادتي بهذا الكتاب لجملة من الأسباب، أولها: أنني أرى بعيني طبعة جديدة ممتازة من هذه الدراسات والفصول «التراثية» أو المعنية بكتب التراث، أسهمتُ مع آخرين، رجاءً وإلحاحًا وإمعانًا في الإلحاح، لظهورها مجموعةً بين دفتي كتاب واحد. وكم تمنيتُ على أستاذي الجليل وصديقي العلَّامة عبد الحكيم راضي (حينما كان يترأس سلسلة «الذخائر» في أزهى فترات صدورها وأفضلها) أن يقوم بجمع ما كتبه من مقدمات ودراسات تعريفية وافية بحفنة معتبرة من كتب التراث في فروعه ومجالاته المعرفية المتعددة، ليتيسَّر لمحبي التراث العربي والشغوفين بقراءة نصوصه أو الساعين إلى التعرُّف إلى مظانه ومصادره، قراءتها واقتناؤها في كتاب واحد.

وثاني هذه الأسباب: محبتي الكبيرة لصاحب الكتاب، الذي شرفتُ بالتلمذة على يديه، أستاذنا الجليل د. عبد الحكيم راضي، وهو واحد من رهبان العلم المعدودين في هذا الزمان، مثال مخلص للأستاذ العالم المتبتِّل في محراب العلم، لا يبغي شيئًا ولا يطلب شيئًا سوى خدمة

العلم وطلابه، صحيح أن مزاجه لا يخلو من قدر كبير من تشاؤم واجتناب للتفاؤل، لكنه على الرغم من ذلك بذل جهده وشبابه وطاقة سنوات العمر لخدمة اللغة العربية وآدابها وعلومها الأصيلة (البلاغة القديمة/ النقد العربي القديم/ والعلوم اللغوية الأخرى، كالنحو والصرف والمفردات... إلخ).

وثالث هذه الأسباب: غياب هذا اللون من التأليف وهذه النوعية من الكتب عن مكتباتنا وعيون شبابنا منذ سنوات طويلة، غاب هذا اللون من الكتابة التي تسعى إلى الأخذ بيد من يبحثون عن أول الطريق للتعرُّف إلى هذه الغابة الشاسعة متشابكة الأغصان مترامية الأطراف المسماة «التراث العربي». فهذا الكتاب، الذي يقع في ٣٩٠ صفحة من القطع الكبير، ينتمي إلى حلقة من حلقات الكتب الرائعة التي اعتنت بتيسير قراءة التراث والتعريف به، كانت هذه الكتب وأشباهها تمثل العتبة التي تتيح للكثيرين من الشباب والمقبلين على القراءة تحصيل معرفة مهمة وأولية بالتراث العربي، خصوصًا أن مؤلفه واحد من كبار المتخصصين في التراث العربي، واستطاع أيضًا، خلال الفترة التي ترأس فيها سلسلة «الذخائر» المعنية بنشر عيون التراث العربي، أن ينشِّط الاهتمام بهذا التراث، والتعريف به، وإتاحة مؤلفاته المهمة طيلة العقد الأول من الألفية الثالثة.

شهدت الفترة التي تولى فيها د. عبد الحكيم راضي سلسلة «الذخائر» العمل بدأب شديد على إخراج كنوز تراثنا العربي في الآداب والتاريخ واللغة والنقد والتصوف والسيرة الذاتية... إلخ، من خلال نشرات جديدة محققة تحقيقًا دقيقًا، وقدَّم لها بمقدمات تفصيلية وافية، كان يكتبها هو بنفسه (خاصة في الكتب التي تتصل بالتراث الأدبي واللغوي

والنقدي) أو يعهد بكتابتها إلى أحد المتخصصين البارعين الكبار، لتحظى هذه الطبعات الجديدة من الذخائر بقيمة علمية وأدبية مضافة.

وعبر أكثر من سبع سنوات، أو يزيد قليلًا، استطاع د. عبد الحكيم راضي أن يعيد جمهورًا مفقودًا للتراث العربي، وأخذت طبعات هذه الكتب تنفد من الأسواق فور صدورها، وكان ممًّا قدمه د. عبد الحكيم راضي كتابة ما يزيد على ٢٠ مقدمة تعريفية وافية بعشرين كتابًا من عيون التراث العربي، جمعها بين دفتي هذا الكتاب المهم القيم «مداخل إلى قراءة التراث العربي».

عشرون كتابًا من عيون كتب التراث، في مجالات عدة ومتباينة، تغطي أهم التخصصات المعرفية في تراثنا القديم، يكتب عنها ويعرف بها ويقربها إلى القارئ المعاصر، أحد أساتذة التراث العربي وكبار المتخصصين فيه، لتكون بين أيدي طلابه ومحبيه، ويقدم وجبة دسمة وشهية لعشاق التراث العربي؛ إذ يقدم تعريفًا وافيًا ومدخلًا معاصرًا لقراءة هذه الكتب العشرين التي تنوَّعت بين الأدب والتاريخ والسيرة والترجمة والمعارف العامة والجغرافيا والتراجم وعلم اللغة والمفردات والتراكيب وثقافة الأديب... إلخ.

وقسَّم د. عبد الحكيم راضي كتابه المرجعي إلى ستة أقسام؛ الأول: «التراث والحاضر» وتناول فيه ستة كتب هي: «أوراق بغداد» (مختارات شعرية ونثرية)، و«الفلاكة والمفلوكون»، و«مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصفهاني، و«نهج البلاغة» المنسوب للإمام علي بن أبي طالب[1]، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أو «سيرة صلاح الدين الأيوبي» للقاضي بهاء الدين بن شداد.

(١) قرأه وعلَّق عليه الإمام محمد عبده.

وجاء القسم الثاني (المد السياسي والديني وتفاعل الثقافات) عن أربعة كتب، هي: «الحيوان» للجاحظ، و«مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و«المسالك والممالك» للإصطخري، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» للبيروني.

أما القسم الثالث (حوار المشرق والمغرب)، فتناول فيه ثلاثة كتب، هي: «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي، و«دار الطراز في الموشحات» لابن سناء الملك، و«المقتطف» لابن سعيد. وخصص القسم الرابع لـ«الثقافة الفنية واللغوية للأديب»، الذي تناول فيه أيضًا ثلاثة كتب من أندر وأروع كتب التراث اللغوي والأدبي، هي: «جواهر الألفاظ» لابن قدامة، و«الاقتباس من القرآن الكريم» للثعالبي، و«الوشي المرقوم» لابن الأثير.

وجاء القسم الخامس عن «قضايا معاصرة بين يدي التراث»، وفيه تناول كتابين اثنين هما: كتاب «الصاحبي في اللغة» لابن فارس، وكتاب «الأشباه والنظائر» للخالديين. والقسم السادس والأخير (منهج في التأليف لم يقَدَّر حقَّ قدْره) عالج فيه كتاب الجاحظ الشهير «البيان والتبيين».

لو تركتُ المدى للكتابة والإفاضة عن هذا الكتاب ومحتواه، وما تضمنه من مادة غزيرة وعلم وافر، ما اكتفيت ولا توقفت، لكنني كم أتمنى أن يصل هذا الكتاب إلى يد شباب وشابات وأجيال جديدة ليقرؤوا ويفيدوا من هذا الكتاب وما ألقاه مؤلفه الكريم من إضاءات كاشفة، ساطعة وقوية، على كتاباتٍ ومؤلفات حوت كنوزًا ـ دون أدنى مبالغة ـ كنوزًا معرفية وإنسانية في الفكر والأدب واللغة ورؤية العالم، وحملت لأجيال وراء أجيال ما تعتد به وتعتز وتفخر.

عن التراث العربي.. مرة أخرى!

الدعوة إلى قراءة التراث والاطلاع على روائعه واكتشاف كنوزه مطلب ثقافي لا يقل خطورة ولا أهمية عن الدعوة إلى إصلاح التعليم أو ما شابه من قضايا ومشكلات مزمنة.

وبينما أستعيد كثيرًا من المشروعات أو المبادرات التي اتجهت إلى التراث العربي، تَبسيطًا وتَقريبًا، تَهذيبًا وتَشذيبًا، اختيارًا وتلخيصًا، لتكون عتبة مزهرة مفروشة بالورود والرياحين للإقبال على هذا التراث والاتصال به وقراءة عيونه الكبرى؛ اسْتجْلَتِ الذاكرةُ تلك السلسلةَ العظيمة التي توالت أعدادها على مدار ما يقرب من ثماني سنوات (١٩٩٦_٢٠٠٣م)، وهي سلسلة «**مختارات من التراث**» التي كانت تقوم بتقديم نصوص مختارة من عيون كتب التراث العربي، يقوم بهذا الاختيار أستاذ متخصص أو أكاديمي قدير، يقوم باختيار نصوصٍ منتقاة بعناية تكون مناسبة للقراءة في هذا الزمان، لغةً وموضوعًا، على أن يشفعها بما قد تحتاجه من شرح بعض المفردات أو إيضاح بعض المفاهيم، وكتابة بعض الهوامش البسيطة الكاشفة، والشارحة لسياقات هذه النصوص التاريخية، أو الدينية، أو المذهبية، أو الأدبية، أو السياسية... إلخ.

وإذا لم تخُنِّي الذاكرة، فقد كان يشرف على هذه السلسلة الرائعة الأستاذ الدكتور محمد عناني[1]، ونظرًا لثقافته العربية الأصيلة والواسعة، فقد كانت اختياراته ممتازة ومحفزة بل محرضة على مزيد من القراءة والبحث والاطلاع على هذه النصوص في كتبها الأصلية المحققة، المشروحة.

هكذا، ومن خلال كتب هذه السلسلة الرائعة، طالعتُ وقرأتُ

(١) أستاذ الأدب الإنجليزي والمترجم القدير.

نصوصًا مختارة لِكلٍّ من:

ابن المقفع، والجاحظ، والتوحيدي، وابن خلدون، وابن الأثير المؤرخ، والطبري المفسر والمؤرخ، وأبي الفرج الأصفهاني، وابن قتيبة، وعبد القاهر الجرجاني، وابن عبد ربه، والغزالي، وابن عربي، وابن رشد، وابن طفيل.. وغيرهم من عمالقة وأعلام تراثنا العربي الزاخر، الزاهر، من أصحاب المؤلفات العظيمة والمصنفات الباهرة في مجالات المعرفة الإنسانية التي خبروها في ذلك الوقت: الأدب، الشعر، الفلسفة، التصوف، الفلك، علم المناظير (البصريات)، الجبر وحساب المثلثات، الهندسة، الطبيعيات، البيزرة والبيطرة، الطب، النجوم والكواكب، علم اللغة والمفردات والمعاجم... إلخ.

كان الكتاب الواحد يتراوح عدد صفحاته بين ١٠٠ و١٢٠ صفحة[١]، تتصدره مقدمة بسيطة، تعريفية، بالكتاب وصاحبه، ثم النصوص المختارة مضبوطة ومشكولة.

كانت قراءة مثل هذه الكتب متعة كبيرة، خصوصًا أنها وفَّرت ألفة وتعودًا بلغة هذا التراث من ناحية، ومن ناحية أخرى وفرت مادة لطيفة، مغرية بالقراءة، تتضمن النوادر والحكايات والأقاصيص، أسمارًا وحواديت، وفتحت نوافذ كثيرة للتعرُّف إلى كتبٍ ومؤلفات، هي في الحقيقة كنوز رائعة لا ينبغي أن يهملها أو يغفلها أي طالب للمعرفة والثقافة العربية الأصيلة.

وسيكون أمرا مبهجًا أن تكتشف أن ما قرأته واستمتعت به في سنوات الطلب الأولى، من خلال هذه السلسلة الرائعة في تيسير

(١) قد تزيد في بعض الأحيان لتصل إلى مئتي صفحة من القطع المتوسط.

التراث، ما هو إلا غيض من فيض، وجزء من كل، وأثر يدل على مسير، وأن هناك مؤلفات عظيمة، على ضخامتها واتساعها وشَسَاعة أركانها وغزارة مادتها، من الصعب على النفس قبول الإغضاء عنها أو إهمالها بالكلية، فمن ذا الذي يفوت قراءة ديوان شاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي، أو لا يثير فضوله أن يقرأ أعمال فيلسوف المعرة أبي العلاء المعري، بلزومياته ودرعياته، بشرحه المعجز على ديوان أبي الطيب المتنبي، بسرديته النثرية الخالدة «رسالة الغفران» والأقل منها شهرة «رسالة الصاهل والشاحج»؟!

من ذا الذي يهمل أو يغفل قراءة كتاب مثل «العقد الفريد» بأجزائه السبعة العامرة، أو لا تهفو نفسه لمطالعة بعض مؤلفات فيلسوف قرطبة ورافع لواء العقل في الحضارة الأندلسية، العظيم ابن رشد، خاصة في كتابيه الفريدين «كشف مناهج الأدلة عن عقائد الملة»، و«فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال»، وكذلك قراءة أُعجوبة أستاذه ابن طفيل الفيلسوف «حي بن يقظان»، وهي نص فريد في تاريخ النصوص الفلسفية الإنسانية عبر تاريخها كله؟!

هل هناك من يمكن أن يفوِّت متعة قراءة السيرة النبوية التي جمعها ابن هشام روايةً عن ابن إسحاق، أو يسعى إلى الكشف عن الشروحات، وكتب السير، وتراجم الصحابة التي تجمعت وتحلقت حول سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم ومن خلال هذا المسار الانفتاح على باب عظيم من أبواب التأليف العربي القديم، والعناية بتراجم الرجال والتأريخ لحياتهم في ما عُرف بكتب التراجم والوفيات[1]؟!

---

(١) هذا الفصل مُهدى إلى الصديقة، الدكتورة رضوى زكي، الباحثة الممتازة بمكتبة الإسكندرية.

«ذخائر العرب»..
عيون التراث العربي

بإجماع عشاق التراث العربي ومتخصصيه، فإن سلسلة «ذخائر العرب» التي أصدرتها دار المعارف في أواخر أربعينات القرن الماضي، هي السلسلة الأعرق في مصر والعالم العربي التي اهتمت بنشر التراث العربي نشرًا راقيًا، يقوم على أسسٍ علمية غاية في الدقة والعمق، واتبعت في إخراج الكتب أرفع ما وصل إليه علم «تحقيق التراث» على يد شيوخه الأفذاذ العظام، وتولت دار المعارف بمصر «إخراج كتب السلسلة في قطع متميز وطباعة فاخرة وجودة لا تُنافَس»، كما كان يشار إلى صنيع الدار في ذلك الوقت على أغلفة الكتب والمجلات.

ومنذ صدر الكتاب الأول في «ذخائر العرب»، احتلت مكانة لم تبلغها أي سلسلة أخرى أو أي إصدار آخر في مجال نشر التراث، ولا شك أن تلك السلسلة التي أصدرتها دار المعارف تعتبر أرقى وأعظم سلسلة تراثية عربية ظهرت حتى الآن، ولا تكاد تنافسها سلسلة أخرى سوى «الذخائر» التي أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة في منتصف التسعينات من القرن الماضي، وهي قياسًا بالعمر والتاريخ أحدث طبعًا من «ذخائر العرب»، وإن كانت لا تقلُّ عنها في قيمة ونبل ما أخرجته

من كتب التراث العربي، خاصة خلال الفترة التي تولى رئاسة تحريرها العلامة الكبير الدكتور عبد الحكيم راضي.

يروي المرحوم شفيق متري، صاحب دار المعارف المشرف العام على مطبوعاتها في أربعينات القرن الماضي، في معرض حديثه عن المرحوم الدكتور طه حسين، فيقول: «ومن أيام الدكتور العميد معي، يوم سعيتُ إليه فيه لأفضي بين يديه بخاطر كثيرًا ما جال في فكري واختلج في صدري، وأنا لا أزالُ أضطربُ فيه بين إقدامٍ وإحجام: (ذخائر العرب) التي خلَّفها الآباء والأجداد، ووقع بعضُها فريسة في بعض الأيدي، فأخرجوها للناس رخيصة مهلهلة، فلا هي موثَّقة محقَّقة، ولا هي في ثوبٍ قشيب. وكلُّ ما كان يُعنى به أحدهم أن يصدرَ الكتابُ منها وعليه عنوانه ذو الرنين واسم مؤلفه المجيد، فينفد الكتاب في أيام..

أَفَلَو حققت (دار المعارف) بعض هذه الذخائر النفيسة، وأصدرتها في الثوب الذي يتناسب مع نفاستها، فأنفقت في سبيل ذلك ما أنفقت - ترى لو أنها فعلت ذلك، فهل تجد من القراء من يقتنيها بعد أن تعودوا الحصول عليها مقابل دُريهِمات معدوداتٍ؟

أنصتَ إليَّ إنصاتًا جميلًا، وكان رحمه الله يحسن الإنصات، ثم تدفق بما كان يسعدني أن أنقله اليوم بنص عباراته:

أهي رسالة أم تجارة؟ اسمع يا أستاذ شفيق!

استقبِل الرسالة استقبالك الشمسَ، وَاسْعَ في بلوغها ما استطعتَ إلى ذلك سبيلًا. حينئذٍ سيتبعُك رزقُك كما يتبعُك ظلُّك، لا يستطيع منك فكاكًا.

أما من استدبر الرسالة وسعى وراء الرزق، فسيبقى حياته يلهث وراء ظله ليبلغه وما هو يومًا ببالغه..

أصدر يا شفيق ذخائر العرب محققة موثقة على بركة اللـه»..

وتلاقت خواطر شفيق متري الصادقة وحماسة طه حسين الحارة بمقترح إنشاء سلسلة لنشر كتب التراث العربي محققة وإخراجها في ثوب قشيب، تقدم به المحقق الكبير عبد السلام هارون سنة ١٩٤٢م، وذلك بعد أن اشترك مع قريبه العلَّامة محمود محمد شاكر في إخراج وتحقيق أهم وأقدم مجموعتين شعريتين عربيتين تعودان إلى العصر الجاهلي، هما: «الأصمعيات» لعبد الملك بن قريب الأصمعي، و«المفضليات» للمفضَّل الضبي، وحققتا نجاحًا كبيرًا، وتخطفتهما الأيدي، وطبع منهما أكثر من طبعة في فترة وجيزة.

ويروي عبد السلام هارون بنفسه قصة ميلاد «ذخائر العرب» كما سجلها في كتابه المختصر «التراث العربي»[1]، يقول «هارون»:

«وقد بدأت دار المعارف نشاطها في إحياء التراث العربي سنة ١٩٤٢م، حين فكرتُ أنا وأخي العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر في نشر مجموعات عيون الشعر سميناها (ديوان العرب). وبدأنا في نشر (المفضليات)، ثم (الأصمعيات). ثم اقترحنا على الدار أن تخصص نشرًا منظمًا لعيون التراث العربي، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح وقامت بتنظيم تنفيذه».

وفي سبيل تنفيذ هذا المقترح، أعلنت دار المعارف في ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع، ففاز به عنوان «ذخائر العرب»

---

(١) سلسلة كتابك، دار المعارف، ١٩٧٨م، ص ٦١.

يشترك في تحقيقها علماء الشرق الغرب، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب «مجالس ثعلب» في مجلدين، بتحقيق عبد السلام هارون و«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر، والطبعة الأولى من «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم تحقيق أ. ليفي بروفنسال.

ويتابع «هارون»: «وتوالى بعد ذلك نشر طائفة كبيرة من تلك الذخائر بلغت الآن ٥٤ كتابًا؛ منها ما هو في أكثر من عشرة مجلدات، ومنها ما أعيد طبعه أكثر من خمس مرات. ولا تزال تلك المجموعة في تزايد ونجاح مطرد، نرجو له المضي في نشاطه واتساعه».

كَتَبَ المرحوم عبد السلام هارون هذا الكلام في النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي، وإذا كانت السلسة قد ظهرت إلى الوجود في ١٩٤٨م فإنها وخلال الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٨م (أي خلال ثلاثين عامًا) قد أخرجت ٥٤ عنوانًا/ كتابًا من ذخائر التراث العربي، ولو حسبنا عدد الأجزاء التي كان يتكوَّن منها بعض الكتب، وهو الأغلب، وكان يصل إلى عشرة أجزاء في بعضها، لاكتشفنا بسهولة أن ما طبعته وأخرجته دار المعارف خلال تلك الفترة يتجاوز المئة كتاب، محققًا ومدققًا، في إطار سلسلة «ذخائر العرب».

ووفقًا لقائمة الكتب الثقافية والجامعية لدار المعارف (سنة ١٩٩٣م)، فإن عدد الكتب التي صدرت في سلسلة «ذخائر العرب» بلغ ٦٥ كتابًا، كان آخرها «ديوان أبي الطيب المتنبي» لأبي العلاء المعري، في أربعة مجلدات ضخام، من تحقيق د. عبد المجيد دياب.

ويظهر من حديث «هارون»، كيف كانت تأتي المبادرات العظيمة وكيف كان يُستجاب لها، حين كان يقوم على مؤسسات النشر العريقة

(العامة والخاصة)، في ذلك الزمن، أفرادٌ من عينة شفيق متري، وعادل الغضبان، فقد كانا مثقفين كبيرين قبل أن يكونا مسؤولَين عن دارٍ لنشر الكتب. هم في البدء والمعاد أصحاب رسالة، مثقفون حقيقيون لديهم ميزان من ذهب يزنون به الأفكار والرجال والمشاريع، يتكلمون قليلًا ويعملون كثيرًا، بياناتهم وخطاباتهم تتحدث من خلال إنجازاتهم، لهذا تركوا وراءهم من الآثار والإنجازات العظيمة التي تتحدث عنهم وتومئ إليهم، وتتقطع نفوسنا حسراتٍ على ما جرى وكان!

ولم يكُن اختيار الكتب التي سيتم نشرها وتحقيقها في السلسلة عشوائيًّا، بل أُسنِد الأمر إلى لجنة تشرف على السلسلة وتختار عناوينها وتُكلِّف كبار المحققين بالعمل على إخراجها، وكانت هذه اللجنة تتكون من:

الدكتور طه حسين بك، والدكتور أحمد أمين بك، والأستاذ علي الجارم بك، والدكتور عبد الوهاب عزام بك، وإبراهيم مصطفى (صاحب إحياء النحو)، والأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر، ومحمد حلمي عيسى باشا (وزير المعارف العمومية آنذاك)، وكان التعريف الذي اعتمدته الدار ليوضع على أغلفة «ذخائر العرب»، أو حين الإعلان عنها في أي مطبوعات أخرى كالتالي:

«سلسلة تُعنى بإحياء تراث العرب الخالد ونشر نفائسه في تحقيق دقيق وإخراج فني بإشراف لجنة من كبار العلماء هم حضرات أصحاب المعالي والعزة والفضيلة...».

كانت الرؤية العامة والعريضة التي تنطلق منها اللجنة في عملها، وقدمت لها في باكورة إصدارات «ذخائر العرب» تتلخَّص في أن نهضة العالم العربي قد قامت على أساسين خطيرين:

أحدهما: التراث العربي القديم، والآخر: نقل الإنتاج الأوروبي الحديث إلى اللغة العربية، «وليس في ذلك شيء من الغرابة، فقد قامت نهضة العالم العربي القديم على هذين الأساسين أنفسهما، فَدُوِّنَ التراث العربي القديم من جهة، ونُقلت آثار الحضارات الأجنبية إلى اللغة العربية من جهة أخرى، ونشأ من ذلك ازدهار تلك الحضارة الإسلامية الرائعة التي لم يصل التاريخ بعد إلى الإحاطة بحقائقها ودقائق تأثيرها في الحياة الإنسانية العامة».

وبالنظر إلى ما نُشر من تراثنا القديم، وهو قليل جدًّا بالقياس إلى ما لم يُنشر «فإنه كان لا بُدَّ من تضافر الجهود وتظاهرها على المضي في إحياء هذا التراث وإذاعة ما لم يُنشر منه إلى الآن، وإصلاح ما نُشر منه مغلوطًا، وتجديد ما نُشر منه ثم نفد وقلَّ في أيدي القراء».

بهذه الطريقة، حددت اللجنة الغاية والهدف من هذه السلسلة، وقدمت أيضًا لما ستتم إعادة نشره وتحقيقه في إطارها، لتؤسس سلسلة «ذخائر العرب» مسارًا فريدًا ورائعًا في إخراج كتب التراث العربي، شكلًا ومضمونًا ومنهجًا، إخراجًا وتدقيقًا، وتتوالى كتبها في طبعات مدققة أنيقة يُضرَب بها المثل في روعة الإخراج، وقمة ما وصلت إليه مناهج تحقيق التراث على يد أفذاذ المحققين من الشيوخ والعلماء الأجلاء؛ مثل الشيخ أحمد محمد شاكر، وأخيه العلامة محمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وطه الحاجري. ومن جيل المحققين الأكاديميين المتازين: محمود علي مكي، وشوقي ضيف، ومحمد زغلول سلام، وناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، وحسين مؤنس، ومحمود الطناحي، وعبد المجيد دياب، وآخرون.

ولك أن تتخيل، عزيزي القارئ، سلسلةً يُشرف عليها أسماء بقيمة

وقامة هؤلاء الأفذاذ، المستوى الرفيع الذي كانت تخرج به إصدارات «ذخائر العرب»، من اختيار الموضوعات والكتب، ومستوى تحقيقها بما بلغته من دقة ومطابقة للأصل، وبما أُلحق بها من مقدماتٍ وافية أو كُتب لها خصيصًا من دراساتٍ مُفصَّلة عُدت كتبًا كاملة بذاتها ملحقة بالنص المحقق، باتت «ذخائر العرب» نفسها تراثًا إنسانيًّا رفيعًا بما نشرته وأخرجته ويسرته للباحثين والدارسين ومحبي التراث والعلوم العربية.

ومنذ الكتاب الأول في السلسلة وحتى الكتاب الأخير، شُهرت وعُرفت كتب «ذخائر العرب» بالدقة المتناهية في إخراج النصوص، ومراحل التصحيح والمراجعة التي يمر بها الكتاب، سواء من القائمين على نشره وتحقيقه من كبار المحققين، وكلهم فطاحل في علوم اللغة العربية والتراث، أو من الذين يراجعون ويصححون البروفات من العاملين بدار المعارف، وفي هذا الشأن يقول المرحوم محمود الطناحي في كتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي»[1]:

«وتحرص دار المعارف على أن تكون النصوص التي تخرج في هذه السلسلة مطابقة لعنوانها، كما أنها تحرص على أن تخرجها في آنق صورة، ويعد قسم التصحيح في دار المعارف من أحسن أقسام التصحيح في المطابع العامة والخاصة». ولقد بلغت سمعة قسم التصحيح والمراجعة في دار المعارف خلال تلك الفترة شأوًا رفيعًا وبعيدًا، وكان من يلتحق للعمل به من أصحاب الكفاءة والدراية والمواهب الخاصة، وأغلبهم كانوا يستكملون دراساتهم العليا ويبرزون في مختلف التخصصات بعد ذلك.

---

(١) ص ١٣١.

صدر الكتاب الأول في «ذخائر العرب» في مجلدين بعنوان «مجالس ثعلب»، بتحقيق عبد السلام هارون، وهو من نفائس كتب التراث اللغوي، وقد نال هذا الكتاب، عقب صدوره، الجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمي في المسابقات الأدبية التي نظمها مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٠م.

وافتتح كتاب «مجالس ثعلب» نشر طائفة من عيون تراث العرب في اللغة والبلاغة والنقد خرجت تباعًا في «ذخائر العرب»، ومنها:

«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت، «إعجاز القرآن» للباقلاني، «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، و«الموازنة» للآمدي، «الإبانة عن سرقات المتنبي» للعميدي، وكتب أخرى.

على أنَّ من أجلِّ وأعظم ما أخرجته السلسلة من نفائس التراث الشعري العربي: تلك المجموعة من الدواوين الكاملة أو الشروحات لدواوين أعلام الشعر العربي في عصوره الأولى، نذكر منها على سبيل المثال: «ديوان امرئ القيس» بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، «شرح ديوان صريع الغواني»، «ديوان البحتري» في ٥ مجلدات بتحقيق محمد كامل الصيرفي، «ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب»، «ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني»، بالإضافة إلى «شرح ديوان المتنبي» المنسوب إلى أبي العلاء المعروف والمشهور بـ«معجز أحمد»..

ولا ينسى عشاق التراث ومحبوه تلك النصوص الرائعة من عيون تراثنا النثري: «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، التي عكفت على تحقيقها ودراستها وإخراجها للناس في صورتها الأصلية كما كتبها شيخ المعرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وأيضًا رسالته الأخرى الضخمة «الصاهل والشاحج»، كما أخرج المرحوم أحمد أمين النص الأندلسي

الفاتن «حي بن يقظان» مع رسائل مشرقية أخرى دارت حول شخصيتَي «سلامان» و«أبسال» لكل من ابن سينا وابن النفيس..

«تراث الإسلام».. رافد عن «ذخائر العرب»

وقد بدأت دار المعارف، في سنة ١٣٧٤هـ، إصدارَ سلسلة أخرى من عيون التراث، يمكن اعتبارها الشقيقة الصغرى لـ«ذخائر العرب»، سمَّتها «تراث الإسلام»، كان الكتابُ الأول فيها «تفسير الطبري» أو «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» من تحقيق شيخ العربية محمود محمد شاكر، وقد خرَّج أحاديثه المُحَدِّثُ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر.

صدر الجزآن الأول والثاني من كتاب «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الشهير بتفسير الطبري سنة ١٩٥٤م، لصاحبه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وكُتب على غلافه الخارجي: «حققه وعلق على حواشيه محمود محمد شاكر، وراجعه وخرَّج أحاديثه أحمد محمد شاكر»، وقد أصدرت دار المعارف منه ستة عشر مجلدًا ضخامًا، وقفت في أثناء تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام.

وكان الكتاب الثاني في هذه السلسة «جوامع السيرة لابن حزم» مع خمس رسائل أخرى له، هي:

رسالة في القراءات المشهورة في الأمصار، رسالة في أسماء الصحابة ورواة الحديث وما لكلٍّ واحدٍ من العدد، رسالة في تسمية من رُوي عنهم الفتيا من الصحابة ومن بعدهم، جمل فتوح الإسلام، وأخيرًا: أسماء الخلفاء المهديين والأئمة أمراء المؤمنين. وقد حقَّق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، وراجعه الشيخ أحمد محمد شاكر.

تراث الحركة الفكرية في مصر الإسلامية!

كتبتُ، ذاتَ مرة، أنَّ مصرَ قدمت للحضارة والثقافة العربية الإسلامية مؤرخين عظماء وفقهاء ذوي نظر وبصيرة، ونحاة ولغويين، ومقرئين للقرآن، ومحدثين ومفسرين، وكل من كان ذا شأن واهتمام بالعلم والفكر والإنتاج الثقافي من كل شكل ولون كانت مصر وجهته ومراكزها الحضارية قبلته. وحينما أقول مراكزها الحضارية فلا أعني فقط عواصمها الشهيرة آنذاك؛ الفسطاط، ثم القطائع والعسكر وصولًا إلى قاهرة المعز، بل أقصد تلك المدن والمراكز الحضارية التي امتدت بطول البلاد وعرضها من قلقشندة وفوه والمنصورة ودمياط في الدلتا إلى قفط وقوص وإخميم وإسنا في جنوب مصر وصعيدها الأعلى!

نعم، إن مصر قد صدرت «علم الإسلام» إلى البلد الذي نزل فيه الإسلام، وغيره من بلدان الإسلام، من دون مبالغة ولا تزيد. ولو كتب لهذه الثقافة التي أنتجتها المدرسة المصرية الانتشار والذيوع ما كنا وصلنا أبدًا إلى الأوجه الكابية الكئيبة والتفسيرات المتخلفة الجاهلة اللاإنسانية التي غاصت بنا في الرمل انتصارًا للأصفر على حساب الأخضر!

في هذه المساحة، أشير مجرد إشارة إلى تلك الحركة الزاهرة التي

شهدتها مصر منذ دخلها عمرو بن العاص سنة ٢٢ هجرية حتى نهاية القرن الثامن الهجري. وكذلك إلى الجهود المعاصرة من الكتابات والمؤلَّفات التي عالجت تاريخ الحركة الفكرية والثقافية في مصر خلال تلك القرون..

ورحم الله كاتبنا الكبير الراحل جمال الغيطاني، الذي بسببه وقعتُ في غرام وعشق كتب التاريخ والحوليات والتراجم القديمة، خاصة كتب تاريخ مصر الإسلامية التي ألَّفها مؤرخو مصر العظماء؛ تلك السلسلة الذهبية من كبار المؤرخين، بدءًا من ابن عبد الحكم المؤرخ، صاحب «فتوح مصر وأخبارها»، والكندي، صاحب كتاب «ولاة مصر»، مرورًا بنخبة نجوم المؤرخين اللامعة التي تضم كلًّا من:

شيخ مؤرخي المحروسة في العصور الوسطى «تقي الدين المقريزي»، بدائرة معارف كتبه التاريخية الأصيلة: «اتعاظ الحنفا بتاريخ الأئمة الفاطميين الخلفا»، «السلوك لمعرفة دول الملوك»، وموسوعته الكبرى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الشهير بـ«خطط المقريزي»، فضلًا عن كتبه ورسائله الأخرى الجليلة عظيمة القيمة والفائدة.

وابن تغري بردي و«نجومه الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة»، والسيوطي في «حسن المحاضرة»، وصولًا إلى آخر العنقود في هذه السلالة العبقرية، ابن إياس المصري في موسوعته العظيمة «بدائع الزهور في وقائع مصر والدهور»..

ربما كان غرامي بقراءة هذه الكتب في سن مبكرة أحد الدوافع الأصيلة لولعي بمادة «أدب مصر الإسلامية» التي درستها في كلية الآداب على يد أساتذة كبار مثل المرحوم حسين نصار، والدكتور إبراهيم الدسوقي جاد الرب، والدكتور عوض الغباري..

وكان ذلك أيضًا دافعًا فيما أظن لقراءة كل ما وقع تحت يدي من كتبٍ ودراسات قديمة أو حديثة عن تاريخ مصر الإسلامية، ليس التاريخ السياسي فقط الذي لم يكُن يستهويني في أحواله الغالبة، بل التاريخ الاجتماعي والثقافي والأدبي الذي أظنه التاريخ الحقيقي بطبقاته المتراكبة المتعددة، وثرائه المهول واحتوائه على العناصر التكوينية لأي أمة أو شعب عبر العصور.

وجذبني، بشكل خاص، تلك الكتب التي توافرت على دراسة الحياة الفكرية والثقافية؛ العلمية والأدبية، في فترة من الفترات أو حقبة من الحقب بحسب التحولات السياسية، أو ما بات يُعرف بـ«تاريخ الحركة الفكرية والثقافية» التي تتبعت ذلك النشاط الحضاري الباهر طيلة ثمانية قرون متصلة، تقريبًا، منذ أن دخل عمرو بن العاص مصر في العام ٢٢ من الهجرة، وحتى آخر عقلية عبقرية شهد ظهورها الفكر العربي كله، وهو ابن خلدون في القرن الثامن الهجري تقريبًا..

واستوقفتني، بشكل خاص، حركة التأليف الموسوعية التي شهدتها مصر عقب سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ، وبهرني ذلك الإنتاج الضخم الفخم المهيب الذي أسهم في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الكتب والمؤلفات في كل العلوم والمعارف والفنون المعروفة آنذاك. وتمخضت تلك الحركة الزاهرة عن أعمال موسوعية جامعة قد يصل عدد مجلداتها إلى الأربعين مجلدًا وقد تزيد! ولولا هذه الأعمال لضاع من تراثنا ومروياتنا وسردياتنا ما لا يُقدَّر بثمن!

خذْ عندك: «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، و«الكشكول» لبهاء الدين العاملي، وإذا أضفنا

إليها كتب الحوليات والتراجم، وكتب تاريخ مصر الإسلامية، خاصة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، لأدركنا أن مصر المحروسة كانت آنذاك هي مخزن الذاكرة الأثمن، والحافظة الأنشط، ليس لتراثها وإنتاجها الفكري فقط، إنما أيضًا لكل ما حولها من بقاع ومراكز حضارية، شرقًا وغربًا، تتواصل من بغداد إلى قرطبة!

ولولا جهود الرائد المؤسس أحمدْ أمين في عمله الموسوعي المرجعي «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام» لما ظهرت أعمال عظيمة أخرى تحتذي المسار ذاته في الجمع والتصنيف والتبويب، في الرصد والتحليل، في البحث والاستقصاء.

كانت الأعمال السابقة لأحمد أمين هي النواة التي تشكَّلت منها وتفرَّعت عنها أعمال كل من: محمد كامل حسين، وعبد اللطيف حمزة، ومحمود مصطفى، وشوقي ضيف، ومحمود رزق سليم، وزغلول سلام.. وغيرهم.

هذه المدرسة أنتجت حزمة من الكتب الممتازة الرائدة التي قدمت جهدًا رائعًا وعظيمًا في بيان وتحليل وتأطير تلك الحركة المذهلة التي شهدتها مصر منذ أصبحت عربية اللغة، إسلامية الثقافة، إلى أن دخلها السلطان العثماني سليم الأول غازيًا في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي (القرن العاشر الهجري).

دراسات توافر لها من العمق والرصانة والثقل المعرفي والعلمي ما جعلها تكشف وتجلِّي تاريخ الحياة الفكرية، العقلية والأدبية (الثقافية والعلمية)، في عصور الأدب العربي بمصر، منذ الفتح الإسلامي، وعصر الولاة، مرورًا بدولة الطولونيين والإخشيديين، ودولة الفاطميين، ثم عصر بني أيوب، وعصر المماليك، وأخيرًا تحت الحكم العثماني الذي

استمر لما يقترب من أربعة قرون متصلة!

استهلَّ هذه السلسلة الموصولة من المؤلفات والكتب القيمة الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين بدراسته الرائدة «أدب مصر الإسلامية.. عصر الولاة»[1]؛ ونواتها رسالة الماجستير التي تقدم بها إلى جامعة القاهرة بعنوان «الحركة الفكرية والعلمية في مصر منذ دخول العرب إلى مصر»، ثم قدَّم كتابه التالي «في أدب مصر الفاطمية» استكمالًا ومواصلةً لدرس الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في مصر الإسلامية، خلال القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية.

ثم اتصلت جهود المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة بجهود المرحوم محمد كامل حسين، من خلال كتابيه المرجعيين «الحركة الفكرية في مصر.. في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول»، و«الأدب المصري منذ الفتح العربي حتى الحملة الفرنسية». وسعى «حمزة» في «الحركة الفكرية في مصر» إلى تأكيد حضور الشخصية المصرية في الأدب خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، سواء من حيث تاريخها أو معالمها المرتبطة بالبيئة والموقع وامتزاج الأجناس الذي لا يبعدنا كثيرًا عن «عبقرية المكان»، لو استخدمنا المصطلح المتأخر لجمال حمدان، أو «الوسط الطبيعي» لو استخدمنا مصطلح «هيبوليت تين» الذي أشاعه أمثال محمد حسين هيكل، وأحمد ضيف، وطه حسين، وأقرانهم من أبناء الرعيل الجامعي الأول. ويعالج «حمزة» في كتابه المرجعي هذا تاريخ الحياة العقلية والأدبية في عصرين مهمين من عصور الأدب في مصر، هما: عصر بني أيوب، وعصر المماليك، وذلك من منطلق أن لكل إقليم من أقاليم الأدب العربي

---

(١) سيكون هناك حديثٌ مُفصَّل عن هذا العمل المرجعي الكبير في الفصل التالي.

شخصيةً خلقتها الظروف الطبيعية والاجتماعية، وأن هذه الشخصية تتجلّى فيما تبدعه من فكر وفنون، والبداية المنطقية لهذا السعي العلمي هي دراسة الشخصية المصرية، من حيث عناصرها ومظاهرها ومميزاتها.

وأستطيع أن أقول بثقة: إن هذه الكتب السابقة، وغيرها ممَّا يتصل بها ويستكمل جهودها ممَّا لم أذكره، تُجلي تلك الحركة الفكرية والثقافية والعلمية التي شهدتها مصر طيلة ما يقرب من ثمانية قرون متصلة، سترى أن مصر كما تجلَّت عبر التاريخ لم تكُن أبدًا خِلوًا من المراكز الحضارية، ولم تكن خِلوًا من النشاط العلمي الذي لم يتوقف لحظة في جميع مناحي الإنتاج العلمي والثقافي المعروفة آنذاك.

«أدب مصر الإسلامية»

محمد كامل حسين.. «الرائد الأدبي المجهول»

كنتُ، وأنا في الجامعة، من المولعين بمادة «أدب مصر الإسلامية» التي كُنَّا ندرسها في الفرقتين الثالثة والرابعة في كلية الآداب (قسم اللغة العربية وآدابها)، لم أرَها أبدًا مادة جافة أو محض معلومات صماء ترص بجانب بعضها البعض وبضعة تواريخ وأرقام علينا استظهارها وكان الله بالسر عليمًا، بل كانت مدخلًا مدهشًا ومبهرًا في الوقت ذاته للتعرُّف إلى فترة شديدة الخصوبة والحيوية في تاريخنا الوسيط.

كانت المرة الأولى التي أتوسع فيها بحثًا عن مصادر تلك الفترة (منذ دخل عمرو بن العاص مصر في القرن السادس الميلادي، وحتى سقوط دولة المماليك على أيدي العثماني سليم الأول)، وكانت المرة الأولى أيضًا التي أقرأ فيها شيئًا للمرحوم الأستاذ الجليل الدكتور محمد كامل حسين، فصولًا من كتابه الموسوعي الفريد «أدب مصر الإسلامية في عصر الولاة».

ومن حينها، اتصلت بيني وبين كتب العلّامة محمد كامل حسين أسبابٌ وأواصر، واكتشفتُ أن سيرة الرجل تكاد تكون مجهولة تمامًا، لا يعرفه إلا دائرة ضيقة ومحدودة للغاية من بين الأكاديميين والمشتغلين بالبحث الأدبي في تاريخ تلك الفترة، خاصة أن هناك محمد كامل حسين (آخر) شهرته طبَّقت الآفاق وطغت وغطت بالكليَّة على اسم صاحبنا هذا، فكاد لا يعرفه أحد حتى يومنا هذا، على الرغم من أنه كان أحد تلاميذ طه حسين المباشرين وأحد الأعلام الأفذاذ ممن تخرجوا في الجامعة المصرية، إبان ازدهارها وفي عصرها الذهبي، في النصف الأول من القرن العشرين.

وكان إذا ذُكر الاسم ثلاثيًّا، هكذا: «محمد كامل حسين»، يتبادر إلى الأذهان فورًا صاحب الرواية الشهيرة «قرية ظالمة» و«الوادي المقدس» وقد كان أديبًا ضليعًا في علوم اللغة العربية، على الرغم من أنه كان أستاذًا رائدًا من أساتذة طب العظام في مصر، وكان عضو مجمع اللغة العربية في الوقت ذاته.

لكن صاحبنا «محمد كامل حسين»، صاحب هذا الكتاب، الذي أعادت دار «أقلام عربية» نشره بعد غياب طال وامتد لأكثر من نصف القرن على ظهوره الأول (في ما أعلم)، فهو رائد كبير من رواد الدراسة الأدبية والتاريخية في ثقافتنا المعاصرة، وتلميذ نجيب من أنبغ وأنبه تلاميذ العميد طه حسين، وأول من تخصص في أدب مصر الإسلامية، وأصبح أول أستاذ لهذا الفرع من الدراسة بكلية الآداب جامعة القاهرة[1].

وسيرة هذا الرائد الكبير تنطوي على كثير من الحلقات المفقودة ويشوبها الغموض بكثافة، وإن كان ثابتًا أنه أحد الأفذاذ الذين تفرَّغوا لدراسة

(١) جامعة فؤاد الأول آنذاك.

الأدب المصري في العصور الإسلامية، ومنه إلى الانغماس الكامل في دراسة تاريخ الفاطميين وتراثهم (ومذهبهم الديني الباطني) الذي أفنى فيه عمره وترك وراءه كنزًا حقيقيًّا من الكتب والمؤلفات والتحقيقات التي لم يتسنَّ لغيره إنجازها.

حصل محمد كامل حسين على الماجستير عام ١٩٣٤م، عن رسالته «الأدب العربي بمصر من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين» تحت إشراف الدكتور طه حسين، ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤١م، عن رسالته «المؤيد داعي الدعاة.. حياته وديوانه»، وكانت تحت إشرافه أيضًا.

وطُبعت رسالته للماجستير في كتاب مهم، بعنوان «الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية» صدر عام ١٩٣٩م.

ثُمَّ، على ما يبدو، أراد مؤلفه أن يعيد إصداره مجددًا بإضافات وزيادات، فكان هذا الكتاب المسمى «أدب مصر الإسلامية» (وبعنوان فرعي «في عصر الولاة»). وعنه، أي عن كتاب «أدب مصر الإسلامية»، يقول محمد كامل حسين في تقديمه:

«وهذا البحث قديم؛ فقد كتبته لأول مرة سنة ١٩٣٤م، وتقدَّمتُ به إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية ـ إذ ذاك ـ وحصلت به على درجة الماجستير في الآداب مع مرتبة الشرف، ولما عُهد إليَّ بتدريس الأدب المصري بكلية الآداب قدمته للمطبعة عام ١٩٣٩م بعد تغيير بعض فصوله وبعض آرائه».

وذكر أيضًا، في مقدمة الكتاب ذاته، أن «هذا الكتاب بحث من

أبحاث أرجو أن أوفَّق إلى إتمامها، وهي البحث في الأدب المصري الإسلامي منذ دخل العرب مصر إلى الآن، فقد تحدثت في هذا الجزء عن تطور مصر في عصر الولاة، أي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين، وهو عصر غامض أشد الغموض، والمصادر التي بين أيدينا قليلة والنصوص متفرقة مبعثرة، ومع ذلك استطعنا استخلاص ما يمكن استخلاصه، وتحدَّثنا عمَّا أمكننا الحصول عليه.. أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فسيكون عن (أدب مصر الفاطمية)..».

إذن، وبكثير من الاطمئنان، يمكننا القول: إنه منذ ظهور هذا الكتاب تحدَّد المشروع العلمي والبحثي للرجل، المشروع الذي أفنى عمره في إنجازه وترك وراءه مكتبة زاخرة ورفيعة من المؤلفات الممتازة في حقل الدراسات الأدبية والتاريخية المعنية بمصر الإسلامية، غطى خلالها الفترة من دخول عمرو بن العاص مصر وحتى نهاية الدولة الأيوبية.

ووفق المخطط الذي رسمه المؤلف؛ فإن كتاب «أدب مصر الإسلامية» هو الحلقة الأولى التي درس فيها كامل حسين الأدب المصري الإسلامي في عصر الولاة؛ أي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين، وللأمانة والتاريخ فإن بحث محمد كامل حسين لهذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر الإسلامية يعد «درسًا رفيع المستوى» في البحث العلمي المنهجي، ونموذجًا رائعًا للصبر والأناة في جمع المادة من بطون المصادر المتاحة ثم قراءتها وتصنيفها ثم صياغة بحث علمي محترم يجلي غامض تلك الفترة، ويكشف عن أبرز ملامحها، ويصور بدقة وأمانة ما كان لها من دور محوري في التأسيس لنشاط علمي وافر العطاء والمجهود خلال القرون الثلاثة الأولى من دخول الإسلام مصر.

ثم استكمل محمد كامل حسين مشروعه الطموح في التأريخ لأدب

مصر الإسلامية في كتابه العمدة «في أدب مصر الفاطمية»، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٠م بعد أن اكتملت ملامح أستاذيته، وتبلور مشروعه الطموح في درس أدب مصر الإسلامية على تعاقب عصوره واختلاف أطواره، ممهدًا له بمجموعة من الدراسات والأبحاث التي نشرها مفردة في مناسبات علمية، منها دراسته المهمة «نظرية المثل والممثول وأثرها في الشعر الفاطمي»، وهو البحث الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين بباريس عام ١٩٤٨م. وكان محمد كامل حسين، قبلها، قد نال درجة الدكتوراه عام ١٩٤١م، عن بحثه المعنون «المؤيد داعي الدعاة.. حياته وديوانه»[1]، ثم ألحق هذا الكتابَ بكتابٍ آخر عنوانه «سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة» وصدر عن الدار نفسها في أكتوبر من العام ذاته.

ولم يفُت الدكتور محمد كامل حسين أن يتعرض بالدرس والتحليل لـ«الشعر في عصر الأيوبيين» ليكون ذلك بمثابة الحلقة الثالثة من مشروعه الكبير، ثم يتفرغ في السنوات الأخيرة من حياته لجمع مخطوطات الفاطميين وإخراجها في نشرات محققة دقيقة. وتوافر محمد كامل حسين على دراسة كل ما أمكنه الحصول عليه من مصادر ومخطوطات تتصل بتلك الفترة، وسافر إلى بلدان كثيرة وبذل جهدًا كبيرًا ومالًا في سبيل الحصول على تلك المخطوطات النادرة وظفر منها بطائفة كبيرة نشر عددًا لا بأس منها في سلسلة «مخطوطات الفاطميين»، في خمسينات القرن الماضي.

عن ذلك يقول صديقه المؤرخ الراحل الكبير الدكتور أحمد عزت عبد الكريم:

«وقد استطاع الدكتور محمد كامل حسين بوسائل مختلفة ـ وله في ذلك قصص شائقة ـ استطاع أن يجمع لنفسه طائفة كبيرة من الكتب

(١) صدرت طبعته الأولى عن دار الكاتب المصري في يناير من عام ١٩٤٩م.

والرسائل المخطوطة في تاريخ الفرقة الإسماعيلية وعقائدها، قلَّ، بل ندر، أن توافرت لغيره من الباحثين في هذا الحقل وقد نشر من تلك المخطوطات طائفة كبيرة».

وخلال تلك الفترة، كتب محمد كامل حسين دراستين من أهم الدراسات التاريخية في تاريخ المذاهب والفرق الإسلامية، أولاهما عن «الإسماعيلية.. تاريخها، نظمها، غقائدها»، والأخرى عن «طائفة الدروز.. تاريخها، نظمها، عقائدها» التي نُشرت عام ١٩٦٢م، بعد وفاته بعام واحد.

أدب مصر الإسلامية (في عصر الولاة)

قسَّم محمد كامل حسين كتابه المرجعي «أدب مصر الإسلامية» في عصر الولاة إلى أربعة أبواب، الباب الأول: خصصه لتطور الآداب واللغة في مصر (تعريب مصر).. وفيه تناول الآداب بمصر قبل الفتح الإسلامي، وحديث عن مكتبة الإسكندرية، وقبائل العرب بمصر، ثم الصراع بين اللغات اليونانية والقبطية والعربية. وفي ظني، فإن ما اشتمل عليه هذا الباب من مادة بحثية وتحليل منهجي «فريدٌ» في بابه، ولم يتسنَّ لكثيرٍ من الباحثين في هذه المنطقة الشائكة أن يتجاوز ما كتبه محمد كامل حسين، من حيث الشمول والإحاطة وحسن الاستقراء وسلامة الاستنتاج.

وجاء الباب الثاني في: الحياة العقلية (أو الحياة الفكرية)، وفيه تناول المدارس الدينية (الحديث، والفقه، والتفسير، والتصوف)، وتوقف وقفات خاصة لدى عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية، والليث

بن سعد والمدرسة الشافعية، والمدرسة الحنفية، والتصوف في مصر. وخصَّ النشاط اللغوي والبحث التاريخي (اللغة والتاريخ) بفصولٍ ثلاثة: النحاة واللغويون (في مصر)، والمؤرخون: بنو عبد الحكم، وابن الداية وكتابه «المكافأة».

أما الباب الثالث: كتاب الرسائل والإنشاء (النثر الفني)، أو «حياة النثر الفني المصري» في ذلك الوقت، فعالج فيه أشكال المكاتبات والمخاطبات النثرية الرسمية من خلال سجلات الدولة المصرية في ذلك الوقت.. قبل الطولونيين، ثم ديوان الإنشاء في العصر الطولوني والإخشيدي، وما قبل دخول الفاطميين إلى مصر.

ويأتي الباب الرابع والأخير: «في الشعر» أو «حياة الشعر الفني في مصر» في تلك الفترة، وعالج فيه المؤلف وضعية الشعر من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية، ثم من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون، وعرض في أثناء ذلك لأثر الفتن في الشعر، وبعض أغراض الشعر، والشعراء الوافدين، ولمحة عامة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر، وخصَّص فصلًا طويلًا لدراسة الشعر في عهد الطولونيين والإخشيديين. ثم ينتهي الكتاب بخاتمة يوجز فيها أبرز ما عرض له عبر أبوابه وفصوله.

إجمالًا، فإن الكتاب يعد بحق مرجعًا «غير مسبوق» عن الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي وحتى نهاية عصر الولاة وما قبل ظهور الدولة الفاطمية في مصر في القرن الثالث الهجري، أي أنه يغطي مساحة زمنية تقرب من القرون الثلاثة، وهي مساحة زمنية جد طويلة ومرهقة. ولا نجافي الحقيقة لو قلنا إن هذا التقسيم الذي اعتمده محمد كامل حسين، من تبويب الأبواب والفصول، قد صار

هو «المعتمد» في كل الكتب والدراسات التي سارت على الدرب من بعده ونهجت النهج ذاته في معالجة الفترات التاريخية التالية للفاطميين حتى سقوط دولة المماليك وغزو العثمانيين لمصر[1].

وبلا شكٍ، كان للدكتور محمد كامل حسين فضل الكشف عن كثير من غوامض وأسرار هذه الفترة ودقائقها، خصوصًا أن المصادر التي تتناول هذه الفترات التاريخية وقت درسها المبكر بالجامعة المصرية كانت شحيحة جدًّا وغير ميسورة، وما كان متاحًا منها لم يكُن يشفي غلة أو يسد كبير فراغ في البحث العلمي، وكذلك النصوص التي تتناولها متفرقة ومبعثرة..

إنه أمر يبعث على السرور والفرح أن يُعادَ نشرُ هذا الكتاب في هذه الطبعة الجديدة التي اضطلعت بها دار «أقلام عربية»، ويكون ميسورًا بين أيدي الباحثين والدارسين، فتحية ووفاء لهذا الرائد والأستاذ العظيم.. وتحية للدار التي تبعث القيم من الأعمال، وتعيد إلى المكتبة العربية كنوزًا توارت طويلًا تحت وطأة الإهمال والنسيان.

---

(١) راجع كتب عبد اللطيف حمزة ومحمد سليم رزق وشوقي ضيف وحسين نصار وغيرهم.

«تراث الإنسانية».. في صحبة العباقرة!

خلال الفترة بين ١٩٥٨ و ١٩٧٠م شهدت مصر نشاطًا ثقافيًا كبيرًا تمخَّض عن حركة تأليفية واسعة، فظهرت مجموعة من السلاسل الثقافية الممتازة التي تغطي جوانب شاسعة من العلوم والمعارف الإنسانية، وفي جميع المجالات.

وعرف جمهور القراء في العالم العربي كله آنذاك سلاسل «المكتبة الثقافية»، و«أعلام العرب»، و«المسرح العالمي»، و«الرواية العربية»، فضلًا عن إصدار دوريات رصينة تقدم مادة معرفية غزيرة وعميقة بلغة معاصرة وسلسة.

ظهرت مجلة «المجلة»، و«الكاتب»، و«الفكر المعاصر» وغيرها، على أن من أهم الدوريات التي صدرت آنذاك: دورية «تراث الإنسانية»، التي كُتب لها أن تكون عنوان سلسلة من أشهر السلاسل المعرفية التنويرية في تاريخ الثقافة المصرية والعربية حتى وقتنا هذا (على الرغم من قصر عمرها وتوقفها بعد ٣ سنوات فقط من صدورها).

«تراث الإنسانية»، كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية في ستينات القرن الماضي، وكانت من أبرز وأهم المشروعات الثقافية الكبرى التي شهدتها تلك الفترة، تأسست في عهد وزير الثقافة الراحل عبد القادر حاتم، كمجلة ثقافية شهرية «تتناول، بالتعريف

والبحث والتحليل، أمهات الكتب العربية والعالمية، التي أصبحت علامات بارزة في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ مقالات تُعرف وتُحلل روائع الكتب في التاريخ الإنساني».

أشرف على تحريرها بالتعاقُب: عباس محمود العقاد، وزكي نجيب محمود، وعلي أدهم، وإبراهيم زكي خورشيد، وأسهم في كتابة بحوثها ومقالاتها نخبة ممتازة من الأدباء والكتاب والأكاديميين؛ من بينهم: العقاد، وعبد الرحمن بدوي، وأحمد فؤاد الأهواني، ومحمد عثمان نجاتي، وفؤاد زكريا، ومحمد خليفة التونسي، وشوقي ضيف، وعبد العزيز الأهواني.. وعشرات غيرهم.

إذن، فقد ظهرت أعداد مجلة «تراث الإنسانية»، كمجلة شهرية، خلال الفترة من ١٩٦٢ وحتى ١٩٦٥م، ثم عندما تأسست الدار المصرية للتأليف والترجمة، أعادت إصدارها في صورتها الأولى كأعداد متفرقة، ثم صدرت أعداد المجلة كاملة في ثمانية مجلدات من قطع الدوريات الكبير.

وعن هذه الطبعة، أعادت هيئة الكتاب المصرية، ضمن مشروع مكتبة الأسرة (٢٠١٦/ ٢٠١٧م) إصدارها في ثمانية مجلدات (كل مجلد يتكون من جزأين كبيرين)، تشكل في مجموعها وبكامل ما تحتويه من مواد ومقالات عن قرابة مئتي كتاب أبدعها أعظم عقول البشرية على مدار التاريخ؛ «دائرة معارف» مُذهلة، لا أتصور أن تخلو منها مكتبة عامة أو خاصة في أرجاء عالمنا العربي.

ولهذا، جاءت هذه الطبعة الجديدة التي تقع في ستة عشر جزءًا، بعد ما يزيد على نصف القرن من ظهورها الأول، وحوالي ثلاثة وعشرين عامًا من صدور مقالات ومواد متفرقة منها سنة ١٩٩٤م، (ثم في السنوات التالية لها)، عندما كانت تصدر في سلسلة كتيبات تسمى بالاسم نفسه

(تراث الإنسانية)؛ كانت عبارة عن مقالات مُستلّة من المجلدات القديمة.

ولا بُدَّ هنا من الإشارة - للأسف - إلى أنه ومنذ بدء العمل في هذا المشروع سنة ١٩٦٢م وحتى توقفه عن الصدور في ١٩٦٥م، لم نشهد مشروعًا كبيرًا وضخمًا لإنجاز مثل هذه «المجموعات التأليفية الكبرى»، التي هي في الأصل «مشروعات تثقيفية» بامتياز تكاد تكون عنصرًا تكوينيًّا رئيسًا، ضمن أي مخطط للنشر العام في الدول الأوروبية. فعشرات من سلاسل التراث الإنساني على هذا النهج صدرت باللغات المختلفة؛ منها، على سبيل المثال: واحدة من كبريات هذه المجاميع باللغة الإنجليزية، مجموعة «كتب العالم الكبرى» (The World Great Book) التي أشار إليها «العقاد» في أكثر من مقال كتبه عن سلسلة «تراث الإنسانية» العربية.

لكن ما المقصود بـ«تراث الإنسانية»؟ وبأي معنى تم تحديده وتأطيره كي يتم وفقه اختيارات الكتب وتكليف السادة المحررين بالكتابة عنها؟ ووفق أي منهج؟

«تراث الإنسانية»، هنا، كما تجلَّى في مواد هذه الموسوعة الكبيرة، بأيسر تعريفٍ وأبسطه، هو «مؤلفات كل الأمم لا أمة واحدة، وكل العصور لا عصر واحد، وكل الموضوعات لا موضوع واحد من العلم أو الأدب أو التاريخ أو القصة أو من أشتات علوم الرياضة والكيمياء وطبقات الأرض وفروع الطب والهندسة، وكل معرفة من معارف بني الإنسان في كل مطلب وكل موطن، وكل زمان.

ولا تُجمع مؤلفات التراث الإنساني لتخصَّص في موضوع كل تأليف، ولا بتسجيل تواريخها المتعاقبة بالترتيب والتبويب، لكنها تُجمع للذين يأخذون فكرة عن كل كتاب، وخلاصة وجيزة عن كل موضوع، ويقرؤونها كلما أرادوا القراءة غير ملتزمين فيها منهجًا غير

منهج التنويع والإلمام من الكثير الموزع بالقليل المجموع».

من هنا، تحدد محتوى دورية «تراث الإنسانية»، ليكون موضوعها الأساس إعطاء فكرة كلية مجملة، وخلاصة مركزة مكثفة، غير مخلة ولا منقوصة ولا قاصرة ـ للقارئ العادي والدارسين والباحثين على السواء ـ عن كل كتاب معدود بين أمهات الكتب الكبرى التي يجتمع منها تراث الإنسانية في أبواب الثقافة المختلفة، ومع هذه الفكرة العامة إلمامة سريعة ووافية بترجمة المؤلف لا تزيد صفحاتها وصفحات الخلاصة الموجزة للكتاب على خمس عشرة صفحة إلى نحو عشرين صفحة بقطع السلسلة (المجلة).

وضمت صفحات المجلة تحليلات عميقة ورصينة وموجزة ـ في الآن ذاته ـ لمختلف التيارات الفكرية والفلسفية والعلمية، ولكبار الكتاب الذين سطروا إبداعاتهم في تاريخ الحضارة العربية والإنسانية: ابن خلدون، وفولتير، وديدرو، وروسو، وهيجل، وابن طفيل، وابن رشد، والغزالي، وابن عربي، وسبينوزا... إلخ.

وأما الذين كانوا يحررون هذه المواد ويكتبون عن هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين، فكانوا من عينة عباس محمود العقاد، زكي نجيب محمود، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحليم منتصر، علي أدهم، إبراهيم الإبياري، عبد الحميد يونس، محمد القصاص، محمود فهمي حجازي، شوقي ضيف، عبد الحليم محمود، محمود علي مكي، نبيلة إبراهيم، محمد عناني، صوفي عبد الله، نظمي لوقا.. وعشرات وغيرهم، وكلهم فعلًا من صفوة العقول المصرية والعربية في مختلف التخصصات، أو بحسب التعريف بهم على غلاف الأعداد القديمة «الصفوة المختارة من الكتاب والعلماء والأدباء» في كل التخصصات.

ويلفت النظر أن اختيار الأسماء التي كانت تُستكتب أو تُدعى للإسهام في مواد هذه «المجلة/ الموسوعة» لم تكُن عشوائية أو مجرد اختيار كيفما اتفق، بل كان يتم اختيار هذه الأسماء وفق رؤية واعية وحاجة علمية تتفق والهدف من هذه السلسلة، فلن يَكتب مثلًا عن «السير الشعبية العربية» إلا خبير متخصص مثل المرحوم عبد الحميد يونس، أو واحد من أكبر دارسيها والمتعمقين فيها مثل فاروق خورشيد، ولن يكتب عن «الدراما الإغريقية» و«المسرحيات اليونانية القديمة» إلا مسرحي قدير وافر المعرفة بهذا التراث مثل المرحوم د. إبراهيم سكر.. وهكذا.

هكذا، مثَّلت هذه المجلة وموادها الشائقة الممتعة موردًا عظيمًا ومدخلًا تعريفيًّا ممتازًا بروائع التراث الإنساني، شرقًا وغربًا، منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث. وكم كان رائعًا ومثيرًا للاهتمام والفضول معًا أن يطالع القارئ اسمًا بقيمة زكي نجيب محمود يكتب، مثلًا، عن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، أو يقرأ لعبد الرحمن بدوي دراسة مركزة وافية عن الكتاب الخالد «حي بن يقظان».. أو يجد الدكتور عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر الراحل، يعرّفه بكتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي، أو كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، أو بغيرهما من متون التصوف الكبرى ونصوصه الرائعة.

ومثل ذلك كثير وغزير، بعبارة سهلة، وعرض بسيط وشارح للأفكار الصعبة، دون الانزلاق إلى فخ التسطيح والابتسار والاختزال المخل.

سلسلة تحمل هذا الاسم الضخم وتهدف إلى تحقيق هذه الغاية الخطيرة، ويشرف على تحريرها نخبة من الأساتذة المشهود لهم بالكفاية والدراية والعلم الغزير؛ كان لا بُدَّ أن تُعتبَر مرجعًا مهمًّا وضروريًّا لكل طالب وباحث عن المعرفة، خاصة إذا كان من المقبلين على القراءة الشغوفين بالتعرُّف إلى أهم وأبرز ما أنتجته البشرية عبر تاريخها وعصورها المتعاقبة.

عن «أعلام العرب»..
و«روائع الأدب العالمي للناشئين»!

«تراث هيئة الكتاب» سلسلة معنية بإعادة طبع ونشر أهم العناوين التي صدرت عن الهيئة العامة للكتاب خلال نصف القرن الماضي، خاصة تلك التي صدرت في إطار سلاسل جماهيرية رائجة وشهيرة مثل «أعلام العرب» و«المكتبة الثقافية» و«روائع الأدب العالمي للناشئين». وكان من المقرر أن تصدر عن هيئة الكتاب في صيف ٢٠١٥م لولا أن حالت حوائل وظروف دون ظهور السلسلة إلى النور!

(وكلمة «تراث» هنا لا تحيل إلى «التراث القديم» بالمعنى الشائع، بل إلى مُضي فترة زمنية طويلة منذ صدور الطبعة الأولى لهذه العناوين).

كان الهدف المقرر من هذه السلسلة تيسير طبعات حديثة من كتب نفدت ولم يُعَد طبعها منذ أكثر من ٣٠ عامًا، على الرغم من مطالبات كثير من المثقفين والقراء بإعادة نشرها، تركز السلسلة على إعادة نشر أهم الكتب التي صدرت في السلاسل الثلاث السابق ذكرها، مع إمكانية التوسُّع في إعادة طبع بعض الأعمال ذات الطبيعة الخاصة[١].

(١) الكتب التذكارية القديمة، كتب المناسبات التاريخية الكبرى؛ مثل الاحتفال بألفية القاهرة.

فكرة إعادة طبع الكتب المهمة التي صدرت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ليست جديدة، وكثيرون من الكتاب والمثقفين والشخصيات العامة (منهم فضيلة شيخ الأزهر) طالبوا بها أكثر من مرة، على المستوى الشخصي، سنوات طويلة (منذ كنتُ طالبًا في الجامعة) وأنا أحلم بإعادة طبع مثل هذه الكتب العظيمة التي صدرت في سلاسل عريقة مثل: «أعلام العرب» و«المكتبة الثقافية» و«روائع الأدب العالمي للناشئين»..

واسمحوا لي أن أخص سلسلة «أعلام العرب» بحديث مستقل، فلها في نفسي وفي نفوس عارفي قدرها الكثير والكثير.

أول ما وقع منها تحت يدي: كتاب «الإمام محمد عبده.. عبقري الإصلاح والتعليم» لعباس محمود العقاد، وللصدفة كان الكتاب هو الأول الذي استهلت به السلسلة ظهورها في ٧ يناير ١٩٦٢م، وكتب لها المقدمة المرحوم ثروت عكاشة، وجاء تعريفها على ظهر الغلاف الأخير بالصيغة التالية: «أعلام العرب.. مكتبة الثقافة الحية التي تُسهم في اشتراكية الثقافة بقروش زهيدة، تصدر شهريًا عن إدارة الثقافة والإرشاد القومي، للإسهام في التعريف بنوابغ المفكرين من أعلام العرب».

حققت السلسلة نجاحًا مذهلًا بمجرد صدور الكتاب الأول، ونفدت الطبعة من الأسواق، ما دفع وزارة الثقافة إلى إصدار طبعة ثانية من الكتاب الأول «محمد عبده»، كتب لها مقدمة جديدة وزير الثقافة آنذاك محمد عبد القادر حاتم، قال فيها: «يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الطبعة الثانية من هذه السلسلة الناجحة التي تُترجم لأعلام العرب الذين حملوا مشعل الحضارة وارتادوا آفاق العلم، وشاركوا بتراث الإنسانية بأوفر نصيب».

خلال الفترة بين ١٩٦٢ و١٩٧٢م، صدر من «أعلام العرب» ما يقرب من مئة كتاب، شكلت في مجموعها مكتبة زاخرة وعظيمة عن مئة شخصية وعلم بارز في تاريخنا العربي، عكف على تأليفها وإخراجها للناس صفوة الكتاب والمتخصصين في الأدب والتاريخ والعلوم والموسيقى والفلك والفنون. كل كتاب مثل «موسوعة» صغيرة، دائرة معارف حقيقية حول الشخصية التي يُترجم لها، السياق التاريخي الذي نشأت فيه، وعرض وافٍ لسيرتها وأبرز ملاح تفوقها ونبوغها مع إضاءات كاشفة حول إنجازها وأثرها في مجالها الذي برزت فيه.

هكذا وفرت السلسلة للقارئ العادي والمتخصص، على السواء، معرفة واسعة وعميقة بشخصيات وأعلام تاريخنا العربي، قديمًا وحديثًا، من «محمد عبده» و«رفاعة الطهطاوي» و«عبد الله النديم» و«لطفي السيد» و«علي مبارك» إلى «معاوية» و«عبد الله بن الزبير» و«المختار بن أبي عبيد الثقفي» و«عبد الملك بن مروان» و«الوليد بن عبد الملك» و«أبو جعفر المنصور» و«العزيز بالله الفاطمي»، وصولًا إلى أبرز وأهم حكام مصر الإسلامية عبر العصور منذ الفتح العربي: «عبد العزيز بن مروان»، «أحمد بن طولون»، «العزيز بالله الفاطمي»، «صلاح الدين الأيوبي»، «الظاهر بيبرس»، «السلطان قلاوون»، «الناصر محمد بن قلاوون»، «الأشرف قانصوه الغوري».. بالتوازي مع شخصيات دينية وفلاسفة وعلماء وفقهاء ومؤرخين ومتصوفة؛ مثل: «عبد الرحمن بن خلدون»، «عبد القاهر الجرجاني»، «الكندي الفيلسوف»، «الكندي المؤرخ»، «أبو العلاء المعري»، «الجويني إمام الحرمين»، «أبو حيان التوحيدي»، «محيي الدين بن عربي»، «عمر بن الفارض»، «السيد البدوي»، «أبو الحسن الشاذلي»... إلخ.

تعبت كثيرًا في تجميع أعداد سلسلة «أعلام العرب»، واستغرقت وقتًا طويلًا، حوالي ٧ سنوات، كي أستكمل أهم أعدادها، منذ كنت طالبًا في المرحلة الثانوية وحتى تخرجت في الجامعة، كنت أقتني خلالها عددًا بعدد أو عددين معًا، وكانت حالتها سيئة، الورق قديم ومهترئ وتحت عصف الزمن، والتراب كانت أقل لمسة غير محسوبة للورقة تنقصف وتتفتت تمامًا!

وفي «أعلام العرب»، قرأتُ كتبًا لا أنساها؛ سواء بموضوعها أو مادتها أو مؤلفها: «المعتمد بن عباد» و«أبو جعفر المنصور» و«عبد الرحمن الناصر» مثلًا للمرحوم علي أدهم، أتذكر أنني قرأت هذه الكتب أكثر من مرة، ولم تقلّ متعتي في أيٍّ منها، متعة المعرفة والمعلومة التاريخية والسرد التاريخي والتعرُّف إلى حقب مهمة في تاريخنا كأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا شائقًا لا أريده أن ينتهي أو تتوقف مشاهده.

أذكر أنني قرأت أيضًا «صلاح الدين الأيوبي» و«الظاهر بيبرس» و«السيد البدوي» للمؤرخ الراحل الكبير سعيد عبد الفتاح عاشور، وكم أكبرت هذا الرجل وقدَّرت واسع علمه ولغته البسيطة، وكانت هذه الكتب سببًا في البحث عن بقية أعمال ومؤلفات سعيد عاشور، خاصة أعماله الكبرى عن تاريخ الحركة الصليبية، وكتبه التي أرَّخ فيها للفترة المملوكية في مصر والشام عدا ترجماته عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

كانت كل الكتب التي صدرت في أعلام العرب تُكتب خصيصًا للسلسلة بتكليف خاص للسادة المؤلِّفين، كلٌّ في تخصصه، تقدم مادة غزيرة جدًّا ومتنوعة دون أن تتخلى عن سهولة العرض وسلاسة اللغة، ولهذا فإن كل من قرأ منها شيئًا يدرك يقينًا قيمتها وأهميتها ومدى

الحاجة الملحة لإعادة بعثها وطباعتها مجددًا وإتاحتها لأجيال وأجيال من الشباب المصري والعربي.

«روائع الأدب العالمي للناشئين»
مغارة «الروايات» العجيبة!

تبدو السنوات العشر الأولى في حياة كل منا فترة تأسيسية شديدة التأثير؛ فهي توجِّه إلى حد كبير مسارات التفضيل الشخصي وبذور التكوين التي يترتب عليها ما سيكون عليه الإنسان في بقية عمره، ففيها يظهر إلى حدٍّ مدهش ميول الشخص الفنية أو الثقافية أو الرياضية.. أو غيرها، وفيها أيضًا إما أن يترسَّخ سلوك القراءة ويصبح طقسًا يوميًّا لا يفارق الإنسان في رحلة حياته، وإما أن تنازعه رغبات ودوافع أخرى تتجه به إلى مسلك أو طريق لا تبدو فيه للقراءة حظ أو نصيب!

تكاد البدايات تتشابه، يكاد يُجمع كلٌّ من أدمن القراءة واحترف مطالعة الروايات وكتب الآداب والفنون، على أنها بدأت بمجلات الأطفال وكتب الجيب، وسلاسل المغامرات والقصص البوليسية[1]..

ثم في لحظة ناعمة خاطفة ينتقل الواحد منا من هذا العالم الجميل البريء الخالي من المنغصات والتفكير العميق في ما نقرأ إلى «دهشة» التعرُّف الحقيقية إلى إبداعات الإنسان، عبر الزمان والمكان، لا يدرك المرء أنه خطا الخطوة الأولى في رحلة التذوق والإدراك الجمالي للإبداعات

---

(١) كنت من الذين عاصروا مولد سلاسل روايات مصرية للجيب التي أطلقتها المؤسسة العربية الحديثة لصاحبها ومديرها حمدي مصطفى، عليه رحمة الله، وكنتُ من الذين أدمنوا قراءة «رجل المستحيل» و«ملف المستقبل» و«المكتب رقم ١٩» و«ع × ٢» و«كوكتيل ٢٠٠٠».

المختلفة، لكنه في كل الأحوال يكون قد اجتاز الخط الفاصل من مجال التسلية وإمضاء الوقت إلى البحث عن المتعة المبررة والمعرفة الجمالية والوعي الذي لن يعود إلى النقطة التي كان عليها وانطلق منها أبدًا.

أقول هذا بمناسبة الحديث عن سلسلة رائعة كانت تصدر في عقد الثمانينات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وصدرت منها أعداد ليست بالقليلة إبّان التسعينات ضمن مشروع مكتبة الأسرة، كان اسمها «روائع الأدب العالمي للناشئين»، وكانت تصدر في حجم الجيب مطبوعة على ورق أصفر بفونت الهيئة القديم(1) ويباع العدد الواحد منها بـ٨٠ قرشًا!

لعبت هذه السلسلة دورًا عظيمًا في تيسير عيون الرواية العالمية إلى العربية، خاصة أنها كانت مناسِبة للفئات العمرية التي تبدأ من سن ١٠ سنوات وحتى ٢٠ سنة. وأذكر أنني اقتنيت كل أعدادها القديمة (قبل صدور أعداد منها في مكتبة الأسرة) خلال الفترة من منتصف الثمانينات وحتى توقفت تقريبًا في منتصف التسعينات، ومن خلالها قرأتُ للمرة الأولى أعمالًا مدهشة، فاتنة، وكنت كمن دخل مغارة علي بابا ووجد فيها الياقوت والمرجان والزبرجد وكل نعم الله من المجوهرات والنفائس التي لا تقدَّر بمال.

هكذا انفتحت أمامي مغارة الروايات العجيبة، وكانت المرة الأولى التي أقرأ فيها باستمتاع «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل، وأتابع بشغف ذهبي ما فعلته الحيوانات الثائرة لئلَّا يعود السيد جونز صاحب المزرعة المطرود، أكاد أبكي وأنا أرى ما فعلته الخنازير وهي تستبد بحكم المزرعة،

(١) فونت كتب الحكومة الذي كان يشبه شكل الكتابة على الآلة الكاتبة!

وبعد أن تسببت في موت الحصان العجوز «بوكسر»[1].

هكذا أيضًا كنت أخوض المغامرات الشائقة مع «الفرسان الثلاثة» لألكسندر دوماس، وأرقب بعين اللهفة «ثورة على السفينة بونتي» لويليام بلاي، وأسافر عبر «آلة الزمن» لهربرت جورج ولز، وأبحث عن «الرجل الخفي» له أيضًا، وأرتحل مع جول فيرن في ثلاثيته البديعة «عشرون ألف فرسخ تحت الماء»، و«حول العالم في ثمانين يومًا»، و«رحلة إلى مركز الأرض».

وأسعى بفضول حارق لاكتشاف «كنوز الملك سليمان» لسير هنري رايدر هاجارد، ويكاد قلبي يتوقَّف من الإثارة مع «هي أو عائشة» و«ابنة الزعيم مونتزيوما» له أيضًا، أكاد أموت من الرعب مع «دكتور جيكل ومستر هايد». وعندما كنت أريد أن أتخفف من وطأة الخوف الذي يتلبَّسني من قراءة «فرانكنشتاين»، أهرب سريعًا إلى «مغامرات شيرلوك هولمز» لآرثر كونان دويل، و«مغامرات هكلبري فن» و«مغامرات توم سوير» لمارك توين، و«جزيرة الكنز» و«المخطوف» و«السهم الأسود» لروبرت لويس ستيفنسون.

كنت أنفصل عن العالم وما فيه وأنا أقرأ «سجين زندا» و«روبرت أوف هنتزو» لأنتوني هوب، و«نداء البراري» لجاك لندن، و«بعيدًا عن الناس» لتوماس هاردي، وكانت «روبنسون كروزو» لرائد الرواية الإنجليزية دانييل ديفو لا تفارقني (لا أتذكر عدد المرات التي أعدتُ قراءتَها فيها)، و«البحيرة الزرقاء» لـ«هـ. دي فير ستكابول. لا أنسى

(١) لم يكُن في ذهني على الإطلاق أي إسقاطات أو معانٍ أو دلالات مما أدركته بعد ذلك، وبعد أن قرأت الرواية كاملة في ثلاث ترجمات عربية على الأقل.

كتاب ليزلي ليفيت الجميل «رجال عظام ونساء عظيمات»[1].

تذكرتُ هذه السلسلة وأنا أشاهد كثيرًا من الشباب تخطَّوا العشرين من عمرهم ولم يسمع الواحد منهم بـ«حكاية مدينتين» أو «دافيد كوبر فيلد» أو «أوقات عصيبة» و«آمال كبرى» لرائد الرواية الإنجليزية تشارلز ديكنز، أو طالعوا «الأرض الطيبة» لبيرل بك، أو روايات روبرت لويس ستيفنسون، أو غيرها من روائع الآداب العالمية، على الرغم من وجود العشرات من الطبعات والسلاسل في مصر والعالم العربي، التي طبعت هذه الأعمال عشرات المرات.. السؤال إذن: أين تكمن القيمة الحقيقية لمثل هذه السلسلة الفذة؟ وما الذي أدته بالضبط؟

ببساطة كانت غاية هذه السلسلة[2] جذب الناشئة والشباب إلى قراءة روائع الآداب العالمية في طبعات مبسطة، ميسرة، بسعر زهيد، تهيئهم أولًا للإقبال على قراءة أعمال أدبية وقصص عالمية بأسلوب سهل يخلو من التعقيد ويحافظ على عنصري التشويق والإثارة، وثانيًا: التمهيد لقراءة هذه الأعمال كاملةً في ما بعد في ترجماتها العربية الكاملة. وأظن أنها حققت هدفها بامتياز وجدارة.

كانت هذه المرحلة (ما بين العاشرة والخامسة عشرة) خطوة فارقة وحاسمة في تهيئتي للانتقال من قراءة الكتب الخفيفة إلى قراءة الأعمال الأدبية الكبرى في طبعاتها الكاملة، وترجماتها الشهيرة، هكذا وبسبب هذه السلسلة الجليلة قرأت النصوص الكاملة لعيون الرواية العالمية

---

(١) كان سببًا مباشًرا ورئيسيًّا في اقتناء مجموعة ضخمة من كتب السِّيَر وتراجم العظماء تحتل مكانها في مكتبتي منذ أكثر من عشرين سنة.

(٢) كان يقوم بترجمتها ومهمة تبسيط أعمالها رجال ومترجمون أفذاذ من عينة محمد العزب موسى ومختار السويفي وصبري أبو الفضل والشريف خاطر وعبد الحميد فهمي الجمال وآخرين.

في سن مبكرة، وتكونت معرفةٌ أولى معقولة بفن الرواية في تجلياتها العالمية ومن خلال نماذجها المكتملة (الكلاسيكية)، وأظن أنه لولا هذه السلسلة والدور العظيم الذي لعبته ما كان تهيَّأ لي ولا لأبناء جيلي التعرُّف إلى أعمال من عينة:

«إيفانهو» للبريطاني سير والتر سكوت[1]، «جين إير» لشارلوت برونتي، «مرتفعات ويذرنج» لإميلي برونتي، «مون ستون» لويكلي كولينز، «عائلة من سويسرا» ليوهان فايس، «توم جونز» لهنري فيلدنج، «آنا كارنينا» لتولستوي، «أرواح شريرة» لهنري جيمس، «عناقيد الغضب» و«لؤلؤة» لجون شتاينبك، «صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد، «أوليفر تويست» لتشارلز ديكنز، «عالم رائع جديد» لألدوس هكسلي، «مون فليت» لـ«ج. ميد فوكنر».. وغيرها كثير.

(١) رائد الرواية التاريخية الرومانسية في القرن التاسع عشر.

تاريخ البشرية من الألف إلى الياء.. بتوقيع هربرت جورج ويلز!

تعود شهرة الكاتب الإنجليزي هربرت جورج ويلز - في العالم العربي - إلى كتاباته الأدبية والقصصية؛ خاصة في دائرة الخيال العلمي، وقد تُرجمت أعماله الشهيرة إلى اللغة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، مثل: «الرجل الخفي»، و«آلة الزمن»، و«أول رجل على سطح القمر»، فضلًا عن رواياته وأعماله الأخرى التي تمت ترجمتها على مراحل زمنية متفاوتة.

لكن قليلًا من القراء قد طالعوا ويلز «العالِم» و«المفكر» و«المؤرخ» و«المصلح الاجتماعي»؛ خاصة في موسوعته التاريخية الكبرى **«معالم تاريخ الإنسانية»** (Outline of History)، وموجزه الأشهر **«موجز تاريخ العالم»**..

في سلسلة «ميراث الترجمة»، أعاد المركز القومي للترجمة في مصر إصدار طبعة جديدة من هذا الكتاب/ الموسوعة «معالم تاريخ الإنسانية»، في أربعة مجلدات من القطع الكبير، قام بترجمتها والتعليق عليها وكتابة حواشيها المترجم الراحل القدير عبد العزيز توفيق جاويد، ولعل أعظم

ما تركه «ويلز» من مؤلفات خارج دائرة الأدب (وإن لم يفارق روحه ولا المتعة الملازمة لقراءته): كتابه «**المعالم**»، وصنوه الوجيز والأكثر شهرة وانتشارًا: «**موجز تاريخ العالم**» (المنشور عام ١٩٢٩م).

قبل ثلاثة وعشرين عامًا من صدور هذه الطبعة، اقتنيتُ للمرة الأولى هذا الكتاب (طبعة الهيئة العامة للكتاب، في ورق أصفر رديء للغاية، وتجليد سيئ، وكانت الملازم مفككة وحالها ما يعلم به إلا ربنا، وإن كانت أغلفتها صراحةً أجمل وأكثر جاذبية من الطبعات التالية لها)، وكان غريبًا بالنسبة لي أن أقرأه كله في فترة ليست طويلة (حوالي أسبوعين)، وجذبني المجلد الثاني بالأخص الذي روى فيه «ويلز» قصة العبرانيين واليهود والديانات السماوية الكبرى، بأسلوب سردي رائع للدرجة التي عاودتُ فيها قراءته أكثر من مرة.

الكتاب ـ كما يدل عليه اسمه ـ وكما عرَّف به مترجمه «موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروي قصتها الأديب الإنجليزي الشهير (ج. هـ. ويلز)». والطبعة العربية من هذا الكتاب صدرت في أربعة أجزاء ضخام، يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره، ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المندثرة. ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة (وتقسيماتها) لأقدم الحضارات في مصر والعراق والهند.

أما الجزء الثاني، فيعرض للحضارات الإغريقية والهلينستية والرومانية بالتعاقب. ولمحة عن تاريخ العبرانيين (اليهود)، أما الجزء الثالث فيُعنى بحضارات العصر الوسيط، ويتناول الجزء الرابع الأخير التاريخ الحديث حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م.

إذن، فالكتاب، ومن تخطيطه العام، محاولة جادة وطموح لإيجاد صلة بين شعوب الأرض جميعًا، دعمًا لفكرة مؤلفه ومذهبه الاجتماعي الإنساني عن «الدولة العالمية»، وطريقة جديدة في دراسة التاريخ وتفسيره، باعتباره قصة مستمرة، متصلة الحلقات، ذات صبغة تطورية واضحة، قصة تروي تاريخ الكائنات: الإنسان والحيوان والنبات والأرض، وليست مجرد سرد الحوادث التاريخية والوقائع الحربية والصراعات السياسية، والأمجاد الاستعمارية؛ فـ«ويلز»، مثله مثل معاصره برنارد شو، يكره الاستعمار والمستعمرين ويسخِّر جهوده للسخرية منهم والزراية بهم.

وعلى الرغم من مآخذ كثيرة يمكن أن يتوقَّف عندها دارسو التاريخ ومتخصصوه، في التناول والرؤية وإيراد المادة العلمية، فإن كتاب «ويلز» يعد واحدًا من الكتب التي لا غنى عنها كمدخل مناسب وصالح للتعرُّف إلى التاريخ العام للبشرية، سواء في انتقاء موضوعاته، أو طريقة عرضها، أو السرد التاريخي الذي راعاه.

ذلك أن كتاب «المعالم» ـ في حدود الهدف الذي رُسم له ـ مركَّز تركيزًا ليس وراءه زيادة لمستزيد، إن هذا الكتاب تاريخ أكثر تفصيلًا وتخصيصًا من «الموجز»، أقيم على خطة أخرى وحُرِّر تحريرًا جديدًا، يقدِّم فيه صاحب «آلة الزمن» إلى القارئ، بأبسط الطرق وأوضحها، بيانًا شافيًا بمعارفنا التاريخية حتى وقته، وبحيث يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكوَّن منها الهيكل الذي لا بُدَّ منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ منطقة جغرافية بالذات.

وكان ذلك كله مدعومًا بالخرائط والمصورات الزمانية والجداول التاريخية الشارحة، وبما يعين على استجلاء المغامرة العظمى للجنس البشري عبر التاريخ.

«موجز تاريخ العالم».. رحلة عبر الزمن في ذاكرة البشريَّة

عن دار «أقلام عربية»، صدرت طبعة حديثة من كتاب «ويلز» الشهير «موجز تاريخ العالم»، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد. العماد الأكبر في وضع مثل هذا التأليف، بشكل أساس، هو معرفة الإنسان بالتاريخ وأحوال البشر، وما تجمَّع له على مر السنين من آراء وأنظار، وما استخرجه بنفسه من ملاحظات وهو يقلِّب صفحات تاريخ هذه الأرض ومن عليها، لكن بصبغة علمية تطورية لا تخلو من حس إنساني رهيف وروح إصلاحية عارمة كانت سمة بارزة تسم مجمل إنتاج «ويلز».

ويكشف «ويلز» بوضوح، ودون مواربة، عن أن هدفه من هذا الكتاب (الموجز لتاريخ العالم) أن يُقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات؛ إذ يقدِّم إلى القارئ - بأبسط الطرق وأهمها - بيانًا بمعارفنا التاريخية الراهنة، مجردة من التفصيلات والتعقيدات. كما يُراد منه أن يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكوَّن منها الهيكل الذي لا بُدَّ منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قُطرٍ بالذات.

وهو، في الوقت ذاته، توطئة نافعة تمهِّد للقارئ الاضطلاع بمطالعة شقيقه الأكثر جلاءً واستيفاءً، الموسوم بـ«Outline of History» للمؤلف نفسه.

ومع ذلك، فإن الغاية الرئيسية منه، بحسب مترجمه، هي سدُّ حاجة القارئ العادي كثير المشاغل، الذي يضيق وقته عن الانقطاع لدراسة تفصيلية لما في «المعالم» من خرائط ومصورات زمانية وجدولية، والذي يرغب في تجديد ما يبقى في مخيلته من صورة زاوية مضمحلة للمغامرة العظمى للجنس البشري.

إن «ويلز» ـ في كتابه هذا ـ كان ينطلق من رؤية إنسانية «تطورية» إذا جاز التعبير، وكان واعيًا بأن التاريخ لا يعيد نفسه، ولا يكرر ذاته لاختلاف ظروف الناس والأمم والأحوال، وكان واعيًا أن هناك قوانين عامة؛ البعض يسميها «فلسفة التاريخ»، والبعض يطلق عليها «أحكام التاريخ»، لكنها في النهاية لا تخرج عن كونها قوانين عامة تعمل أحكامها إذا تجمعت عناصر وعوامل تستدعي مثل هذه الأحكام.

بهذا المعنى، فالتاريخ ليس علم الماضي وحده، وإنما هو، عن طريق استقراء قوانينه، علم الحاضر والمستقبل أيضًا، أي أنه علم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون. وفي ثنايا عرضه «الموجز» لتاريخ البشرية منذ أقدم العصور وحتى كتابة الكتاب (١٩٢٩م) ستلحُّ عليه قضايا إنسانية وفكرية، مثل: حرية الشعوب ومناوَءَة الاستعمار، العدل الاجتماعي، الديمقراطية وتطوير الأنظمة النيابية... إلخ.

إن «موجز تاريخ العالم»، بموضوعه ومنهجه ومؤلفه، يتيح لقارئه أن يستقل «آلة الزمن» ليجوب بالزمان والمكان بقاعَ العالم التي شهدت ثقافات وحضارات متنوعة في عصور مختلفة، فيتوقف في كل محطة ويتعرَّف إلى ثقافة أهلها وثروتهم الحضارية، ويستحق أيضًا أن يحتل مكانه المعتبر في مكتبة تراث الإنسانية منذ صدوره وحتى الآن.

هوامش ذاتية على ترجمات رفيعة!

أستهل هذا الفصل بدعوة وأمنية!

أما الدعوة، فإنني من هنا، ومن خلال منبر كلية الألسن التي أسسها الرائد الأول رفاعة الطهطاوي، والمترجم الأول في تاريخنا الحديث؛ أدعو إلى كتابة تاريخ مفصل لـ«الترجمة والمترجمين المصريين منذ بداية العصر الحديث وحتى الآن».

وليس هناك من داعٍ للاستفاضة في بيان القصور الفادح والفراغ الرهيب الذي نعانيه من غياب قاعدة بيانات كاملة ودقيقة ومستوفية للمترجمين المصريين (ولن أقول العرب حتى لا يتسع الرتق على الراقع أكثر ممَّا يعانيه!)، فضلًا عن توافر تاريخ تفصيلي لحركة الترجمة عن اللغات كافة إلى العربية، ومعاجم مستقصية لأعلام الترجمة والمترجمين عبر ما يقرب من قرنين من الزمان!

أما الأمنية (أو الحلم) فأن أجد جيلًا، بل أجيالًا، من المترجمين الأكْفاء، المؤهلين لغويًّا وثقافيًّا وإنسانيًّا، كي يكونوا بحق حَمَلة مشاعل النور، وجسور العبور، وتراجمة العصر نحو المستقبل؛ ولن أملَّ من ترديد وتكرار أنه لا أملَ في الخروج من الأنفاق المظلمة وفترات الالتباس والتردي إلا بالعلم والمعرفة.. أكرر: العلم والمعرفة، قبل أي شيء آخر.

لقد ساءني مثلًا أنه على مدار أكثر من ربع قرن، وأنا أبحث عن أي معلومات سيرية عن المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد الذي طالعتُ اسمه للمرة الأولى عام ١٩٩٥م على غلاف الكتاب العظيم «معالم تاريخ الإنسانية»، فلم أجد كلمة واحدة تبل الريق وتشفي الغليل! وهو واحد من أعلام حركة الترجمة المصرية والعربية في القرن العشرين بلا جدال، وإن لم يأخذ حظه الواجب والمستحق من الشهرة والتقدير والتكريم حتى الآن!

كنت في الصف الأول الثانوي بالمدرسة السعيدية المجاورة لجامعة القاهرة، وكنت أنتهز قربها من ميدان الجيزة لأتوجه، عقب خروجي من المدرسة، إلى مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب التي تحتل ناصية شارع مراد الشهير في قلب الميدان.

هناك، كنت أقضي أوقاتًا أنسى فيها الدنيا وما فيها، أستمتع بملمس الكتب وأغلفتها ورائحتها المميزة، كانت هي كوني المصغَّر، وفيها تفتَّحت خلايا الاستقبال المعرفي والمدارك العقلية بمتابعتي كل ما أستطيع الحصول عليه من كتب، اقتناءً وقراءةً.

في ذلك الوقت، كانت تصدر سلسلة «الألف كتاب الثانية» برئاسة المرحوم لمعي المطيعي، وكانت في أوج نشاطها، لم يكُن يمر الشهر حتى يصدر كتاب وكتابان، بل ثلاثة أو أكثر. وذات ظهيرة من شهر سبتمبر عام ١٩٩٥م، وجدت أمامي الجزأين الأول والثاني من كتاب اسمه «معالم تاريخ الإنسانية» للبريطاني الشهير هربرت جورج ويلز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد.. إيقاع الاسم مميز جدًّا، لكنها المرة الأولى التي أطالع فيها هذا الاسم، فلم يكُن حتى ذلك الحين من أسماء

المترجمين المشهورين ما يتجاوز أسماء محمد عناني[1] أو الذين ترجموا الأعمال الأدبية الكلاسيكية العالمية الأخرى..

لفتني الكتاب، وعنوانه، وغلافه، فقررت اقتناءه فورًا.. واستغرق الأمر مني عدة أيام متصلة حتى أستطيع أن أدَّخر من مصروفي ثمن الجزأين معًا. وكانت سعادتي غامرة حينما عدت بهما إلى البيت بعد أن اشتريتهما من المكتبة، ولشدة شغفي وفضولي، في هذا اليوم، عكفت على قراءة المقدمة وفصول كاملة من الجزء الأول، ثم مقدمة الجزء الثاني وأكثر من نصف حجمه.

ولا أنسى أبدًا هذه السياحة المعرفية ولا التاريخية المذهلة التي قطعتها مع «ويلز» ناطقًا بالعربية بسرده بأسلوبه الجذاب السلس قصة البشرية من الألف إلى الياء. في ذلك الوقت لم أكُن مشغولًا أبدًا بأي أسئلة تتعلَّق بجودة الترجمة، ولا دقّتها ولا مَن هو أساسًا الذي أنجزها، لكن وبصورة غامضة وضبابية، أدركتُ أنني إزاء عَلَم كبير في الترجمة، أقرأ ترجمتَه بلغة عربية ناصعة، غاية في حسن البيان والجمال والفخامة معًا، كأن ما أقرؤه ابن الثقافة العربية قلبًا وقالبًا، وليس مترجمًا بالمعنى الحرفي للكلمة، كما يتبادر إلى الأذهان.

خلال الفترة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٠م، تراكم عندي ما لا يقل عن عشرة كتب رائعة مترجمة وموقعة باسم العظيم عبد العزيز توفيق جاويد؛ كم كان القائم على مشروع «الألف كتاب الثاني» مثقفًا حقيقيًّا وذكيًّا في اختياراته وانتقاءاته التي انصبَّت دون ضجيج على إحياء وبعث روائع الترجمات التي تم إنجازها خلال الفترة من أربعينات القرن العشرين وحتى نهاياته!

---

(١) بترجماته الأشهر لكلاسيكيات الأدب الإنجليزي، خاصة مسرحيات شكسبير.

وهكذا قرأت معالم تاريخ الإنسانية (في ٤ مجلدات)، وصنوه الموجز «موجز تاريخ العالم»، وكلاهما للبريطاني الشهير هربرت جورج ويلز، ثم وجدتني مستمتعًا ومنهمكًا في قراءة تلك السلسلة الباذخة غزيرة المعرفة وافرة العمق واسعة الإحاطة والشمول عن تاريخ العصور الوسطى، وتاريخ الحضارة الإنسانية في حلقاتها المتصلة المتتابعة، وصولًا إلى العصر الحديث؛ من قبيل:

«الحضارة الهلينستية» لـ«و. و. تارن»، و«الحضارة البيزنطية» لستيفن رانسيمان، و«ميلاد العصور الوسطى» لموص، و«اضمحلال العصور الوسطى» لهويزنجا، و«حضارة الإسلام» لجوستاف جروينباوم، و«التاريخ وكيف يفسرونه.. من كونفشيوس إلى توينبي» لألبان ويدجري، و«آسيا والسيطرة الغربية» لـ«ك. م. بانيكار»، وتوَّج هذه المرحلة من ترجماته التاريخية الرائعة بموسوعة «ويلز» الكبرى «معالم تاريخ الإنسانية» في ٤ مجلدات، ومختصره الأشهر «موجز تاريخ العالم»..

وفي الفنون والإبداع، ترجم أيضًا: «التربية عن طريق الفن» لهربرت ريد، والموسوعة الفنية الإبداعية الضخمة «التطور في الفنون» في ثلاثة مجلدات.. كما ترجم أيضًا الملحمة الشعرية الشكسبيرية الرائعة «فينوس وأدونيس»، وغيرها كثير.

إضاءات على ترجمات منتقاة

سأكتفي بالإشارة ـ مجرد إشارة ـ إلى عينة من هذه العناوين الكبرى، القيمة، الجليلة التي ترجمها باقتدار وتمكُّنٍ رفيع المستوى من اللغتين:

المنقول منها (الإنجليزية) والمنقول إليها (العربية)، المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد.

سأبدأ بكتاب «ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ ـ ٨١٤»، وهو من تأليف «هـ. سانت. موص»، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، وراجعه مؤرخ العصور الوسطى الكبير المرحوم الدكتور السيد الباز العريني، صدرت طبعته الأولى ضمن سلسلة «الألف كتاب الأولى» تحت رقم ٦٢٣ عام ١٩٦٧م، ثم أعادت الهيئة المصرية للكتاب طبعه مرة أخرى ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني تحت رقم ٢٨٥ في حدود العام ١٩٩٤ أو ١٩٩٥م، وعن هذه الطبعة اقتنيتُ نسختي الأولى من هذا الكتاب، وهو من أهم الكتب التي تتناول فكرة بداية العصور الوسطى، مع نشأة الدولة الرومانية الشرقية، وعاصمتها القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، مع تحليل وشرح لأوضاع أوروبا في هذه الفترة، فضلًا عن الإلمام بظهور الإسلام في المشرق، وتأثيره على المناطق التي امتدت فيها الإمبراطورية البيزنطية.

الكتاب الثاني للمؤرخ الشهير ستيفن رانسيمان، وهو كتاب «الحضارة البيزنطية»، ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد، وكتب له المقدمة المؤرخ الكبير الراحل الدكتور محمد شفيق غربال. وهذا الكتاب تحديدًا كان فيه ربما آخر إشارة للمرحوم عبد العزيز توفيق جاويد وهو على قيد الحياة (قبل وفاته، التي لا أعلم في أي سنة)؛ إذ كتب كلمة موجزة للإصدار الجديد[1]، قال فيها:

«يسرني أن أقدم لقُرَّاء العربية هذه الإصدارة الجديدة من كتاب الحضارة البيزنطية الذي اقترح أن تناط بي ترجمته إلى العربية أستاذنا الكبير

(١) كان ذلك في أبريل عام ١٩٩٦م.

محمد شفيق غربال ـ رحمه الله ـ وقد أحسنت الهيئة العامة للكتاب إذ قررت إعادة طبعه بعد أن مضى على طبعته الأولى نيف وثلاثون عامًا، لم يفقد الكتاب على طولها قيمته، بل ظل محتفظًا بالقشابة والفائدة والحداثة. ولا تزال المكتبة العربية ودارسو التاريخ يفتقدونه، بعد أن نفدت طبعته الأولى. وإني لأعيد إهداءه إلى القراء مقدمًا ثنائي العاطر على هيئة الكتاب، راجيًا أن يتقبَّله طلاب الجامعات والعارفون بفضل بيزنطة منار العلم والثقافة والأدب اليوناني على مدى قرون متتالية. ومن يمن الطالع أن ظهرت أمة العرب، فارتضعت جميع قديم بيزنطة الإغريقي واحتفظت به مترجمًا أو على صورته الأولى حتى جاء الأوان وامتدت يد أوروبا تحمل عن العرب تلك الشعلة. وتلك سُنة الله في خلقه».

أما كتاب «حضارة الإسلام» للمستشرق النمساوي الشهير جوستاف فون جرونيباوم (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢م)، فقد ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد، وراجعه المفكر والمؤرخ القدير عبد الحميد العبادي، طُبع طبعته الأولى بالقاهرة عام ١٩٥٦م في خمسمئة صفحة، وأعادت طبعه مكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م، ثم طبعته مرة أخرى عام ٢٠١٤م، والكتاب رؤية استشراقية منهجية شاملة للحضارة الإسلامية وتطورها من جوانب شتَّى، بدءًا من الدين، مرورًا بالدولة والقانون والنظام الاجتماعي والأدب والتاريخ.

ومن ترجمات المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد أيضًا، التي لا أنساها[1]: كتاب «حضارة عصر النهضة في إيطاليا» في مجلدين وافرين، من تأليف

---

(١) وإن كنتُ تحصَّلت عليها متأخرًا بعض الشيء في عام ٢٠١٠م، من خلال طبعة المركز القومي للترجمة ضمن سلسلة «ميراث الترجمة».

ياكوب بوركهارت[1]، وهو من أجلِّ الكتب في مجال التاريخ والجغرافيا والدراسات التاريخية التحليلية الوافية. ويقول «جاويد» في تقديمه للكتاب: «صدرت الطبعة الأمريكية لكتاب (حضارة عصر النهضة في إيطاليا)، ولم يكُن ياكوب بوركهارت يتكهَّن بأن هذه الدراسة التي قدمها بتواضع شديد، وسماها المقالة، ستصبح التفسير القاطع لحقبة عظيمة في التاريخ. ولم يكُن يتخيل أن كل مؤرخ ذي شأن لعصر النهضة سوف يحاول أن يمحو الصورة التي خلقها بوركهارت. ويندر أن يكون لأي عمل تاريخي الأثر المستمر الذي خلّفه بوركهارت بكتابه هذا».

ولكَ أن تتخيل - عزيزي القارئ - لِفَتًى في مستهل المرحلة الثانوية، ويتعرَّض لهذا الكم الهائل من الخبرة الشغوف بمثل هذه العناوين؛ فيقبل عليها قراءةً ومطالعةً ويتدفق كمٌّ هائلٌ من المعارف التاريخية والحضارية والإنسانية الغزيرة لم تكُن قيمتها الكبرى في ما احتشدت به وقدمته من معلومات وبيانات، إنما كانت في المقام الأول بما قدمته من رؤية منهجية وتصورات فكرية لتناول الظواهر الإنسانية؛ كان المترجم واعيًا كل الوعي بما يقدم ويترجم وكانت ثقافته من الإحاطة والشمول واتساع المعرفة ما يمكِّنه كل التمكُّن من إغناء ترجماته بالهوامش الشارحة والتعليقات الكاشفة، والمراجعات والتصويبات التي تكشف عن ولع مهووس بالدقة والجودة اللذين يصلان حد الكمال!

وأختتم كلامي أيضًا بدعوة.. دعوة للاحتفاء بكل ما قدمه المترجمون المصريون العظماء (المشهورون منهم، وهم قلة، والمجهولون، وهم كثرة!) فهناك أسماء مشرفة في تاريخ الترجمة المصرية والعربية الحديثة

(1) ابن شقيق المستشرق المعروف لويس بوركهارت.

قدمت وحدها وبمفردها ترجمات توازي ما يمكن أن تقدمه مؤسسات ضخمة بأكملها، وأتذكر جهود هؤلاء المخلصين الذين أفنوا أعمارهم في الترجمة وأنظر بإكبار وإجلال إلى دأبهم ومثابرتهم وما قدموه من أعمال وإنجازات وترجمات لا تُنسى قلَّما يتحقق الآن منها في زمن تتقافز فيه المعرفة تقافزًا أمام البشر لكن دون إدراك لقيمتها وأثرها!

إنني أترحَّم على هؤلاء الذين كانوا ذوي ثقافة هائلة، وعين نافذة، وإدراك واعٍ لحساسية اللحظة التاريخية والحضارية التي ينتمون إليها، ومن ثَمَّ جاءت اختياراتهم في الترجمة ملبية للحاجات ومقلِّصة لفجوات الغياب عن أهل الشمال مركِّزين غاية جهدهم على العناوين المهمة ذات الاعتبار والاقتدار والقيمة.. هذه السلسلة الذهبية الرفيعة، بدءًا من «رفاعة» وتلاميذه من الرعيل الأول، مرورًا بجيل النهضة والجيلين الثاني والثالث التاليين، التي شهدت أسماء عظيمة لكنها للأسف مجهولة ولم تأخذ حقها ولا مستحقها من الشهرة والتعريف والتقدير، مثل: أحمد فتحي زغلول، محمود محمود[1]، ثم عبد العزيز توفيق جاويد، وحسن عثمان[2]، ومن التالين لهم: طلعت الشايب، وشوقي جلال، وبشير السباعي، وغيرهم كثير.

---

(١) وهو الشقيق الأكبر للراحل الدكتور زكي نجيب محمود.
(٢) الذي ترجم الكوميديا الإلهية لدانتي.

نور الحضارة الغربية..
العقل في مواجهة الخرافة

عندما رست سفن المغامر الأوروبي الشهير كريستوفر كولومبوس على شواطئ جزيرة صغيرة تقع في نصف الكرة الأرضية الغربي، في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢م، وحيث كانت مغامرة هذا البحار رهانًا على انتصار الخيال على الواقع، اعتبر كثيرٌ من المؤرخين أن هذا التاريخ يصلح كنقطة للبدء في تتبُّع رحلة الغرب الأوروبي مع العصر الحديث، والانطلاق إلى آفاق الحضارة والولوج إلى الدنيا الجديدة باكتشافاتها المذهلة، وثوراتها الصناعية والعلمية، وانفجاراتها المعرفية والوجودية التي لا تحد.

لكن القصة ربما تعود إلى ما قبل هذا التاريخ بحوالي ثلاثة قرون؛ إذ لا يمكن تتبع قصة العقل الأوروبي الحديث، وعمليات تشكله، ومراحل تكوينه، إلى مجرد «مقامرة» قام بها مغامر جريء ليكتشف الجانب الآخر من جغرافية الأرض، وتبدأ معها سلسلة من التحولات والهجرات من قلب قارات العالم القديم لتأخذ مسارها في القرون التالية إلى «أرض الأحلام»، أو كما أطلق عليها كولومبوس «جزر الهند»، إنما هي في حقيقة الأمر نتاج مجموعة معقدة من التفاعلات السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والفكرية شهدتها المجتمعات الأوروبية طوال قرنين كاملين، مثلت الأساس الذي انبنت عليه رحلة الخروج من العصور الوسطى والتأهب لخوض مغامرة الحضارة في العصر الحديث.

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب القيِّم «تكوين العقل الحديث» بمجلدَيه، للمفكر مؤرخ الفلسفة المعاصر جون هرمان راندال، (صدرت منه طبعة جديدة عن المركز القومي للترجمة ضمن سلسلة «ميراث الترجمة»، وكانت طبعته الأولى قد صدرت بين عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨م بترجمة الدكتور جورج طعمة، ومراجعة برهان دجاني، وتقديم الكاتب الراحل الكبير محمد حسين هيكل، بدعم من مؤسسة فرانكلين الأمريكية).

صحيحٌ أن المكتبة العربية لم تخلُ من عدة كتب مترجمة أو مؤلفة عالجت الموضوع ذاته، مثل كتابَي برنتون الشهيرين: «قصة الفكر الغربي.. أفكار ورجال»، الذي ترجمه في منتصف القرن الماضي محمود محمود، و«تشكيل العقل الحديث»، الذي ترجمه شوقي جلال، وصدر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية قبل سنوات بعيدة، وكذلك كتاب «تكوين العقل الحديث» لفيليب هودجكس، و«تاريخ الفكر الأوروبي الحديث» لرونالد سترومبرج وترجمة أحمد الشيباني، إضافة إلى كتب أخرى أحدث، مثل كتاب الفرنسية جاكلين روس «مغامرة العقل الأوروبي.. قصة الأفكار الغربية» بترجمة أمل ديبو.. فإن كتاب راندال «تكوين العقل الحديث» يظل هو الكتاب الأشمل والأغنى والأوسع من حيث مادته أو منهجه أو إحاطته بتفاصيل دقيقة وضرورية عن التطورات الفكرية والمعرفية والفلسفية والكشوفات العلمية في أوروبا طوال أكثر من ثمانية قرون متصلة، إضافة إلى - كما يقول حسن طلب في تصديره للكتاب - استناده إلى ما أنجزته مدرسة تاريخ الأفكار في أمريكا خلال النصف الأول

من القرن العشرين، خاصة لدى أهم ممثليه: «آرثر لفجوي» (١٨٧٣ـ ١٩٦٢م)، ممَّا يضفي عليه قيمة كبرى، بحسب «طلب».

ويؤكد «طلب» أنه لا يعرف كتابًا آخر في العربية ـ مترجمًا أو مؤلفًا ـ يلبي الحاجة الملحة إلى المعرفة بالأصول الفكرية والثقافية التي نهضت عليها الحضارة الغربية المعاصرة، على النحو الذي يلبيها به كتاب «راندال»، بما انفرد به من عمق وشمول ودقة، لا سيَّما أن مؤلفه من المفكرين المرموقين في عالم الفلسفة بما أنجزه من دراسات لامعة حول أفلاطون وأرسطو، ويشير «طلب»، في هذا الجانب، إلى معرفة القارئ العربي بمدخله المهم إلى الفلسفة الذي ألَّفه بالاشتراك مع «جوستاس بوخلر» ونقله إلى اللغة العربية ملحم قربان عام ١٩٦٣م.

اتخذ مؤلف الكتاب نقطة البدء في رحلته عن نشوء الفكر الغربي الحديث، وبحثه عن تكوين العقل الأوروبي، ما وقع في القرن الثاني عشر المسيحي في أوروبا من وقائع وصراعات بين الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تبسط نفوذها وسلطانها على نفوس الأوروبيين، وبين نظم الإقطاع الغربي في العصور الوسطى، التي شهدت نضالًا عنيفًا وصراعًا محتدمًا بين الطرفين، يشبه ذلك إلى حد كبير ما حدث في العصر الحديث بين الكنيسة والإقطاعيات الأوروبية العتيدة.

هذه الصراعات المحتدمة، وأحداث ذلك التاريخ، تمخَّضت عن حركة «الإصلاح الديني» أو حركة الإصلاح البروتستانتية التي قادها وقام بها مارتن لوثر وكلفن وكوسوث، التي فتحت الباب على مصراعيه لإعادة النظر إلى نصوص الكتاب المقدس، وكسر احتكار وهيمنة رجال الدين على تفسيراته العتيقة، لتبدأ فعليًّا رحلة الفكر الأوروبي نحو العصور الحديثة.

أما تطورات هذا الفكر ومراحله وأطواره، فقد تتبعها الكتاب تفصيلًا، عبر ما يقرب من ألف ومئة صفحة من القطع الكبير، موضِّحًا ما كان هذا الفكر الغربي في نشأته الحديثة، وآثاره التالية في السياسة والاجتماع والبحث العلمي الذي شق طريقه بمعزل عن الدين، لينطلق حرًّا بلا قيود.

الكتاب يروي قصص كبريات الثورات الحضارية التي أخرجت المجتمع الأوروبي من القرون الوسطى إلى العالم الحديث؛ حيث اعتاد مؤرخو الأفكار أن يرجعوا مكاسب الإنسان الحديث في «الحرية» و«التحرر» و«حقوق الإنسان» إلى الثورات الثلاث الكبرى: «الفرنسية والأمريكية والاشتراكية»، بحسب مترجم الكتاب جورج طعمة.

هذه الثورات الكبرى التي غيَّرت تاريخ الإنسانية وتمخَّض عنها العالم المتخلف، والتي ما زالت تهز جذوره وقواعده، هي بشكل أو آخر، امتداد هذه الثورات الثلاث، بل هي امتداد للثورة التكنولوجية قبل كل شيء. لكن هذا الرأي لا يصوِّر الحقيقة كاملة، وهذا ما يسعى الكتاب إلى تجاوزه من خلال رصده لرحلة خروج الإنسان «الغربي» من القرون الوسطى إلى العصر الحديث، متعرضًا لمواكب عشرات الثورات العقلية والعلمية الهادئة التي هيَّأت للثورات الثلاث الكبرى ومهَّدت لها.

من هذه الثورات الممهدة: نمو الروح الإنسانية في مطلع العصور الحديثة، والتشديد على قيمة «الإنسان»، وأهميته المركزية في البحث والمعرفة والوجود على السواء. وكذلك حركة الإصلاح الديني وما تبعها من رد فعل إصلاحي في الكنيسة الغربية. أيضًا الثورة الأخلاقية التي مهَّد لها المصلحون من داخل الكنيسة، والثورة على الإقطاع بكل

أشكاله، التي تواكبت مع ولادة النظريات السياسية الحديثة وظهور الاتجاه الدستوري.

ذلك كله، بالإضافة إلى اكتشاف العلم العربي الإسلامي، وما كان له من كبير أثر في إيقاظ النزعة «العلمية الاستقرائية» وبزوغ الاتجاه «التجريبي» على يد فرانسيس بيكون، في الوقت الذي اشتدت فيه الحملة على عقم فلسفات العصور الوسطى، التي قامت على أنقاضها ثورات العلم الحديث باكتشافات ومنجزات كلٍّ من: يوهان كبلر وجاليليو جاليلي وكوبرنيكوس ورينيه ديكارت، وما نتج عن أعمال هؤلاء من آثار بعيدة المدى في تأكيد حكم القانون على الطبيعة.

ثم يأتي إسحق نيوتن باكتشافاته المذهلة في الفيزياء والرياضيات، التي قفزت بالطريق العلمي التجريبي قفزاتٍ هائلة، وتأسيس نموذج معرفي جديد، وتأكيد القدرات اللامحدودة للعقل البشري.

كل ما سبق أدى إلى اندلاع حركة محمومة من البحث والتفكير في الكائن المشكل المسمى الإنسان، فظهرت علوم الإنسان الحديثة، من علم الطبيعة البشرية، والاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا والاقتصاد والسياسة، مع ظهور النظريات الدستورية الحديثة وعلم الأخلاق.

في المجمل، فإن الكتاب، كما يشير «طِلب»، يمثِّل بانوراما شاملة وكلية لمراحل تكوين العقل الأوروبي الحديث؛ بمعنى العقل الغربي صاحب الحضارة التي كتب لها السيادة في عصرنا هذا، فالموضوع من هذه الزاوية يهمنا كما يهم غيرنا من حيث ضرورة الحاجة إلى معرفة الأصول الفكرية والأسس الثقافية التي نهضت عليها الحضارة الغربية المعاصرة، ولا غنى عنه لأي ساعٍ إلى البحث عن أصول الحضارة الحديثة، بما تضمَّنه من سجل حافل لتاريخ الفكر الأوروبي الحديث، والمدارس

الفكرية، والمذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية، التي نشأت في أوروبا منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وحتى بدايات القرن العشرين، ذلك كله في تسلسل تاريخي يتتبع جذور هذه الأفكار والفلسفات والمذاهب كلها، ويستقصي منابعها الأولى في الثقافة والمجتمع والتاريخ الأوروبي، ويتابع بدقةٍ تطورها وتوالدها وتلاقحها، والآثار التي ترتبت على ظهورها في مختلف جوانب الحياة والنهضة الأوروبية، ما يساعد قارئه في النهاية على الفهم العميق للفكر الأوروبي بكل أبعاده ومدارسه، واستيعاب جذوره وتاريخ تكوينه وتطوره، ويشكل بالتالي خلفية أساسية لفهم الحياة والتاريخ المعاصر لجميع البلدان الأوروبية.

ولا يفوت كاتب التصدير، الدكتور حسن طلب، في الطبعة الجديدة من الكتاب، الإشارة المركَّزة إلى قيمة الكتاب وفائدته الكبرى وقيمته المعرفية والتاريخية من بين الكتب التي تعرضت للموضوع عينه في الثقافة العربية؛ حيث يقول: «تهيأ لهذا الكتاب من عناصر النجاح ما يكفي لجعله في الصدارة من حيث موضوعه، ومن حيث التوفيق في اختياره، وكذلك من حيث اجتماع مترجم أمين كفء (الدكتور جورج طعمة) يعرف أسرار اللغة التي ينقل إليها قبل التي ينقل منها، إلى مراجع دقيق من المتخصصين الثقات (برهان دجاني).

أما صاحب المقدمة، الدكتور محمد حسين هيكل، فهو علم مرموق من أعلام نهضتنا الفكرية في النصف الأول من القرن العشرين».

المحتويات

رحلة إلى مدينة «اقرأ»! ٧
مقدمة ١١

الباب الأول
بهجة القراءة ١٥

• شغف القراءة معرض الكتاب.. برد وحنين وذكريات لا تنسى! ١٧
• لكل شيخ طريقة.. كيف كانوا يقرؤون؟ ٢٢
• أُسطوات فنِّ التثقيف ٢٦
• مولد «اقرأ».. تاريخ سلسلة عظيمة ٣٥
• «لماذا نقرأ؟».. قصة كتاب عظيم ٤١
• قصتي مع دار المعارف ٥٠
• سهير القلماوي.. و«العالم بين دفتي كتاب» ٥٤
• كتب «مانغويل» عن القراءة.. شيء مختلف! ٥٩
• رسالة إلى قارئ شاب ٦٧
• «اقرأ».. مسابقة جامعة القاهرة ٧٠

الباب الثاني

في الأدب.. وتاريخ الأدب! ٨٧

- استهلال ٨٩
- ٥ حكايات على شرف «ألف ليلة وليلة» أعظم ما قدمه العرب للإنسانية! ٩١
- «الأغاني» لـ«الأصفهاني».. في عيون المعاصرين ١١١
- في عشق الدراما التاريخية «ليلة سقوط غرناطة».. السيناريو النادر! ١١٩
- «قاموس الأدب العربي الحديث» ١٢٤
- «موسوعة كمبردج لتاريخ الأدب العربي» ١٢٨
- «في الشعر الجاهلي» لطه حسين.. .... ١٣٦
- قضية «استخدام الحياة».. ووكيل نيابة الشهوة الفانية! ١٤٥

الباب الثالث

في النـقـد! ١٥٩

- كـلام عـن النـقد والنـقاد! ١٦١
- «نماذج بشرية» محمد مندور.. نجومية النقد والناقد ١٦٦
- «علم الأسلوب.. مدخل ومبادئ» إحياء تراث شكري عياد «النقدي» ١٧٢

• الحكي بـ«أنت».. من «التوحيدي» إلى يوسف إدريس خيري دومة.. الناقد الأصيل ١٧٨
• ميخائيل باختين.. «سيرة» ناقد القرن العشرين ١٨٤

الباب الرابع

تراثنا.. تاريخنا! ١٨٩

• استهلالات نصية! ١٩١
• كيف تعرفتُ إلى كتب التراث؟ ١٩٣
• «مداخل في قراءة التراث العربي» ١٩٨
• «ذخائر العرب».. عيون التراث العربي ٢٠٥
• تراث الحركة الفكرية في مصر الإسلامية! ٢١٤
• «أدب مصر الإسلامية» محمدكامل حسين.. «الرائد الأدبي المجهول» ٢٢٠
• «تراث الإنسانية».. في صحبة العباقرة! ٢٢٨
• عن «أعلام العرب».. و«روائع الأدب العالمي للناشئين»!.... ٢٣٣
• تاريخ البشرية من الألف إلى الياء.. بتوقيع هربرت جورج ويلز! ٢٤٢
• هوامش ذاتية على ترجمات رفيعة ٢٤٧
• نور الحضارة الغربية.. العقل في مواجهة الخرافة ٢٥٥



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

شغف القراءة

ما أكثر الأسئلة التي تلقيتها وأتلقاها في لقاءات وندوات جمعتني بشبابٍ رائع يبحث عن المعرفة وشغوف بالقراءة والبحث، شباب يبحث عن "بوصلة" تساعده على تنظيم قراءاته، لكنهم دائمًا ما يتوقفون عند منحنيات تُعاكسهم: من أين نبدأ؟ وماذا نقرأ؟ وكيف؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت دافعًا وحافزًا لتأليف مادة هذا الكتاب؛ أتوجّه به مباشرة لهؤلاء الشباب، واضعًا بين أيديهم ولهم بعض خبرةٍ ذاتية متواضعة في قراءة الكتب ومعايشتها في الآن ذاته، و"القراءات" التي أسعى إلى تقديمها هنا إنما هي في الحقيقة "خُلاصة" لتفاعل ما، بيني وبين هذه الكتب، أسجل انطباعاتي عن كتب وأعمال فكرية أو أدبية أو نقدية أو تاريخية أو تراثية.. رسخت في الوجدان والذاكرة، وتركت أثرها يتغلغل في بطء وهدوء، ممتد المفعول حتى اللحظة!

إيهاب الملاح

كاتب وناقد مصري، وباحث في التراث الثقافي، تخرّج في كلية الآداب جامعة القاهرة، ويعمل حاليًا رئيسًا للقسم الثقافي بمجلة أكتوبر القومية، وكاتب رأي في جريدة الشروق المصرية. صدر له كتاب "مشاغبات مع الكتب" 2015، و"تاريخ دار المعارف - 125 عامًا من الثقافة" 2015، و"حسين نصار سبعون عامًا من العطاء" 2018، كما أعدّ وقدّم كتاب "لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين" 2017.

تصميم الغلاف كريم آدم



